كتاب

﴿ مرشد الخلق الى طريق الحق ﴾

﴿ لمؤلفه ﴾

احمد التابعي

﴿ الحائز شهادة التدريس الانتهائيه ﴾

(من دار العلوم الخديويه)

« والمستخدم الآن بديوان عموم الاوقاف »

بمصر

﴿ ثمن النسخة الواحدة عشرة قروش صاغ ﴾

مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين وتابعيهم باحسان الى يوم الدين

وبعد فأقول (وأنا الفقير اليه تعالى أحمد النابى) إنى لما سافرت الى باريس عاصمة فرنسا فى سنة ١٨٩٩ افرنجية مدرساً للغة العربية بمدرسة الألسن الشرقية وأقمت فيها أربع سنين لاحظت فى أثنائها انصراف الناس عما يجب عليهم نحو الخالق مما يسعدهم حالا ومآلا حتى أدهشنى ما رأيته من وصولهم بجدهم فى العلوم والمعارف الى أسرار الكائنات فى السموات والأرض من انسان وحيوان ونبات وجماد بما فيها سير الكواكب ونظام العالم العلوى مع اهمالهم النظر في المؤثر الحقيق فى تلك الأشياء وهو الخالق جل شأنه فكان من لوازم تلك المعرفة لمنافع الاشياء الاعتراف لمدبرها والخضوع لأوامره ونواهيه ولكن أبت هذه المدنية العصرية الكاذبة الا أن تؤثر فى تلك العقول المحجوبة عن النظر الى الحقائق بخدعتها والفتها الى المناظر والملاذ الشهوانية (نسوا الله فانساهم أنفسهم)

وقد كادت تلك الملاهى تقف امام نفسى لتبعدها عن مشاهدة الحق فأبى الله ذلك (وما توفيق الا بالله)

الا انى تأسفت على ما وقع فيه الناس (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) من الافراط فى التمسك بالملاذ البدنية التى ينبو عنها طبع بعض أنواع الحيوان وكأنهم اغتروا بما وصلوا اليه من العلوم النظرية التى ساعدت الانسان على استخراج كنوز المعلومات

العالمية وما استفادوه من الاستكشافات والاختراعات الحديثة مما يلفت نظر العاقل البصير الى معنى قوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) فوقف بهم النظر القاصر على مشاهدة الأشياء المادية عن تتبع السير في طريق الاستدلال العقلي على وجود الصانع الحكيم المختار والى حكمة ارسال الرسل لهداية الخلق بما أتوا به عن ربهم من الشرائع الملائمة لمصلحة الخلق معاشاً ومعاداً

فأردت أن أقدم لبني الانسان تذكاراً ينبههم من غفلتهم ويرشدهم الى طريق الحق قياماً بأقدس الواجبات على كل فرد من أفراد النوع الانساني فصرفت من زمني النفيس جزءا ليس بالقليل وضعت فيه هذا الكتاب الذي توخيت فيه سهولة التعبير وملاحظة ما عليه العقل الانساني الآن من الميل الى العقليات (كما يدعون) وجعلت الاستدلال النقلي تابعاً لا مقصوداً ورتبته ترتيباً طبيعياً على سبعة أبواب الباب الاول يتعلق بالالوهية والثاني في الرسل وما يتعلق بوظائفهم والثالث في عقائد التوحيد والرابع في الشرائع المتعبد بها والخامس في رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والسادس في ذكر نخبة من معجزاته صلى الله عليه وسلم والسابع في قيام الساعة ووجوب الاعتراف بها وما يتبعها من الحشر والنشر والثواب والعقاب وسميته (مرشد الخلق الى طريق الحق) واني مع اعترافي بالتقصير في هذا الموضوع الفت القارئ الى النظر في كل أبواب هذا الكتاب مع ملاحظة الترتيب الذي جاء عليه ليستفيد الفائدة المقصودة لي لاشاركه في المنفعة لان الساعي في الخير كفاعله واني أشهد الله وملائكته ورسله اني لم أقصد بهذا العمل المفيد إن شاء الله تعالى الا تذكير نفسي وكل من يسعده الحظ بالنظر فيه

الذى يعتبر فى بابه جديداً من حيث ملاحظة الأغراض المصرية وأعني بها الميل الى العقليات والحكيم من يحسن تشخيص الداء ويصف الدواء الذى يتغلب على الداء مع مراعاة حال المريض سناً وزماناً ومكانا وطبيعة حتى لا يقف شيء من ذلك حجر عثرة في طريق الدواء وها هي النصيحة فأين القبول

وأسأل الله أن يكون النفع شاملا للمسلمين وغيرهم حتى تعم الفائدة وأدخل فى زمرة قوله عليه الصلاة والسلام من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة

مقدمه

إعلم أن معرفة الأشياء على نوعين معرفة عرضية ومعرفة ذاتية أما المعرفة العرضية فكما اذا رأينا بناء علمنا بأنه لا بد له من بان فأما ان ذلك البانى كيف كان فى ماهيته وان حقيقته من أي أنواع الماهيات فوجود البناءلا يدل عليه

وأما المعرفة الذاتية فكما اذا عرفنا اللون المعين ببصرنا وعرفنا الحرارة والبرودة بلمسنا وعرفنا الصوت بسمعنا فانه لا حقيقة للحرارة والبرودة الا هذه الكيفية الملموسة ولا حقيقة للسواد والبياض الا هذه الكيفية المرئية اذا عرفت هذا فنقول انا اذا علمنا احتياج المحدثات الى محدث وخالق فقد عرفنا الله تعالى معرفة عرضية فالمنفى الآن هو المعرفة الذاتية فلتكن هذه الدقيقة معلومة حتى لا تقع في الغلط ولذلك لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يعرف عباده ذاته على لسان الرسل صلوات الله عليهم لم يذكر الا كونه فاعلا

لجميع الأشياء ولو كان جسما مركبا من الاعضاء لكان تعريفه بتلك الاجزاء والاعضاء تعريفاً للشئ باجزاء حقيقته

وأما تعريفه بأحواله وأفعاله وآثاره فذلك تعريف له بأمور خارجة عن ذاته والتعريف الأول أكمل من الثانى ولو كان ذلك القسم ممكناً لكان الاكتفاء بهذا القسم إنما حسن لان القسم الاول محال ممتنع الوجود وذلك يدل على كونه سبحانه وتعالى متعالياً عن الجسمية والأعضاء والاجزاء

ثم ان علمنا بوجود الشئ اما أن يكون ضروريا أو نظريا لا جائز أن يقال العلم بوجود الآله ضرورى لانا نعلم بالضرورة انا لا نعرف وجود الآله بالضرورة فيبقى أن يكون العلم نظريا والعلم النظري لا يمكن تحصيله الا بالدليل ولا دليل على وجود الآله الا أن هذا العالم المشاهد بما فيه من السموات والارضين والجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان محتاج الى مدبر يدبره وموجد يوجده ومرب يربيه ومبق يبقيه

(الباب الاول فى معرفة الطريق الى اثبات الصانع وكيفية الاستدلال عليه)

ان الله سبحانه وتعالى أمر بعبادته والامر بعبادته موقوف على معرفة وجوده ولما لم يكن العلم بوجوده جل شأنه ضروريا بل استدلاليا لا جرم ان أقرب الطرق الى افهام الخلق هو الاستدلال بحدوث الاعراض وذلك محصور في أمرين دلائل الانفس ودلائل الافاق أما دلائل الانفس فهى أن كل أحد يعلم بالضرورة انه ما كان موجودا قبل ذلك وانه صار الآن موجودا وان كل ما وجد بعد العدم فلا بد له من موجد وذلك الموجد ليس هو نفسه ولا الابوين ولا سائر الناس لان عجز الخلق عن مثل هذا التركيب معلوم بالضرورة فلا بد من موجد يخالف هذه الموجودات حتي

يصح منه ايجاد هذه الاشخاص

وللسلف طرق لطيفة في هذا الباب منها أن أبا حنيفة رضي الله عنه كان سيفا على الدهرية وكانوا ينتهزون الفرصة ليقتلوه فبينما هو يوما فى مسجده قاعد اذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة وهموا بقتله فقال لهم أجيبوني عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم فقالوا له هات فقال ماتقولون في رجل يقول لكم انى رأيت سفينة مشحونة بالاحمال مملوءة من الاثقال قداحتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها هل يجوز ذلك في العقل قالوا لا هذا شيء لا يقبله العقل فقال أبو حنيفة يا سبحان الله اذا لم يجز فى العقل سفينة تجري فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ فبكوا جميعا وقالوا صدقت وسئل رضى الله عنه مرة أخرى فتمسك بانالوالد يريد الذكر فيكون أنثى وبالعكس فدل على الصانع ومنها تمسك أحمد بن حنبل رضي الله عنه بقلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها ظاهرها كالفضة المذابة وباطنها كالذهب الابريز ثم انشقت الجدران وخرج من القلعة حيوان سميع بصير فلا بد من الفاعل عنى بالقلعة البيضة وبالحيوان الفرخ ومنها سأل هرون الرشيد الامام مالكا عن ذلك فاستدل باختلاف الاصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات ـ وقد سئل أبو نواس عنه فقال

تأمل في نبات الارض وانظر ... الى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... وأزهار كما الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بان الله ليس له شريك

وسئل اعرابى عن الدليل فقال البعرة تدل على البعير والروث على الحمير وآثار الاقدام على المسير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج أما تدل على الصانع الحكيم العليم القدير وقال آخر عرفته بنحلة فاحد طرفيها يعسل والآخر يلسع والمعسل مقلوب اللسع . روى ان بعض الزنادقة أنكر الصانع عند جعفر الصادق رضى الله عنه فقال جعفر هل ركبت البحر قال نعم قال هل رأيت أهواله قال بلى هاجت يوما رياح هائلة فكسرت السفن وغرقت الملاحين فتعلقت أنا ببعض الواحها ثم ذهب عني ذلك اللوح فاذا أنا مدفوع فى تلاطم الامواج حتى دفعت الى الساحل فقال جعفر قد كان اعتمادك من قبل على السفينة والملاح ثم على اللوح حتى تنجيك فلما ذهبت هذه الاشياء عنك هل أسلمت نفسك للهلاك أم كنت ترجو السلامة بعد قال بل رجوت السلامة قال ممن كنت ترجوها فسكت الرجل فقال جعفر ان الصانع هو الذى كنت ترجوه فى ذلك الوقت وهو الذى أنجاك من الغرق فأسلم الرجل على يده ومنها سألوا الشافعى رضى الله عنه ما الدليل على وجود الصانع فقال ورقة الفرصاد طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم قالوا نعم قال فتأكلها دودة القز فيخرج منها الابريسم والنحل فيخرج منها العسل والشاة فيخرج منها البعر ويأكلها الظباء فينعقد فى نوافجها المسك فمن الذى جعل هذه الاشياء كذلك مع ان الطبع واحد فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده وهم سبعة عشر *

ثم حدوث الحيوانات قد يكون بالتوليد وقد يكون بالتوالد وعلى التقديرين فلا بد فيهما من الصانع الحكيم

أما الانسان فالذى يدل على افتقاره فى حدوثه الى الصانع وجوه

أحدها يروى أن واحداً قال عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه إني أتعجب من أمر الشطرنج فان رقعته ذراع في ذراع ولو لعب الانسان الف الف مرة فانه لا يتفق مرتان على وجه واحد فقال سيدنا عمر رضى الله عنه ههنا ماهو أعجب منه وهو أن مقدار الوجه شبر في شبر ثم ان مواضع الاعضاء التي فيها كالحاجبين والعينين والانف والفم لا يتغير البتة ثم انك لا تجد شخصين في الشرق والغرب يشتبهان في الصورة فما أعظم تلك القدرة والحكمة التي أظهرت في هذه الرقعة الصغيرة هذه الاختلافات التي لا حد لها

وثانيها ماروى عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال سبحان من بصر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم

ومن عجائب الامر في هذا التركيب ان أهل الطبائع قالوا أعلى العناصر يجب أن يكون هو النار لانها حارة يابسة وأدون منها في اللطافة الهواء ثم الماء والارض لابد وان تكون تحت الكل لثقلها وكثافتها ويبسها ثم انهم قلبوا هذه القضية في تركيب بدن الانسان لان أعلى الاعضاء منه عظم القحف والعظم بارد يابس على طبيعة الارض وتحته الدماغ وهو بارد رطب على طبع الماء وتحته النفس وهو حار رطب على طبع الهواء وتحت الكل القلب وهو حار يابس على طبع النار فسبحان من بيده قلب الطبائع يرتبها كيف يشاء ويركبها كيف أراد

ومما يناسب ما ذكر ان كل صانع يأتى بنقش لطيف فأنه يصونه عن التراب كيلا يكدره وعن الماء كيلا يمحوه وعن الهواء كي لا يزيل طراوته ولطافته وعن النار كي لا تحرقه ثم انه سبحانه وتعالى وضع نقش خلقته على هذه الاشياء فقال ن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب وقال

وجعلنا من الماء كل شيء حيّ وقال في الهواء ونفخنا فيه من روحنا وقال في النار وخلق الجان من مارج من نار وهذا يدل على ان صنعه بخلاف صنع كل احد

وثالثها انظر الى الطفل بعد انفصاله من الام فانك لو وضعت على فمه وأنفه ثوباً يقطع نفسه لمات في الحال ثم انه بقي في الرحم الضيق مدة مديدة مع تعذر النفس هناك ولم يمت ثم انه بعد الانفصال يكون من أضعف الاشياء وأبعدها عن الفهم بحيث لا يميز بين الماء والنار وبين المؤذى والملذ وبين الام وبين غيرها ثم ان الانسان وان كان في أول أمره من أبعد الاشياء عن الفهم فانه بعد استكماله أكمل الحيوانات في الفهم والعقل والادراك ليعلم ان ذلك من عطية القادر الحكيم فانه لو كان الأمر بالطبع لكان كل من كان أذكى في أول الخلقة كان أكثر فهما وقت الاستكمال فلما لم يكن الامر كذلك بل كان على الضد منه علمنا أن كل ذلك من عطية الاله الخالق الحكيم

ورابعها اختلاف الالسنة واختلاف الطبائع واختلاف الامزجة من أقوى الدلائل ونرى الحيوانات البرية والجبلية شديدة المشابهة بعضها بالبعض ونري الناس مختلفين جداً في الصورة ولولا ذلك لاختلفت المعيشة ولاشتبه كل احد باحد فما كان يتميز البعض من البعض وفيه فساد المعيشة

﴿ فصل في دلالة خلقة الانسان من النطفة على وجود الصانع جل شأنه ﴾

اعلم ان اشرف الاجسام بعد الافلاك والكواكب هو الانسان المركب من بدن ونفس فتولد البدن من النطفة دلالة على وجود الصانع الحكيم وذلك لأن المؤثر في تصوير النطفة وتشكيلها قوة موجودة في

النطفة أو غير موجودة فيها فان كانت القوة المصورة فتلك القوة اما أن يكون لها شعور وادراك وعلم وحكمة حتى تمكنت من هذا التصوير العجيب واما أن لا تكون تلك القوة كذلك بل يكون تأثيرها بمجرد الطبع والعلية والاول ظاهر الفساد لان الانسان حال استكماله أكثر علما وقدرة ثم انه حال كماله لو أراد أن يغير شعرة عن كيفيتها لا يقدر على ذلك فحال ما كان في نهاية الضعف كيف يقدر على ذلك وأما ان كانت تلك القوة مؤثرة بالطبع فهذا المعنى اما أن يكون جسما متشابه الاجزاء في الطبيعة (أى الماهية) أو مختلف الاجزاء فيها فان كان الحق هو الاول لم يجز أن يكون المقتضى لتولد البدن منها هو الطبيعة الحاصلة فى جوهر النطفة لان الطبيعة تأثيرها بالذات والايجاب لا بالتدبير والاختيار والقوة الطبيعية اذا عملت فى مادة متشابهة الاجزاء وجب أن يكون فعلها هو الكرة وعلى هذا عولوا فى قولهم البسائط يجب أن تكون أشكالها الطبيعية فى الكرة فلو كان المقتضى لتولد الحيوان من النطفة هو الطبيعة لوجب أن يكون شكلها الكرة وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا ان المقتضي لحدوث الابدان الحيوانية ليس هو الطبيعة بل فاعل مختار يخلق بالحكمة والتدبير والاختيار

وأما القسم الثانى وهو أن يقال النطفة جسم مركب من أجزاء مختلفة فى الطبيعة فبيانه أن النطفة رطوبة سريعة الاستحالة واذا كان كذلك كانت الاجزاء الموجودة فيها لا تحفظ الوضع والنسبة فالجزء الذي هو مادة الدماغ يمكن حصوله فى الاسفل والجزء الذى هو مادة القلب قد يحصل فى الفوق واذا كان الأمر كذلك وجب أن لا تكون أعضاء الحيوان على هذا الترتيب المعين أمراً دائماً ولا أكثريا وحيث كان الامر كذلك علمنا أن حدوث

هذه الاعضاء على هذا الترتيب الخاص ليس الا بتدبير الفاعل المختار

أما الاستدلال بأحوال النفس الانسانية على وجود الصانع الحكيم فتقريره أن يقال ان النفوس الانسانية في أول الفطرة أقل فهما وذكاء وفطنة من نفوس سائر الحيوانات الا ترى ان ولد الدجاجة كما يخرج من قشر البيضة يميز بين العدو والصديق فيهرب من الهرة ويلتجئ الى الام ويميز بين الغذاء الذي يوافقه والغذاء الذي لا يوافقه واما ولد الانسان فانه حال انفصاله عن بطن الام لا يميز البتة بين العدو والصديق ولا بين الضار والنافع فظهر ان الانسان في أول الحدوث انقص حالا واقل فطنة من سائر الحيوانات ثم ان الانسان بعد كبره يقوي عقله ويعظم فهمه ويصير بحيث يعرف مساحة السموات والارض ويقوى على معرفة ذات الله بمعرفة صفاته وعلى معرفة أصناف المخلوقات من الارواح والاجسام والفلكيات والعنصريات ويقوى على ايراد الشبهات القوية في دين الله تعالى والخصومات الشديدة في كل المطالب فانتقال نفس الانسان من تلك البلادة المفرطة الى هذه الكياسة المفرطة لا بد وان يكون بتدبير اله مختار حكيم ينقل الارواح من نقصانها الى كمالها ومن جهالاتها الى معارفها بحسب الحكمة والاختيار وهذا هو معنى قوله تعالى (اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين)

والحاصل ان خلقه لو كان من أشياء مختلفة الصور كان يمكن أن يقال العظم خلق من جنس صلب واللحم من جنس رخو وكذلك الحال في كل عضو ولما كان خلقه من نطفة متشابهة الاجزاء وهو مختلف الصور دل على الاختيار والقدرة وأيضاً هنا لطيفة غريبة كما دلت عليها الآية وهي اختلاف

صور أعضائه مع تشابه أجزاء ما خلق منه آية ظاهرة ومع هـذا فهنالك ما هو أظهر وهو نطقه وفهمه وذلك لان النطفة جسم فهب أن جاهلا يقول انه استحال وتكون جسما آخر لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من أين تقتضيها النطفة فابداع النطق والفهم اعجب واغرب من ابداع الخلق والجسم وهو الى ادراك القدرة والاختيار منه اقرب وانما ذكر الله تعالى الخصيم بدل الناطق فى الآية لانه اعلى احوال الناطق فان الناطق مع نفسه لايبين كلامه مثل ما يبينه وهو يتكلم مع غيره والمتكلم مع غيره اذا لم يكن خصما لا يبين ولا يجتهد مثل ما يجتهد اذا كان كلامه مع خصمه

﴿ فصل في دلالة الذكورة والانوثة على وجود الصانع الحكيم ﴾

(قال الله تعالى ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها)

قال الاطباء وأهل الطبيعة التفاوت بين الذكر والأنثى انما كان لاجل ان كل من كان اسخن مزاجا فهو الذكر وكل من كان اكثر برداً ورطوبة فهو المرأة ثم قالوا المني اذا انصب الى الخصية اليمنى من الذكر ثم انصب منه الى الجانب الايمن من الرحم كان الولد ذكراً تاما في الذكورة وان انصب الى الخصية اليسرى من الرجل ثم انصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد أنثى تاما فى الانوثة وان انصب الى الخصية اليمني ثم انصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد ذكراً في طبيعة الاناث وان انصب الى الخصية اليسرى من الرجل ثم انصب منها الي الجانب الايمن من الرحم كان هذا الولد أنثي في طبيعة الذكور

واعلم ان حاصل هـذا الكلام ان الذكورة علتها الحرارة واليبوسة والانوثة علتها البرودة والرطوبة وهذه العلة في غاية الضعف فقد رؤي في

النساء من كان مزاجه فى غاية السخونة وفي الرجال من كان مزاجه في غاية البرودة ولو كان الموجب للذكورة والأنوثة ما ذكر لامتنع ذلك فثبت ان خالق الذكر والانثى هو الاله القديم الحكيم وظهر بالدليل الذى ذكر صحة قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا

ثم قوله تعالى خلق لكم دليل على ان النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع وهذا يقتضى أن لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف قال الرازى خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لاتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه الينا وذلك من حيث النقل والحكم والمعني أما النقل فهذا وغيره وأما الحكم فلان المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلف الرجل بها وأما المعني فلان المرأة ضعيفة الخلق سخيفة فشابهت الصبي لكن الصبي لم يكلف فكان يناسب ان لا تؤهل المرأة للتكليف لكن النعمة علينا ما كانت تتم الا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج وتمتنع عن المحرم ولولا ذلك لظهر الفساد

قال سعيد بن المسيب (وهو من كبار التابعين) ما أيس ابليس من أحد الا وأتاه من قبل النساء وقال أيضاً وهو ابن اربع وثمانين سنة وقد ذهبت احدى عينيه وهو يعشو بالاخرى ما شيء اخوف عندى من النساء وعن عبد الله بن ابى وداعه قال كنت اجالس سعيد بن المسيب فتفقدني اياما فلما اتيته قال اين كنت قلت توفيت اهلي فاشتغلت بها فقال هلا أخبرتنا فشهدناها قال ثم أردت أن أقوم فقال هل استحدثت امرأة فقلت يرحمك الله تعالى ومن يزوجني وما أملك الا درهمين فقال أنا فقلت وتفعل قال نعم فحمد الله تعالى وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وزوجني على درهمين

قال فقمت وما اجري ما اصنع من الفرح فصرت الى منزلي وجعلت افكر ممن آخذ وممن استدين فصليت المغرب وانصرفت الى منزلي فاسرجت وكنت صائماً فقدمت عشائي لافطر وكان خبزاً وزيتاً واذا بابي يقرع فقلت من هذا قال سعيد قال فأفكرت في كل انسان اسمه سعيد الا سعيد بن المسيب وذلك انه لم ير اربعين سنة الا بين داره والمسجد قال فخرجت اليه فاذا به سعيد بن المسيب فظننت انه قد بدا له فقلت يا ابا محمد لو ارسلت الى لاتيتك فقال لأنت احق ان تؤتى قلت فما تأمر قال انك كنت رجلا عزبا فتزوجت فكرهت ان أبيتك الليلة وحدك وهذه امراتك واذا هي قائمة خلفه في طوله ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب ورده فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب ثم تقدمت الي القصعة التي فيها الخبز والزيت فوضعتها في ظل السراج لكيلا تراه ثم صعدت السطح فرميت الجيران فجاءوني وقالوا ما شأنك قلت ويحكم زوجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا أوسعيد زوجك قلت نعم قالوا وهي في الدار قلت نعم فنزلوا اليها وبلغ ذلك أمي فجاءت وقالت وجهي من وجهك حرام ان مسستها قبل ان اصلحها الي ثلاثة أيام قال فاقمت ثلاثا ثم دخلت بها فاذا هي من أجمل النساء واحفظ الناس لكتاب الله تعالي واعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واعرفهم بحق الزوج قال فمكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه فلما كان بعد الشهر اتيته وهو في حلقته فسلمت عليه فرد على السلام ولم يكلمني حتى تفرق الناس من المجلس فقال ما حال ذلك الانسان فقلت بخير يا ابا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو قال ان رابك منه امر فدونك والعصا فانصرفت الي منزلي فوجه الي بعشرين الف درهم قال

عبد الله بن سليمان وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها ابنه عبد الملك ابن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد فأبي سعيد ان يزوجه فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد وصب عليه جرة ماء والبسه جبة صوف

فصل في دلالة انتقال الانسان في مراتب عمره
والتفصيل في الرزق على وجود الصانع الحكيم

من عجائب أحوال الانسان انتقاله من سن الي سن وهو عبارة عن مراتب العمر والعقلاء ضبطوها في أربعة أولها سن النشوء والنماء وثانيها سن الوقوف وهو سن الشباب وثالثها سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة ورابعها سن الانحطاط الكبير وهو سن الشيخوخة والناقل في ذلك هو الله تعالى

والاطباء الطبيعيون قالوا المقتضى لهذا الانتقال هو طبيعة الانسان لانه مخلوق من المني ومن دم الطمث والمنى والدم جوهران حاران رطبان والناقل الى هـذه الادوار هو تأثير الحرارة في الرطوبة وهو كلام فاسد لانه في أول ما كان المني منياً وكان الدم دما كانت الرطوبة غالبة وكانت الحرارة الغريزية مغلوبة وكانت ضعيفة بهذا السبب وأيضا كانت بمقدار جرم النطفة ثم انها مع ضعفها قويت على تحليل أكثر تلك الرطوبات وأبانتها من حد الدموية والمنوية الى أن صارت عظما وغضروفا وعصبا ورباطا وعند ما تولدت الاعضاء وكمل البـدن قلت الرطوبات فتوجب أن تكون للحرارة الغريزية قوة أزيد مما كانت قبل ذلك فوجب أن يكون تحليل الرطوبات بعـد تولد البدن وكماله أزيد من تحللها قبل تولد البـدن ومعلوم انه ليس الأمر كذلك

لانه قبل تولد البدن انتقل جسم المني والدم الى أن صار عظما وعصبا وأما بعد تولد البدن فلم يحصل مثل هذا الانتقال ولا عشر عشره فلو كان تولد هذه الاعضاء بسبب تأثير الحرارة فى الرطوبة لوجب أن يكون تحلل الرطوبات بعد كمال البدن أكثر من تحللها قبل تكون البدن ولما لم يكن الامر كذلك علمنا ان تولد البدن انما كان بتدبير قادر حكيم يدبر أبدان الحيوانات على وفق مصالحها وما كان تولد البدن لاجل ماقالوه من تأثير الحرارة فى الرطوبة

ومن عجائبه أيضا أن نري أكيس الناس وأكثرهم عقلا وفهما يفنى عمره فى طلب القدر القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك ونرى أجهل الخلق وأقلهم عقلا وفهما تنفتح عليه أبواب الدنيا وكل شئ خطر بباله ودار في خياله فانه يحصل له فى الحال ولو كان السبب جهل الانسان وعقله لوجب أن يكون الاعقل أفضل فى هذه الاحوال فلما رأينا ان الاعقل أقل نصيباً وان الاجهل الاخس أوفر نصيباً علمنا ان ذلك بسبب قسمة القسام كما قال تعالى (أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) وقال الشافعي

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق

ثم ان هذا التفاوت غير مختص بالمال بل خاص في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح قال الرازي رحمه الله تعالى وهذا بحر لا ساحل له وقد كنت مصاحبا لبعض الملوك فى بعض الاسفار وكان ذلك الملك كثير المال والجاه وكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه وما كان يمكنه ركوب واحد منها وربما حضرت الاطعمة الشهية والفواكه العطرة عنده وما كان يمكنه تناول شيء منها

وكان الواحـد منا صحيح المزاج قوي البنية كامل القوة وما كان يجـد ملء بطنه طعاما فذلك الملك وان كان يفضل على هذا الفقير في المال الان هذا الفقير كان يفضـل على ذلك الملك في الصحة والقوة وهـذا باب واسع اذا اعتبره الانسان عظم تعجبه منه

﴿ فصل في بيان ان الفطرة الاولية شاهدة بوجود الصانع الحكيم ﴾

اعلم أن الفطرة الاولية شاهدة بوجود الصانع المختار ويدل لذلك وجوه الاول قال بعض العقلاء ان من لطم على وجه صبي لطمة فتلك اللطمة تدل على وجود الصانع المختار وعلى حصول التكاليف وعلى وجوب دار الجزاء وعلى وجود النبي

أما دلالتها على وجود الصانع المختار فلان الصبي العاقل اذا وقعت على وجهه يصيح ويقول من الذى ضربني وما ذاك الا ان شهادة فطرته تدل على أن اللطمة لما حدثت بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها لاجل فاعل فعلها ولاجـل مختار أدخلها في الوجود فلما شهدت الفطرة الاصليـة بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته الى الفاعل فبان تشـهد بافتقار جميع حوادث العالم الى الفاعل أولى

وأما دلالتها على وجود التكليف فـلأن ذلك الصبي ينادى ويصـيح ويقول لم ضربنى ذلك الضارب وهذا يدل على انفطرته شهدت بان الافعال الانسانية داخلة تحت الامر والنهي ومندرجة تحت التكليف وان الانسان ما خلق حتى يفعل أى فعل شاء واشتهى وأما دلالتها على وجود دار الجزاء فهو ان ذلك الصبي يطلب الجزاء على تلك اللطمة وما دام يمكنه طلب ذلك الجزاء فانه لا يتركه فلما شهدت الفطرة الاصلية بوجوب الجزاء على ذلك

العمل القليل فبأن تشهد على وجوب الجزاء على جميع الاعمال أولى وأما دلالتها على وجود النبوة فلأنهم يحتاجون الى انسان يبين لهم أن العقوبة الواجبة على ذلك القدر من الجناية كم هى ولا معني للنبي الا الانسان الذى يقدر هذه الامور ويبين لهم هذه الاحكام فثبت ان فطرة العقل حاكمة بأن الانسان لا بد له من هذه الامور الاربعة

الوجه الثاني فى التنبيه على ان الاقرار بوجود الصانع بديهي هو ان الفطرة شاهدة بان حدوث دار منقوشة بالنقوش العجيبة مبنية على التركيبات اللطيفة الموافقة للحكمة والمصلحة يستحيل الا عند وجود نقاش عالم وبان حكيم ومعلوم ان آثار الحكمة فى العالم العلوى والسفلى أكثر من آثار الحكمة فى تلك الدار المختصرة فلما شهدت الفطرة الاصلية بافتقار النقش الى النقاش والبناء الى البانى فبأن تشهد بافتقار كل هذا العالم الى الفاعل المختار الحكيم أولى

الوجه الثالث ان الانسان اذا وقع فى محنة شديدة وبلية قوية لا يبقى فى ظنه رجاء المعاونة من أحد فكان باصل خلقته ومقتضى جبلته يتضرع الى من يخلصه منها ويخرجه من علائقها وحبائلها وما ذاك الا شهادة الفطرة بالافتقار الى الصانع المدبر

الوجه الرابع ان الموجود اما أن يكون غنيا عن المؤثر أولا يكون فان كان غنيا عن المؤثر فهو الموجود الواجب لذاته فانه لا معنى للواجب لذاته الا الموجود الذى لا حاجة به الى غيره وان لم يكن غنيا عن المؤثر فهو محتاج والمحتاج لا بد له من المحتاج اليه وذلك هو الصانع المختار

الوجه الخامس ان الاعتراف بوجود الاله المختار المكلف وبوجود المعاد أحوط فوجب المصير اليه فهذه مراتب أربعة أولها الاقرار بوجود

الاله أحوط لانه لو لم يكن موجودا فلا ضرر في الاقرار بوجوده وان كان موجوداً ففى انكاره أعظم المضار . وثانيها الاقرار بكونه فاعلا مختارا لانه لو كان موجبا فلا ضرر فى الاقرار بكونه مختارا أما لو كان مختارا ففي انكار كونه مختارا أعظم المضار وثالثها الاقرار بانه كلف عباده لانه لو لم يكلف أحدا من عبيده شيئا فلا ضرر فى اعتقاد انه كلف العباد اما انه لو كلف ففي انكار التكاليف أعظم المضار ورابعها الاقرار بوجود المعاد فانه ان كان الحق انه لا معاد فلا ضرر فى الاقرار بوجوده لانه لا يفوت الا هذه اللذات الجسمانية وهى حقيرة ومنقوصة وان كان الحق هو وجود المعاد ففي انكاره أعظم المضار فظهر ان الاقرار بهذه المقامات أحوط فوجب المصير اليه لان بديهة العقل حاكمة بانه يجب دفع الضرر عن النفس بقدر الامكان

﴿ فصل فى دلالة أحوال حدوث اللبن على وجود الصانع جل شأنه ﴾

حدوث اللبن فى الثدي واتصافه بالصفات التى باعتبارها يكون موافقاً لتغذية الصبي مشتمل على حكم عجيبة وأسرار بديعة يشهد صريح العقل بانها لا تحصل الا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبر الرحيم وبيانه من وجوه

الاول انه تعالى خلق فى أسفل المعدة منفذا يخرج منه ثقل الغذاء فاذا تناول الانسان غذاء أوشربة رقيقة انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا لايخرج منه شيء من ذلك المأكول والمشروب الى ان يكمل انهضامه فى المعدة وينجذب ماصفا منه الى الكبد ويبقي الثقل هناك فحينئذ ينفتح هذا المنفذ وينزل منه الثقل وهذا من العجائب التى لايمكن حصولها الا بتدبير الفاعل الحكيم لانه متى كانت الحاجة الى بقاء الغذاء في المعدة حاصلة انطبق ذلك المنفذ واذا حصلت الحاجة الى خروج ذلك عن المعدة انفتح فحصول الانطباق تارة والانفتاح

أخرى بحسب الحاجة وتقدير المنفعة مما لا يتأتى الا بتدبير الفاعل الحكيم

الثاني انه تعالى أودع في الكبد قوة تجذب الأجزاء اللطيفة الحاصلة في ذلك المأكول او المشروب ولا تجذب الاجزاء الكثيفة وخلق في الامعاء قوة تجذب تلك الاجزاء الكثيفة التي هي الثقل ولا تجذب الاجزاء اللطيفة البتة ولو كان الامر بالعكس لاختلت مصلحة البدن ولفسد نظام هذا التركيب

الثالث انه تعالى أودع في الكبد قوة هاضمة طابخة حتى ان تلك الاجزاء اللطيفة تنطبخ في الكبد وتنقلب دما ثم انه تعالى أودع في المرارة قوة جاذبة للصفراء وفي الطحال قوة جاذبة للسوداء وفي الكلية قوة جاذبة لزيادة المائية حتى يبقى الدم الصافي الموافق لتغذية البدن وتخصيص كل واحد من هذه الاعضاء بتلك القوة والخاصية لا يمكن الا بتقدير الحكيم العليم

الرابع ان في الوقت الذي يكون الجنين في رحم الام ينصب من ذلك الدم نصيب وافر اليه حتى يصير مادة لنمو أعضاء ذلك الولد وازدياده فاذا انفصل ذلك الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب الى جانب الثدى ليتولد منه اللبن الذي يكون غذاء له فاذا كبر الولد لم ينصب ذلك النصيب لا الى الرحم ولا الى الثدى بل ينصب على مجموع بدن المتغذى فانصباب ذلك الدم في كل وقت الى عضو آخر انصبابا موافقا للمصلحة والحكمة لا يتأتى الا بتدبير الفاعل المختار الحكيم .

الخامس عند تولد اللبن في الضرع أحدث تعالى في حلمة الثدي ثقوبا صغيرة ومسام ضيقة وجعلها بحيث اذا اتصل المص او الحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن منها في تلك المسام الضيقة ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا لا يخرج منها الا ما كان في غاية الصفاء واللطافة وأما الاجزاء الكثيفة فانه

لايمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى فى الداخل والحكمة في احداث تلك الثقوب الصغيرة والمنافذ الضيقة فى رأس حلمة الثدى ان يكون ذلك كالمصفاة فكل ماكان لطيفا خرج وكل ما كان كثيفا احتبس في الداخل ولم يخرج فبهذا الطريق يصير ذلك اللبن خالصاموافقاالبدن الصبي سائغاللشاربين

السادس انه تعالى الهم ذلك الصبي الى المص فان الام كلما القمت حلمة الثدى في فم الصبي فذلك الصبي فى الحال يأخذ في المص فلولا ان الفاعل المختار الرحيم الهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص لم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن فى الثدى

السابع انه تعالى انما خلق اللبن من فضلة الدم وانما خلق الدم من الغذاء الذى يتناول الحيوان فالشاة لماتناولت العشب والماء فالله تعالى خلق الدم من لطيف تلك الاجزاء ثم خلق اللبن من بعض اجزاء ذلك الدم ثم ان اللبن حصل فيه أجزاء ثلاثة على طبائع متضادة فما فيه من الدهن يكون حاراً رطبا ومافيه من المائية يكون بارداً رطباً وما فيه من الجبنية يكون بارداً يابسا وهذه الطبائع ما كانت حاصلة فى ذلك العشب الذى تناولته الشاة

فظهر بهذا ان هذه الاجسام لا تزال تنقلب من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة مع انه لايناسب بعضها بعضا ولا يشاكل بعضها بعضا وعندذلك يظهر ان هذه الاحوال انما تحدث بتدبير فاعل حكيم رحيم يدبر أحوال هذا العالم على وفق مصالح العباد فسبحان من تشهد جميع ذرات العالم الاعلى والاسفل بكمال قدرته ونهاية حكمته ورحمته له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين قال أهل التحقيق اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار سبحانه فكذلك يدل على امكان الحشر والنشر وذلك لان هذا

العشب الذى يأكله الحيوان انما يتولد من الماء والارض فخالق العالم دبر تدبيراً فقلب ذلك الطين نباتاً وعشباً ثم اذا أكله الحيوان دبر تدبيراً آخر فقلب ذلك العشب دماً ثم دبر تدبيراً آخر فقلب ذلك الدم لبناً ثم دبر تدبيرا آخر فحدث من ذلك اللبن الدهن والجبن فهذا يدل على أنه تعالى قادر على أن يقلب الاجسام من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة فاذا كان كذلك لم يمتنع أيضاً أن يكون قادراً على أن يقلب أجزاء أبدان الاموات الى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه أن البعث والقيامة أمران ممكنان غير ممتنع كما يأتى ذلك فى بابه

﴿ فصل في دلالة أعمال النحل على وجود الصانع المختار سبحانه وتعالى ﴾

كما أن اخراج الالبان من النعم دليل قاهر وبينة باهرة على ان لهذا العالم إلهاً قادراً مختاراً حكيماً كذلك اخراج العسل من النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على اثبات هذا المقصود وما يصدر عنها من الاعمال العجيبة التى تعجز عنها العقلاء من البشر وبيانه من وجوه

الاول انها تبني البيوت المسدسة من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل ذلك البيوت إلا بآلات وأدوات مثل المسطره والبرجل

الثاني انه ثبت فى الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوى المسدسات فانه يبقي بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة أما اذا كانت تلك البيوت مسدسة فانه لا يبقي فيما بينها فرج ضائعة فاهداء ذلك الحيوان الضعيف الى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الاعاجيب

الثالث ان النحل يحصل فيما بينها واحد يكون كالرئيس للبقية وذلك الواحد يكون أعظم جثة من الباقي ويكون نافذ الحكم على تلك البقية وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران وذلك أيضاً من الاعاجيب

الرابع انها إذا نفرت من وكرها ذهبت مع الجمعية الى موضع آخر فاذا أرادوا عودها الى وكرها ضربوا الطنبور والملاهي وآلات الموسيقي وبواسطة تلك الالحان يقدرون على ردها الى وكرها وهذا أيضا حال عجيبة فقد اختص هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة فسبحانه من إله يخلق مايشاء بقدرته على وفق مراده

﴿ فصل في ذكر بعض أمور متضادة تدل على وجود الصانع المختار ﴾

أوجد الله سبحانه وتعالى ضدين الضحك والبكاء في محل واحد والموت والحياة والذكورة والانوثة في مادة واحدة كما قال تعالى في كتابه العزيز (وانه هو أضحك وأبكى وانه هو أمات وأحيا وانه خلق الزوجين الذكر والانثى) فالضحك والبكاء أمران لايملان ولا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدي في اختصاص الانسان بهما وجها وسببا وحينئذ لم يملا بأمر فلا بد لهما من موجد وهو الله سبحانه وتعالى بخلاف الصحة والسقم فانهم يقولون سببهما اختلاف المزاج وخروجه عن الاعتدال ويدلك على هذا انهم اذا ذكروا في الضحك أمراً له الضحك قالوا قوة التعجب وهو في غاية البطلان لأن الانسان ربما يبهت عند رؤية الامور العجيبة ولا يضحك وقيل قوة الفرح وليس كذلك لان الانسان يفرح كثيراً ولا يضحك والحزين الذي عنده غاية الحزن يضحكه المضحك وكذلك الامر في البكاء

والامانة والاحياء أمران وجوديان وهما من خواص الحيوان ويقول

الطبيعى فى الحياة لاعتدال المزاج والمزاج من أركان متضادة هى النار والهواء والماء والتراب وهي متداعية الى الانفكاك وما لا تركيب فيه من المتضادات لاموت له لأن المتضادات كل أحد يطلب مفارقة مجاوره

فالله تعالى الذى خلق ومزج العناصر وحفظها مدة قادر على أن يحفظها أكثر من ذلك فاذا مات فليس عن ضرورة فهو بفعل فاعل مختار وهو الله تعالى فهو الذى أمات وأحيا وخلق الزوجين الذكر والانثى من جملة المتضادات التي تتوارد على النطفة فبعضها يخلق ذكرا وبعضها يخلق أنثى ولا يصل اليه فهم الطبيعى الذى يقول انه من البرد والرطوبة فى الانثي فرب امرأة أيبس مزاجاً من الرجل وكيف واذا نظرت فى المميزات بين الصغير والكبير تجدها أموراً عجيبة منها نبات اللحية وأقوي ما قالوه في نبات اللحية انهم قالوا الشعور مكونة من بخار دخانى ينحدر الى المسام فاذا كانت المسام في غاية الرطوبة والتحلل كما فى مزاج الصبي والمرأة لا ينبت الشعر لخروج تلك الادخنة من المسام الرطبة بسهولة قبل أن يتكون شعرا واذا كانت في غاية اليبوسة والتكاثف ينبت الشعر لعسر خروجه من المخرج الضيق ثم ان تلك المواد تنجذب الى مواضع مخصوصة فتندفع الى الرأس لانه مخلوق كقبة فوق الابخرة والادخنة فتتصاعد اليه تلك المواد فلهذا يكون شعر الرأس أكثر وأطول ولهذا يكون فى الرجل مواضع تنجذب اليها الابخرة والادخنة منها الصدر لحرارة القلب والحرارة تجذب الرطوبة كالسراج للزيت

ومنها قرب آلة التناسل لان حرارة الشهوة تجذب أيضا ومنها اللحيان فانها كثيرة الحركة بسبب الاكل والكلام والحركة أيضا جاذبة

فاذا قيل لهم فما السبب الموجب لتلازم نبات شعر اللحيه وآلة التناسل فانها اذا قطعت لم تنبت اللحية وما الفرق بين الصبا وسن الشباب وبين المرأة والرجل ففي بعضها يبهت وفي بعضها يتكلم بأمور واهية ولوفوض الى حكمة الهية لكان أولى

﴿ فصل فى بيان الاستدلال باحوال الارض على وجود الصانع جل شأنه ﴾

اقتضت الحكمة الالهية أن تكون الارض فراشا لنا وذلك يلزم أن لا تكون فى غاية الصلابة كالحجر فان النوم والمشى عليه مما يؤلم البدن وأيضا فلو كانت الارض من الذهب مثلا انعذرت الزراعة ولا يمكن اتخاذ الابنية منه لتعذر حفرها وتركيبها كما يراد وأن لا تكون في غاية اللين كالماء الذي تغوص فيه الرجل وأن لا تكون فى غاية اللطافة والشفافية فان الشفاف لا يستقر النور عليه وما كان كذلك فانه لا يسخن من الكواكب والشمس فكان يبرد جدا فجعلها الله غبراء يستقر النور عليها فتصلح أن تكون فراشا للحيوانات ثم منافعها وصفاتها كثيرة منها الاشياء المتولدة فيها من المعادن والنبات والحيوان والآثار العلوية والسفلية التى لا يعلم تفاصيلها الا الله تعالى ومنها اختلاف بقاع الارض منها أرض رخوة وصلبة ورملة وسبخة وحرة ومنها اختلاف ألوانها فاحمر وأبيض وأسود ورمادي اللون وأغبر ومنها انصداعها بالنبات ومنها كونها خازنة للماء المنزل من السماء ومنها العيون والانهار العظام التى فيها ومنها الخبء الذي تخرجه الارض من الحب والنوي ثم ان لها طبع الكرم لانك تدفع اليها حبة واحدة وهي تردها عليك سبعمائة (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) ومنها حياتها بعد موتها ومنها ماعليها من الدواب المختلفة الالوان والصور . والخلق ومنها مافيها من النبات

المختلف ألوانه وأنواعه ومنافعه فاختلاف الوانها دلالة واختلاف طعومها دلالة واختلاف روائحها دلالة فمنها قوت البشر ومنها قوت البهائم أما طعوم البشر فمنها الطعام ومنها الادام ومنها الدواء ومنها الفاكهة ومنها الأنواع المختلفة في الحلاوة والحموضة وأيضاً فمنها كسوة البشر لان الكسوة اما نباتية كالقطن والكتان واما حيوانية وهي كالشعر والصوف والوبر والابريسم والجلود وهي من الحيوانات التي بثها الله تعالي في الارض فالمطعوم من الارض والملبوس من الارض ثم انها ساترة لقبائحك بعد مماتك ومنها مافيها من الاحجار المختلفة ففي صغارها مايصلح للزينة فتجعل فصوصاً للخواتم وفي كبارها مايتخذ للأبنية فانظر الى الحجر الذي تستخرج النار منه مع كثرته وانظر الى الياقوت الاحمر مع عزته ثم انظر الى كثرة النفع بذلك الحقير وقلة النفع بهذا الشريف ومنها ماأودعه الله تعالى فيها من المعادن الشريفة كالذهب والفضة ثم تأمل فان البشر استخرجوا الحرف الدقيقة والصنائع الجليلة واستخرجوا السمكة من قاع البحر واستنزلوا الطير من أوج الهواء ثم عجزوا عن ايجاد الذهب والفضة والسبب فيه انه لافائدة في وجودهما الا الثمنية وهذه الفائدة لاتحصل الا عند العزة فالقادر على ايجادهما يبطل هذه الحكمة فلذلك ضرب الله دونهما باباً مسدوداً اظهاراً لهذه الحكمة وابقاء لهذه النعمة ولذلك فان مالا مضرة على الخلق فيه مكنهم منه فصاروا متمكنين من اتخاذ الشبه من النحاس والزجاج من الرمل واذا تأمل العاقل في هذه اللطائف والعجائب اعترف بافتقار هذه التدابير الى صانع حكيم مقتدر عليم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ومنها كثرة مايوجد على الجبال والارض من الاشجار التي تصلح للبناء والسقف ثم الحطب وماأشد الحاجة اليه في الخبز والطبخ وأما الانهار فمنها

العظيمة كالنيل وسيحون وجيحون والفرات ومنها الصغار وهي كثيرة وكلها تحمل مياها عذبة للسقي والزراعة وسائر الفوائد

اذا علمت ماتقدم مع مشاهدة تغير الاجسام الارضية في جميع صفاتها أعني حصولها في احيازها والوانها وطعومها وطباعها ومشاهدة ان كل واحد من اجزاء الجبال والصخور الصم يمكن كسرها وازالتها عن مواضعها وجعل العالى سافلا والسافل عالياً ثبت ان اختصاص كل واحد من أجزاء الارض بما هو عليه من المكان والحيز والمماسة والقرب من بعض الاجسام والبعد من بعضها ممكن التغير والتبدل واذا ثبت ان اتصاف تلك الاجرام بصفاتها أمر جائز وجب افتقارها في ذلك الاختصاص الى مدبر قديم عليم سبحانه وتعالى عن قول الظالمين

(تنبيه) اذا تأملت في هذا العالم وجدته كالبيت المعد فيه كل مايحتاج اليه فالسماء مرفوعة كالسقف والارض ممدودة كالبساط والنجوم منورة كالمصابيح والانسان كمالك البيت المتصرف فيه وضروب النبات مهيأة لمنافعه وأنواع الحيوان مصرفة في مصالحه فهذه جملة واضحة دالة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل وتقدير شامل وحكمة بالغة وقدرة غيرمتناهية ثم لما خلق الله الارض وكانت كالصدف والدرة المودعة فيها آدم واولاده فكأنه قال يا آدم لا أحوجك الى شئ غير هذه الارض التى هي لك كالأم فانظر ياعبدى ان أعز الاشياء عندك الذهب والفضة ولو انى خلقت الارض من الذهب والفضة هل كان يحصل منها هذه المنافع ثم انى جعلت هذه الاشياء فى هذه الدنيا مع انها سجن فكيف الحال فى الجنة

فالحاصل ان الارض أمك بل أشفق من الأم لان الام تسقيك لونا

واحـداً من اللبن والارض تطعمك كذا وكذا لونا من الاطعمة قال تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم معناه نردكم الى هـذه الام وهذا ليس بوعيد لان المرء لا يوعد بأمه وذلك لان مكانك من الام التي ولدتك أضيق من مكانك من الارض ولما كنت في بطن الام تسعة أشهر فما مسك جوع ولا عطش فكيف اذا دخلت بطن الام الكبرى ولكن الشرط ان تدخل بطن هذه الام الكبرى كما كنت في بطن الام الصغرى لانك حين كنت في بطن الام الصغرى ما كانت لك زلة فضلا من أن تكون لك كبيرة بل كنت مطيعا لله بحيث دعاك مرة الى الخروج الى الدنيا فخرجت اليها بالراسي طاعة منك لربك واليوم يدعوك مرات الى الصلاة فلا تجيبه برجلك فالارض والسماء وما بينهما من شبه عقد النكاح بانزال الماء من السماء على الارض والاخراج به من بطنها أشباه النسل الحاصل من الحيوان ومن أنواع الثمار رزقا لبني آدم ليتفكروا في أنفسهم وفي أحوال ما فوقهم وما تحتهم ويعرفوا ان شيئاً من هذه الاشياء لا يقدر على تكوينها وتخليقها الا من كان مخالفا لها في الذات والصفات وذلك هو الصانع الحكيم سبحانه وتعالى

﴿ فصل في دلالة الجبال على وجود الصانع جل شأنه ﴾

اعلم ان طبيعة الأرض واحدة فحصول الجبل في بعض جوانبها دون البعض لا بد وأن يكون بتخليق القادر الحكيم قال الفلاسفة هذه الجبال انما تولدت لان البحار كانت في هـذا الجانب من العالم فكانت تتولد في البحر طيناً لزجا ثم يقوي تأثير الشمس فيها فينقلب حجراً كما يشاهد في كوز الفقاع ثم ان الماء كان يغور ويقل فتتحجر البقية فلهذا السبب تولدت هـذه الجبال قالوا وانما كانت البحار حاصلة في هذا الجانب من العالم لان أوج الشمس

وحضيضها متحركان ففى الدهر الاقدم كان حضيض الشمس فى جانب الشمال والشمس متى كانت فى حضيضها كانت أقرب الى الارض فكان التسخين أقوى وشدة السخونة توجب انجذاب الرطوبات فحين كان الحضيض في جانب الشمال كانت البحار في جانب الشمال والآن لما انتقل الأوج الى جانب الشمال والحضيض الى جانب الجنوب انتقلت البحار الى جانب الجنوب فبقيت هذه الجبال فى جانب الشمال هذا حاصل كلام القوم وهو ضعيف من وجوه

الاول ان حصول الطين أمر عام ووقوع الشمس عليها أمر عام فلمَ حصل هذا الجبل في بعض الجوانب دون البعض والثانى انا نشاهد في بعض الجبال كأن تلك الاحجار موضوعة سافا فسافا فكأن البناء لبنات كثيرة موضوعة بعضها على بعض ويبعد مثل حصول هذا التركيب من السبب الذي ذكروه والثالث ان أوج الشمس الآن قريب من أول السرطان فعلى هذا من الوقت الذى انتقل أوج الشمس الى الجانب الشمالى مضى قريباً من تسعة آلاف سنة وبهذا التقدير أن الجبال فى هذه المدة الطويلة كانت في التفتت فوجب أن لا يبقي من الاحجار شيء لكن ليس الامر كذلك فعلمنا ان السبب الذى ذكروه ضعيف وان قوله تعالى (والقى فى الارض رواسى ان تميد بكم) يدل على انها بتخليقه جل شأنه والرابع ما يحصل فيها من معادن الفلزات السبعة ومواضع الجواهر النفيسة وقد يحصل فيها معادن الزاجات والاملاح وقد يحصل فيها معادن النفط والقير والكبريت فكون الارض واحدة فى الطبيعة وكون الجبل واحداً فى الطبع وكون تأثير الشمس واحداً فى الكل يدل دليلا ظاهراً على ان الكل بتقدير

قادر قاهر متعال عن مشابهة المحدثات والممكنات ثم ان بسببها تتولد الانهار على وجه الارض وذلك ان الحجر جسم صلب فاذا تصاعدت الابخرة من قعر الارض ووصلت الى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة ولكثرتها وقوتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الارض فمنفعة الجبال فى تولد الانهار هو من هذه الوجهة ولهذا السبب في أكثر الامر أينما ذكر الله تعالى الجبال قرن بها ذكر الانهار كقوله جل شأنه وجعلنا فى الارض رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا

﴿ فصل في دلالة الماء العذب والملح على وجود الصانع جل شأنه ﴾

قال الله تعالى (وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج)دلت هذه الآية على قدرة الله تعالى ونفوذ ارادته وذلك من حيث ان البحرين يستويان فى الصورة ويختلفان فى الطعم فان أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج ولو كان ذلك بايجاب ما اختلف المتساويان ثم بعد هذا الاختلاف يوجد منهما أمور متشابهة فان اللحم الطرى يوجد فيهما والحلى يؤخذ منهما ومن يوجد في المتشابهين اختلافا ومن المختلفين اشتباهاً لا يكون الا قادراً مختاراً وأيضاً ان كانت العذوبة والملوحة بسبب طبيعة الارض أو الماء فلا بد من الاستواء وان لم يكن كذلك فلا بد من قادر حكيم يخص كل واحد من الاجسام بصفة خاصة معينة

﴿ فصل في دلالة جريان الفلك فى البحر على وجود الصانع الحكيم ﴾

كيفية الاستدلال بجريان الفلك فى البحر على وجود الصانع من جملة وجوه

أحدها ان السفن وان كانت من تركيب الناس الا انه تعالى هو الذي

خلق الآلات التي بها يمكن تركيب هـذه السفن فلو لا خلقه لها لما أمكن ذلك وثانيها لولا الرياح المعينة على تحريكها لما تكامل النفع بها وثالثها لولا هذه الرياح وعدم عصفها ما بقيت وما سلمت ورابعها لولا تقوية قلوب من يركب هذه السفن ما تم الغرض فصيرها الله تعالى من هذه الوجوه مصلحة للعباد وطريقاً لمنافعهم وتجارتهم وخامسها انه خص كل طرف من أطراف العالم بشئ معين وأحوج الكل الى الكل فصار ذلك داعياً يدعوهم الى اقتحام هذه الاخطار في هذه الاسفار ولولا أنه تعالى خص كل طرف بشئ وجعل الكل محتاجين اليه ماركبوا هذه السفن فالحامل ينتفع به لانه يربح والمحمول اليه ينتفع بما حمل اليه وسادسها تسخير الله البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان البحر اذا هاج وعظم الهول فيه اذا أرسل الله الرياح فاضطربت أمواجه وتقلبت مياهه وسابعها ما في البحار من الحيوانات العظيمة ثم ان الله تعالى يخلص السفن منها ويوصلها الى سواحل السلامة وكل هذه الاشياء مما يرشد العقول والالباب الى افتقارها والى مدبر يدبرها ومقدر يحفظها وهو الله جل شأنه

(فصل في دلالة السحاب وانزال الماء من السماء على وجود الصانع الحكيم)

اعلم ان هنا اختلافا في نزول المطر من السماء فقال أبو على الجبائي ان الله تعالى ينزل الماء من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض وأما قول من يقول ان البخارات الكثيرة تجتمع في باطن الارض ثم تصعد وترتفع الى الهواء فينعقد الغيم منها ويتقاطر فقد احتج بعضهم على فساده من وجوه الاول ان البرد قد يوجد في وقت الحر بل في صميم الصيف ونجد المطر في أبرد وقت ينزل غير جاف وذلك يبطل قولهم الثاني ان البخارات اذا ارتفعت

وتصاعدت تفرقت واذا تفرقت لم يتولد منها قطرات الماء بل البخار انما يجتمع اذا اتصل بسقف متصل أملس كسقوف الحمامات المزججة اما اذا لم يكن كذلك لم يسل منه ماء كثير فاذا تصاعدت البخارات في الهواء وليس فوقها سطح املس تتصل به تلك البخارات وجب ان لايحصل منها شئ من الماء الثالث انه لو كان تولد المطر من صعود البخارات فالبخارات دائمة الارتفاع من البحار فوجب أن يدوم هناك نزول المطر وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا فساد قولهم قال فثبت بهذه الوجوه انه ليس تولد المطر من بخار الارض وعلى العموم يستدل بما ذكر على وجود الصانع جل شأنه من وجوه

أحدها ان طبع الماء ثقيل يقتضي النزول فكان بقاؤه في جو الهواء على خلاف الطبع فلا بد من قاسر قاهر يقهره على ذلك ثانيها ان هذا السحاب مع مافيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الاودية العظام لودام لعظم ضرره من حيث انه يستر ضوء الشمس ويكثر الامطار والابتلال ولو انقطع لعظم ضرره لانه يقتضي القحط وعدم العشب والزراعة فكان تقديره بالمقدار المعلوم هو المصلحة وماذاك الامن القادر الحكيم جل شأنه يأتي به في وقت الحاجة ويرده عند زوالها ثالثها ان السحاب لايقف في موضع معين بل يسوقه الله تعالى حيث أراد وشاء

﴿ فصل في دلالة البرق والرعد على وجود الصانع جل شأنه ﴾

كما أن في انزال الماء منافع كذلك في تقدم البرق والرعد على المطر منفعة وذلك لان البرق اذا لاح فالذي لايكون تحت كن يخاف الابتلال فيستعد له والذي له صهريج أو مصنع يحتاج الى الماء أوزرع يسوي مجاري الماء وأيضاً العرب من أهل البوادي فلا يعلمون البلاد المعشبة ان لم يكونوا قد رأوا

البرق اللائحة من جانب دون جانب واعلم أن فوائد البرق وان لم تظهر للمقيمين في البـلاد فهى ظاهرة للبادين وأما كونه آية على وجود الصانع جل شأنه فظاهر فانه ليس فى السحاب الا الماء والهواء وخروج النار منهما بحيث تحرق الجبال فى غاية البعد فلا بد له من خالق هو الله تعالى قالت الفلاسفة السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة الى الهواء والماء فالهواء الطف منه والماء اكثف فاذا هبت ريح قوية تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كمساس جسم جسما بعنف وهذا كما ان النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد فان قال قائل الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح رطبان فيقولون لكن حركة يد الانسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الاشجار فنقول لهم البرق والرعد أمران حادثان لابد لهما من سبب وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله ثم انا نقول هب ان الامر كما تقولون فهبوب تلك الريح القوية من الامور الحادثة العجيبـة لابد له من سبب وينتهى الى واجب الوجود فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم ذلك

﴿ فصل فى دلالة الرياح على وجود الصانع جل شأنه ﴾

هذه الرياح مخلوقة على وجه يقبل التصريف وهو الرقة واللطافة ثم انه سـبحانه وتعالى يصرفها على وجه يقع به النفع العظيم في الانسان والحيوان والنبات وهى مادة النفس الذي لو انقطع ساعة عن الحيوان لمات وقيل ان كل ما كانت الحاجة اليه اشد كان وجوده أسهل ولما كان احتياج الانسان الى الهواء أعظم الحاجات حتى لو انقطع عنـه لحظة لمات لاجرم كان وجوده أسهل من وجود كل شئ والرياح من رحمته تعالى والريح من عـذابه وهو جـل شأنه رءوف بالعباد يمسكها ولذلك ترى الرياح النافعة تهب في الليالى

والايام فى البرارى والآكام وريح السموم لا تهب الا في بعض الازمنة وفي بعض الامكنة ثم ان حـد الريح انه هواء متحرك وتحريكه ليس لذاته ولا لوازم ذاته والا لدامت الحركة بدوام ذاته فلا بد وان يكون بتحريك الفاعل المختار وهو الله جل جلاله

قالت الفلاسـفة ههنا سبب آخر وهو انه يرتفع عن الارض اجزاء أرضية لطيفة تسخنه تسخينا قويا شديداً فبسبب تلك السخونة الشـديدة ترتفع وتتصاعد فاذا وصلت الى القرب من الفلك كان الهواء الملتصق بقعر الفلك متحركا على اسـتدارة الفلك بالحركة المستديرة التى حصلت لتلك الطبقة من الهواء فتمنع هـذه الادخنة من الصعود بل تردها عن سمت حركتها فحينئذ ترجع تلك الادخنة وتتفرق في الجوانب وبسبب ذلك التفرق تحصـل الرياح وكلما كانت تلك الادخنة أ كثر وكان صعودها أقوي كان رجوعها أيضاً أشد حركة فكانت الرياح أقوي وأشد هذا حاصل ماذكروه وهو باطل ويدل على بطلانه وجوه الاول ان صعود الاجزاء الارضية انما يكون لاجل شدة تسخينها ولا شك ان ذلك التسخن عرض لان الارض باردة يابسة بالطبع فاذا كانت تلك الاجزاء الارضية متصعدة جـداً كانت سريعة الانفعال فاذا تصاعدت ووصلت الى الطبقة الباردة من الهواء امتنع بقاء الحرارة فيها بل تبرد جداً واذا بردت امتنع بلوغها فى الصعود الى الطبقة الهوائية المتحركة بحركة الفلك فبطل ماذكروه الثانى هب ان تلك الاجزاء الدخانية صعدت الى الطبقة الهوائية المتحركة بحركة الفلك لكنها لما رجعت وجب ان تنزل على الاستقامـة لان الارض جسم ثقيل والثقيل انما يتحرك بالاسـتقامة والرياح ليست كذلك فانها تتحرك يمنة ويسرة الثالث ان حركة

الاجزاء الارضية النازلة لاتكون حركة قاهرة فان الرياح اذا أحضرت الغبار الكثير ثم عاد ذلك الغبار ونزل على السطوح لم يحس أحد بنزولها وترى هذه الرياح تقلع الاشجار وتهدم الجبال وتموج البحار الرابع انه لو كان الامر على ماقالوه لكانت الرياح كلما كانت أشد وجب ان يكون حصول الاجزاء الغبارية الارضية أكثر لكنه ليس الامر كذلك لان الرياح قد يعظم عصوفها وهبوبها في وجه البحر مع ان الحس يشهد انه ليس في ذلك الهواء المتحرك العاصف شئ من الغبار والكدرة فبطل ما قالوه وبطل بهذا الوجه العلة التى ذكروها في حركة الرياح فثبت بهذا ان المحرك هو الله تعالى كما قال في كتابه العزيز وهو الذى يرسل الرياح الآية

﴿ فصل فى دلالة أحوال النبات والشجر على وجود الصانع ﴾

اذا وقعت الحبة أو النواة فى الارض الرطبة ثم مر بها قدر من المدة أظهر الله تعالى فى تلك الحبة والنواة من أعلاها شقا ومن أسفلها شقاً آخر أما الشق الذى يظهر فى أعلى الحبة من النواة فانه يخرج منه الشجرة الصاعدة الى الهواء وأما الشق الذي يظهر فى أسفل تلك الحبة فانه يخرج منه الشجرة الهابطة في الأرض وهي المسماة بعروق الشجرة وتصير تلك الحبة والنواة سبباً لاتصال الشجرة الصاعدة فى الهواء بالشجرة الهابطة فى الارض ثم ان ههنا عجائب فأحدها ان طبيعة تلك الشجرة ان كانت تقتضي الهوى فى عمق الارض فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة في الهواء وان كانت تقتضي الصعود فى الهواء فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة في الارض فلما تولد منها هاتان الشجرتان مع ان الحس والعقل يشهد أن يكون طبيعة احدى الشجرتين مضادة لطبيعة الشجرة الاخري علمنا ان ذلك ليس بمقتضى الطبع والخاصية

بل بمقتضى الايجاد والابداع والتكوين والاختراع وثانيها ان باطن الارض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسلة القوية فيه ولا يغوص السكين الحاد القوي فيه ثم انا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة واللطافة بحيث لو دلكها الانسان بأصبعه بأدنى قوة لصارت كالماء ثم انها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ في تلك الارض الصلبة والغوص في مواطن تلك الاجرام الكثيفة فحصول هذه القوي الشديدة لهذه الاجرام الضعيفة التى هي في غاية اللطافة لابد وان يكون بتقدير العزيز الحكيم وثالثها انه يتولد من تلك النواة شجرة ويحصل في تلك الشجرة طبائع مختلفة فان قشرة الخشبة له طبيعة مخصوصة وفي داخل تلك القشرة جرم الخشبة وفي وسط تلك الخشبة جسم رخو ضعيف يشبه العهن المنفوش ثم انه يتولد من ساق الشجرة أغصانها ويتولد على الاغصان الاوراق أولا ثم الازهار والانوار ثانياً ثم الفاكهة ثالثاً ثم قد يحصل للفاكهة أربعة أنواع من القشر مثل الجوز فان قشره الاعلى هو ذلك الاخضر وتحته ذلك القشر الذى يشبه الخشب وتحته ذلك القشر الذي هو كالغشاء الرقيق المحيط باللب وتحته ذلك اللب وذلك اللب مشتمل على جرم كثيف هو أيضاً كالقشر وعلى جرم لطيف وهو الدهن وهو المقصود الاصلي فتولد هذه الاجسام المختلفة في طبائعها وصفاتها والوانها وأشكالها وطعومها مع تساوى تأثيرات الطبائع والنجوم والفصول الأربع والطبائع الاربع يدل على انها انما حدثت بتدبير الحكيم الرحيم المختار القادر لا بتدبير الطبائع والعناصر ورابعها انك قد تجد الطبائع الاربع حاصلة في الفاكهة الواحدة فالاترنج قشره حار يابس ولحمه بارد رطب وحماضه بارد يابس وبزره حار يابس وكذلك العنب وقشره وعجمه بارد يابس وماؤه ولحمه حار رطب فتولد

هذه الطبائع المضادة والخواص المتنافرة من الحبة الواحدة لا بد وان يكون بايجاد الفاعل المختار وخامسها انك تجد احوال الفواكه مختلفة فبعضها يكون اللب في الداخل والقشرة في الخارج كما في الجوز واللوز وبعضها يكون الفاكهة المطلوبة في الخارج وتكون الخشبة في الداخل كالخوخ والمشمش وبعضها يكون النواة لها لب كما في نوى المشمش والخوخ وبعضها لا لب له كما في نوى التمر وبعض الفواكه لا يكون له من الداخل والخارج قشر بل يكون كله مطلوبا كالتين فهذه أحوال مختلفة في هذه الفواكه وأيضاً هذه الحبوب مختلفة في الاشكال والصور فشكل الحنطة كأنها نصف دائرة وشكل الشعير كأنه مخروطان اتصل بقاعدتيهما وشكل العدس كانه دائرة وشكل الحمص على وجه آخر فهذه الاشكال المختلفة لابد أن تكون لاسرار وحكم علم الخالق أن تركيبها لا يكمل الا على ذلك الشكل وأيضاً فقد أودع الخالق تعالى في كل نوع من أنواع الحبوب خاصية أخري ومنفعة أخرى وأيضاً فقد تكون الشجرة الواحدة غذاء لحيوان وسما لحيوان آخر فاختلاف هذه الصفات والاشكال والاحوال مع اتحاد الطبائع وتأثيرات الكواكب يدل على انها كلها انما حصلت بتخليق الفاعل المختار الحكيم المدبر العليم وسادسها انك اذا أخذت ورقة واحدة من أوراق الشجرة وجدت خطاً واحداً مستقيما في وسطها كأنه بالنسبة الى تلك الورقة كالنخاع بالنسبة الى بدن الانسان وكما انه ينفصل من النخاع اعصاب كثيرة يمنة ويسرة في بدن الانسان ثم لا يزال ينفصل عن كل شعبة شعب أخري ولا تزال تستدق حتى تخرج عن الحس والابصار بسبب الصغر فكذلك في تلك الورقة قد ينفصل عن ذلك الخط الكبير الوسط خطوط منفصلة وعن كل

واحد منها خطوط مختلفة أخري أرق من الاولى ولا يزال يبقى على هذا المنهج حتى تخرج تلك الخطوط عن الحس والبصر والخالق تعالى انما فعل ذلك حتى ان القوى الجاذبة المركوزة فى جرم تلك الورقة تقوى على جذب الاجزاء اللطيفة الارضية فى تلك المجارى الضيقة فلما وقفت على عناية الخالق فى ايجاد تلك الورقة الواحدة علمت ان عنايته فى تخليق جملة تلك الشجرة أكمل وعرفت ان عنايته في تكوين جملة النباتات أكمل ثم اذا عرفت انه تعالى انما خلق جملة النباتات لمصلحة الحيوانات علمت ان عنايته بتخليق الحيوان أكمل ولما علمت ان المقصود من تخليق جملة الحيوانات هو الانسان علمت ان عنايته فى تخليق الانسان اكمل ثم انه تعالى انما خلق النبات والحيوان فى هذا العالم ليكون غذاء ودواء للانسان بحسب جسده والمقصود من تخليق الانسان هو المعرفة والمحبة والخدمة كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فانظر أيها المسكين بعيني رأسك في تلك الورقة الواحدة من تلك الشجرة واعرف كيفية خلقه تلك العروق والاوتار فيها ثم انتقل من مرتبته الى ما فوقها حتي تعرف أن المقصود الاخير منها حصول المعرفة والمحبة في الارواح البشرية فحينئذ ينفتح عليك باب من المكاشفات التى لا آخر لها ويظهر لك أن انواع نعم الله في خلقتك غير متناهية كما قال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وكل ذلك انما ظهر من كيفية خلقه تلك الورقة من الحبة والنواة

واعلم ان هذه الدلائل كما أنها دلائل فهى أيضاً نعم يانعة واحسانات كاملة والكلام اذا كان دليلا من بعض الوجوه وكان انعاما واحسانا من سائر الوجوه كان تأثيره في القلب عظيما ثم قد يصير بعض ما يقطع عليه

بأنه يوجب المضرة سببا للنفع العظيم وبالعكس ذكروا فى الطب ان انسانا سقوه الافيون الكثير في الشراب لأجل أن يموت فلما تناوله وظن القوم انه يموت فى الحال رفعوه من موضعه ووضعوه في بيت مظلم فخرجت حية عظيمة فلدغته فصارت تلك اللدغة سببا لاندفاع ضرر الافيون فههنا تولد عما يعتقد فيه كونه أعظم موجبات الشر أعظم الخيرات وقد يكون بالعكس من ذلك وكل هذه الأحوال المختلفة والافعال المتدافعة تدل على ان لهذا العالم مدبراً حكيما ماأهمل مصالح الخلق وما تركهم سدى فان قيل لما كان الله قادراً على خلق هذه الثمار بدون هذه الوسائط فما الحكمة فى خلقها بهذه الوسائط في هذه المدة الطويلة فالجواب يفعل الله مايشاء ويحكم مايريد ثم ذكروا من الحكم المفصلة وجوها أحدها انه تعالى انما أجرى العادة بان لايفعل ذلك الا على ترتيب وتدريج لان المكلفين اذا تحملوا المشقة فى الحرث والغرس طلباً للثمرات وكدوا أنفسهم في ذلك حالا بعد حال علموا انهم لما احتاجوا الى تحمل هذه المشاق لطلب هذه المنافع الدنيوية فلأن يتحملوا مشاق أقل من المشاق الدنيوية لطلب المنافع الاخروية التي هي أعظم من المنافع الدنيوية أولى وصار هذا كما قلنا انه تعالى قادر على خلق الشفاء من غير تناول الدواء لكنه أجرى عادته بتوقيفه عليه لانه اذا تحمل مرارة الادوية دفعاً لضرر المرض فلأن يتحمل مشاق التكليف دفعاً لضرر العقاب أولى وثانيها انه تعالى لو خلقها دفعة من غير هذه الوسائط لحصل العلم الضروري باسنادها الى القادر الحكيم وذلك كالمنافى للتكليف والابتلاء أما لو خلقها بهذه الوسائط فحينئذ يفتقر المكلف فى اسنادها الى القادر الى نظر دقيق وفكر غامض فيستوجب الثواب ولهذا قيل لولا الاسباب ماارتاب مرتاب وثالثها انه ربما

كان للملائكة ولأهل الاستبصار عبر في ذلك وأفكار صائبة

﴿ فصل في الاستدلال بأحوال السموات والكواكب على وجود الصانع ﴾

الاستدلال بها من جملة وجوه أحدها النظر الى مقادير هذه الافلاك فانها مع اشتراكها في الطبيعة الفلكية اختص كل واحد منها بمقدار خاص مع انه لايمتنع في العقل وقوعها على أزيد من ذلك المقدار أو أنقص منه بذرة فلما قضى صريح العقل بان المقادير بأسرها على السوية قضى بافتقارها في مقاديرها الى مخصص ومدبر

وثانيها ان كل كرة منها تدور على قطبين معينين واذا كان الفلك متشابه الاجزاء كان جميع النقط المفترضة عليه متساوية وجميع الدوائر المفترضة عليه أيضاً متساوية فاختصاص نقطتين معينتين بالقطبية دون سائر النقط مع استوائها في الطبيعة يكون أمراً جائزاً فيقضى العقل بافتقاره الى المقتضى وهكذا القول في تعين كل دائرة معينة من دوائرها بان تكون منطقة

وثالثها انها مختلفة في جهات الحركة فبعضها من المشرق الى المغرب وبعضها من المغرب الى المشرق وبعضها شمالية وبعضها جنوبية مع أن جميع الجهات بالنسبة اليها على السوية فلا بد من افتقارها الى المدبر

ورابعها ان هذا الترتيب العجيب في تركيب هذه الافلاك وائتلاف حركتها أتري انها مبنية على حكمة أم هي واقعة بالجزاف والعبث أما القسم الثاني فباطل وبعيد عن العقل فان من جوز في بناء رفيع وقصر مشيد ان التراب والماء انضم أحدهما الى الآخر ثم تولد منهما لبنات ثم تركبت تلك اللنبات وتولد من تركبها قصر مشيد وبناء عال فانه يقضى عليه بالجنون ونحن نعلم ان تركيب هذه الافلاك ومافيها من الكواكب ومالها من الحركات ليس أقل

من ذلك البناء فثبت انه لا بد فيها من رعاية حكمة ثم لايخلو إما ان يقال انها أحياء ناطقة فهي تحرك بانفسها أو يقال انه يحركها مدبر قاهر والاول باطل لان حركتها إما ان تكون لطلب استكمالها أولا لهـذا الغرض فان كانت طالبة بحركتها لتحصيل كمال فهي ناقصة فى ذواتها طالبة للاستكمال والناقص بذاته لابد له من مكمل فهي مفتقرة محتاجة وان لم تكن طالبـة بحركتهـا للاستكمال فهي عابثة في أفعالها فيعود الامر الى انه يبعد في العقول ان يكون مدار هذه الاجرام المستعظمة والحركات الدائمة على العبث والسفه فلم يبق فى العقول قسم هو الاليق بالذهاب اليه الا أن مدبراً قاهراً غالبا على الدهر والزمان يحركها لاسرار خفية وحكم لطيفة هو المستأثر بها والمطلع عليها وليس عنـدنا الا الايمان بها على الاجمال على ماقال فى كتابه العزيز (ان فى خلق السموات والارض واختـلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا)

وخامسها انا نراها مختلفة فى الالوان مثل صفرة عطارد وبياض الزهرة وضوء الشمس وحمرة المريخ واختـلاف كل واحـد من الكواكب الثابتة بعظم خاص ولون خاص وتركيب خاص ونراها أيضـاً مختلفة بالسعادة والنحوسـة ونرى أعلى الكواكب السيارة أنحسها ونرى مادونها أسـعدها ونرى سلطان الكواكب سعيداً في بعض الاتصالات نحسا في بعض وكون بعضها نهاريا وليليا وسائراً وراجعـا ومستقيما وصاعداً وهابطا مع اشتراكها بأسرها في الشفافية والصفاء والنقاء في الجوهر مما يقضى العقل بان اختصاص كل واحد منها بما اختص به لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص

وسادسها ان هذه الكواكب لو كان لها تأثير في هـذا العالم فهي إما أن تكون متدافعة أو متعاونة أولا متدافعة ولا متعاونة فان كانت متدافعة فاما أن يكون بعضها أقوى من بعض أو تكون متساوية فى القوة فان كان بعضها أقوى من بعض كان القوى غالبا أبداً والضعيف مغلوبا أبداً فوجب أن تستمر أحوال العالم على طبيعة ذلك الكوكب لكنه ليس الامر كذلك وان كانت متساوية فى القوة وهى متدافعة وجب تعذر الفعل عليها بأسرها فتكون الافعال الظاهرة في العالم صادرة عن غيرها فلا يكون مدبر العالم هو هذه الكواكب بل غيرها وان كانت متعاونة لزم بقاء العالم أيضاً على حالة واحدة من غير تغـيير أصلا وان كانت تارة متعاونة وتارة متدافعة كان انتقالها من المحبة الى البغض وبالعكس تغـيراً لها فى صفاتها فتكون هي مفتقرة في تلك التغيرات الى الصانع المستولى عليها بالقهر والتسخير

وسابعها انها أجسام وكل جسم مركب وكل مركب مفتقر الى واحد من أجزائه وكل واحـد من أجزائه غـيره فكل جسم هو مفتقر الى غيره ممكن وكل ممكن مفتقر الى غيره ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فله مؤثر وكل ماله مؤثر فافتقاره الى مؤثره إما أن يكون حال بقائه أو حال حدوثه أوحال عدمه والاول باطل لانه يقتضى ايجاد الموجود وهو محال فبقى القسمان الآخران وهما يقتضيان الحدوث الدال على وجود الصانع القديم جل جلاله وتقدست أسماؤه ولا اله غيره

﴿ فصل فى دلالة أحوال الشمس والقمر على وجود الصانع الحكيم ﴾

النور كيفية قابلة للأشد والاضعف فان نور الصباح أضعف من النور الحاصل فى أول النهار قبل طلوع الشمس وهو أضعف من النور الحاصل

فى أفنية الجدران عند طلوع الشمس وهو أضعف من النور الساطع من الشمس على الجدران وهو أضعف من الضوء القائم بجرم الشمس فكما ان هذه الكيفية المسماة بالضوء على ما يحس به فى جرم الشمس وهو في الامكان وجود مرتبة أقوي من الكيفية القائمة بالشمس فهو من مواقف العقول وانتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وبحركة الشمس تنفصل السنة الى الفصول الاربع وبالفصول الاربع تنتظم مصالح هذا العالم وبحركة القمر يحصل النور وباختلاف حاله فى زيادة الضوء ونقصانه تختلف أحوال رطوبات هذا العالم وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل فالنهار يكون زمانا للتكسب والطلب والليل يكون زمانا للراحة وكل ذلك يدل على كثرة رحمة الله بالخلق وعظم عنايته بهم

ثم فى كيفية الاستدلال باحوال هذين الكوكبين على وجود الصانع المقدر هو ان يقال الاجسام في زمانها متماثلة وفى هيآتها متساوية فى الجسمية والتحيز والجرمية ومتى كان الامر كذلك كان اختصاص جسم الشمس بضوئه الباهر وشعاعه القاهر واختصاص جسم القمر بنوره المخصوص بارادة الفاعل الحكيم المختار وأيضاً فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون وان كل واحدة من تلك الحركات مختصة بكيفية معينة من البطء والسرعة وان تقدير تلك الحركات بمقادير مخصوصة على وجه تحصل عوداتها وأدوارها متساوية بحسب المدة حالة عجيبة فلا بد له من مقدر وان بعض تلك الحركات مشرقي وبعضها مغربي وبعضها مائل الى الشمال وبعضها مائل الي الجنوب وهذا أيضا لا يتم الا بتدبير كامل وحكمة بالغة

﴿ فصل في بيان كيفية دلالة الظل على وجود الصانع جل شأنه ﴾

الظل الامر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر الى طلوع الشمس وكذلك الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران وهذه الحالة أطيب الاحوال لان الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهي لقوتها تبهر الحس البصري وتفيد السخونة القوية وهي مؤذية فاذن أطيب الاحوال هو الظل ولذلك عده الله تعالى من أنواع النعيم في الجنة فقال جل شأنه (وظل ممدود) والشمس دليل على وجود هذه النعمة الجليلة وازالته لا تكون دفعة بل يسيراً يسيراً فكلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل في جانب الغرب ولان ازالته لو حصل دفعة لاختلت المصالح ولكن ازالته يسيراً يسيراً يفيد معه أنواع مصالح العالم

ووجه الاستدلال به على وجود الصانع المحسن ان حصول الظل أمر نافع للاحياء والعقلاء وان حصول الضوء الخالص أو الظلمة الخالصة فهو ليس من باب المنافع فحصول ذلك الظل اما أن يكون من الواجبات أو من الجائزات والاول باطل والا ما تطرق التغير اليه لان الواجب لا يتغير فوجب أن يكون من الجائزات فلا بد له في وجوده بعد العدم وعدمه بعد الوجود من صانع قادر مدبر محسن يقدره بالوجه النافع وهو من يقدر على تحريك الاجرام العلويه وتدبير الأجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الاحسن والترتيب الاكمل وما هو الا الله سبحانه وتعالى

﴿ فصل في دلالة اختلاف الليل والنهار على وجود الصانع جل شأنه ﴾

اعلم ان اختلاف أحوال الليل والنهار بالطول والقصر والنور والظلمة

والزيادة والنقصان يدل على الصانع من وجوه الاول ان هـذا الاختلاف مرتبط بحركات الشمس وهي من الايات العظام الثاني ما يحصل بسبب طول الايام تارة وطول الليالى أخرى من اختلاف الفصول وهو الربيع والصيف والخريف والشتاء وهو من الايات العظام الثالث ان انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة فى الايام وطلب النوم والراحة فى الليالى من الآيات العظام الرابع ان كون الليـل والنهار متعاونين على تحصـيل مصالح الخلق مع ما بينهما من التضاد والتنافى من الآيات العظام فان مقتضي التضاد بين شيئين أن يتفاسدا لا أن يتعاونا على تحصيل المصالح الخامس ان اقبال الخلق فى أول الليل على النوم يشبه موت الخلائق عند النفخة الاولى فى الصورة ويقظتهم عند طلوع الشمس شبيهة بعود الحياة اليهم عند النفخة الثانية وهـذا أيضاً من الايات العظام المنبهة على الايات العظام السادس ان انشقاق ظلمة الليل بظهور الصبح المستطيل فيه من الايات العظام كأنه جدول ماء صاف يسـيل فى بحر كدر بحيث لا يتكدر الصافي بالكدر ولا الكدر بالصافي السابع ان تقـدير الليل والنهار بالمقدار المعتـدل الموافق للمصالح من الايات العظام وفى المواضع التى يكون القطب على سمت الرأس تكون السنة ستة أشهر فيها نهاراً وستة أشهر ليـلا وهناك لا يتم النضج ولا يصلح لمسكن الحيوان ولا يتهيأ فيه شئ من أسـباب المعيشة فسبحان القادر على ما يشاء

﴿ فصل في بيان أن النجوم والطبائع لا تأثير لها فى الموجودات ﴾

اعلم أن تأثير الطبائع والافلاك والنجوم والشمس والقمر بالنسبة الى الموجودات واحد لانا نرى انه اذا تولد العنب مثلا كان قشره على طبع وعجمه

على طبع ولحمه على طبع ثالث وماؤه على طبع رابع بل نقول انا نرى فى الورد ما يكون أحد وجهي الورقة الواحدة منه في غاية الصفرة والوجه الثانى من تلك الورقة فى غاية الحمرة وتلك الورقة تكون فى غاية الرقة واللطافة ونعلم بالضرورة ان نسبة النجوم والافلاك الى وجهى تلك الورقة الرقيقة نسبة واحدة والطبيعة الواحدة في المادة الواحدة لا تفعل الا فعلا واحداً الا ترى انهم قالوا شكل البسيط هو الكرة لان تأثير الطبيعة الواحدة فى المادة الواحدة يجب أن يكون متشابها والشكل الذي يتشابه جميع جوانبه هو الكرة وأيضا اذا وضعنا الشمع فاذا استضاء خمسة أذرع من ذلك الشمع من أحد الجوانب وجب أن يحصل مثل هذا الاثر فى جميع الجوانب لان الطبيعة المؤثرة يجب أن تتشابه نسبتها الى كل الجوانب اذا ثبت هذا نقول ظهر ان نسبة الشمس والقمر والنجوم والافلاك والطبائع الى وجهي تلك الورقة اللطيفة الرقيقة نسبة واحدة وثبت ان الطبيعة المؤثرة متى كانت نسبتها واحدة كان الاثر متشابها وثبت ان الاثر غير متشابه لان أحد جانبي تلك الورقة فى غاية الصفرة والجانب الثانى فى غاية الحمرة فهذا يفيد القطع بان المؤثر فى حصول هذه الصفات والالوان والاحوال ليس هو الطبيعة بل المؤثر فيها هو الفاعل المختار الحكيم وهو الله سبحانه وتعالى وهذا هو المراد من قوله تعالى (وما ذرأ لكم فى الارض مختلف ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) ثم لما كان مدار هذه الحجة على المؤثر الموجب بالذات وبالطبيعة يجب أن يكون نسبته الى الكل نسبة واحدة فلما دل الحس فى هذه الاجسام النباتية على اختلاف صفاتها وتنافر أحوالها ظهر ان المؤثر فيها ليس موجبا بالذات بل فاعلا مختاراً وأيضا إنا نرى الناس مختلفين فى سعة الرزق وضيقه

ولابد له من سبب وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله لانا نرى العاقل القادر في أشد الضيق ونري الجاهل المريض الضعيف في أعظم السعة وليس ذلك أيضا لاجل الطبائع والنجوم والافلاك لان فى الساعة التى ولد فيها ذلك الملك الكبير والسلطان القاهر قد ولد فيها أيضاً عالم من الناس وعالم من الحيوانات غير الانسان ويولد أيضا فى تلك الساعة عالم من النبات فلما شاهدنا حدوث هذه الاشياء الكثيرة فى تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة في الشقاوة والسعادة علمنا ان المؤثر فيه هو الله سبحانه وتعالى ووضح بهذا البرهان العقلى القاطع صحة قوله تعالى (أو لم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) قال الشاعر

فلا السعد يقضى به المشترى ولا النحس يقضي علينا زحل
ولكنه حكم رب السما وقاضي القضاة تعالى وجل

﴿ فصل فى دلالة تغير الاحوال على وجود الصانع الحكيم المختار ﴾

أحوال هذا العالم ممزوجة بالخير والشر والمحبوب والمكروه وهذه المعانى لاشك فيها الا انا نقول الشر وان كان كثيراً الا أن الخير أكثر منه والمرض وان كان كثيراً الا أن الصحة أكثر منه والجوع وان كان كثيرا الا أن الشبع أكثر منه واذا كان الامر كذلك فكل عاقل اعتبر أحوال نفسه فانه يجدها دائما فى التغيرات والانتقال من حال الى حال ثم ان الغالب في تلك التغيرات هو السلامة والكرامة والراحة والبهجة أما الاحوال المكروهة فهى وان كانت كثيرة الا انها أقل من أحوال اللذة والبهجة والراحة اذا عرفت هذا نقول ان تلك التغيرات لاجل أن تقتضي حدوث أمر بعد عدم تدل على وجود الاله القادر ولاجل أن الغالب فيها الراحة والخير تدل على

ان ذلك الاله رحيم محسن كريم أما دلالة التغـيرات على وجود الاله فلان الفطرة السليمة تشهد بان كل شيء وجد بعد العدم لابد له من سبب ولذلك فانا اذا سمعنا أن بيتا حدث بعد ان لم يكن فان صريح العقل شاهد بانه لا بد له من فاعل تولى بناء ذلك البيت ولو ان انسانا شككنا فيه لم نشك ولا بد أن يكون فاعل تلك الاحوال المتغـيرة قادراً اذ لو كان موجبا بالذات لدام الاثر بدوامه فحدوث الاثر بعد عدمه يدل على وجود مؤثر قادر

ثم انه تعالى هو الذي أنعم على الخلائق بما به قوامهم من المطعوم والمشروب والملبوس والمنكوح ثم هداهم الى كيفية الانتفاع بها ويستخرجون الحديد من الجبال واللآلئ من البحار ويركبون الادوية والدرياقات النافعـة ويجمعون بين الاشياء المختلفة فيستخرجون لذات الاطعمة فثبت انه سبحانه هو الذي خلق كل الاشـياء ثم أعطاهم العقول التي بها يتوصلون الى كيفية الانتفاع بها وهذا غير مختص بالانسان بل عام في جميع الحيوانات فاعطي الانسان زوجا والحمار أتانا والبعير ناقة ثم اهداه لها ليدوم التناسل وهدى الاولاد لثدي الامهات بل هذا غير مختص بالحيوانات بل هو حاصل في أعضائها فانه خلق اليد على تركيب خاص وأودع فيها قوة الاخذ وخلق الرجل على تركيب خاص وأودع فيها قوة المشي وكذلك العين والاذن وجميع الاعضاء ثم ربط البعض بالبعض على وجوه يحصل من ارتباطها مجموع واحد وهو الانسان وانما دلت هذه الاشياء على وجود الصانع سبحانه لان اتصاف كل جسم من هذه الاجسام بتلك الصفة أعني التركيب والقوة والهداية إما أن يكون واجبا أو جائزاً والاول باطل لانا نشاهد تلك الاجسام بعد الموت منفكة عن تلك التراكيب والقوي فدل على أن ذلك جائز والجائز لابد له من

مرجح وليس ذلك المرجح هو الانسان ولا الابوان لانه ذلك يستدعي قدرة علية وعلما بما فيه من المصالح والمفاسد والامران نائلان عن الانسان لانه بعد كمال عقله يعجز عن تغيير شعرة واحدة وبعد البحث الشديد في كتب التشريح لا يعرف من منافع الاعضاء ومصالحها الا القدر القليل فلا بد أن يكون المتولى لتدبيرها وترتيبها موجودا آخر وذلك الموجود لا يجوز ان يكون جسما لان الاجسام متساوية في الجسمية فاختصاص ذلك الجسم بتلك المؤثرية لا بد وان يكون جائزاً وان كان جائزاً افتقر الى سبب آخر والدور والتسلسل محالان فلا بد من الانتهاء في سلسلة الحاجة الى موجود مؤثر ومدبر ليس بجسم ولا جسماني ثم تأثير ذلك المؤثر إما ان يكون بالذات أو بالاختيار والاول محال لان الموجب لا يميز مثلا عن مثل وهذه الاجسام متساوية في الجسمية فلم اختص بعضها بالصورة الفلكية وبعضها بالصورة العنصرية وبعضها بالنباتية وبعضها بالحيوانية وبعضها بالمعدنية فثبت أن المؤثر فيها والمدبر لها قادر والقادر لا يمكنه مثل هذه الافعال العجيبة الا اذا كان عالما ثم ان هذا المدبر الذي ليس بجسم ولا جسماني لابد وأن يكون واجب الوجود في ذاته وفي صفاته والا افتقر الى مدبر آخر ويلزم التسلسل وهو محال واذا كان واجب الوجود في قادريته وعالميته والواجب لذاته لا يتخصص ببعض الممكنات دون البعض وجب أن يكون عالماً بكل ما صح أن يكون معلوما وقادراً على كل ما صح أن يكون مقدوراً عليه وذلك هو الله سبحانه وتعالى

(فائدة) الدور هو توقف الشيء على شيء يتوقف الشيء الثاني عليه أي على الشيء الاول كما لو أوجد زيد عمراً وعمرو أوجد زيداً فقد توقف عمرو على زيد الذي توقف على عمرو وتوقف زيد على عمرو الذي توقف على

زيد واستحالة الدور ظاهرة لانه يلزم عليه تقدم كل واحد من المحدثين على الآخر أو تأخره عنه وكذلك التسلسل لاستحالة حوادث لاأول لها وله أدلة كثيرة أقربها أن تقول اذا كان كل فرد من أفراد الحوادث حادثا فى نفسه فعدم جميعها ثابت فى الأزل ثم لا يخلو إما ان يقارن ذلك العدم فرد من الافراد الحادثة أولا فان قارنه لزم اجتماع وجود الشيء مع عدمه وهو محال بضرورة العقل وان لم يقارن ذلك العدم شيء من تلك الافراد الحادثة لزم أن لها أولا لخلو الأزل على هذا الفرض عن جميعها

﴿ فصل في معرفة ان الوقوف علىأقسام نعم الله تعالى ممتنع ﴾

اعلم ان الانسان اذا أراد أن يعرف أن الوقوف على أقسام نعم الله ممتنع فعليه أن يتأمل فى شيء واحد ليعرف عجز نفسه عنه ولنذكر منه مثالين

المثال الاول ان الاطباء ذكروا ان الأعصاب قسمان منهادماغيةومنها نخاعية أما الدماغية فانها سبعة ثم أتعبوا أنفسهم فى معرفة الحكمة الناشئة عن كل واحد من تلك الأعصاب السبعة ثم مما لا شك فيه أن كل واحد منها ينقسم الى شعب كثيرة وكل واحدة من تلك الشعب أيضاً الى شعب دقيقة أرق من الشعر ولكل واحدة منها ممر الى الاعضاء ولو أن شعبة واحدة اختلت إما بسبب الكمية أو بسبب الكيفية أو بسبب الوضع لاختلت مصالح البنية ثم ان تلك الشعب الدقيقة تكون كثيرة العدد جداً ولكل واحدة منها حكمة مخصوصة فاذا نظر الانسان فى هذا المعنى عرف أن الله تعالى بحسب كل شظية من تلك الشظايا العصبية على العبد نعمة عظيمة لو فاتت لعظم الضرر عليه وعرف قطعاً انه لا سبيل الى الوقوف عليها والاطلاع على أحوالها وعند هذا يقطع بصحة قوله تعالى(وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها)

وكما اعتبرت هذا في الشظايا العصبية فاعتبر مثله فى الشرايين والاوردة وفي كل واحد من الاعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والكيفية والوضع والفعل والانفعال حتى ترى أقسام هذا الباب بحراً لا ساحل له واذا اعتبرت هذا فى بدن الانسان الواحد فاعرف أقسام نعم الله تعالى في نفسه وروحه فان عجائب عالم الارواح أكثر من عجائب عالم الاجساد ثم لما اعتبرت حالة الحيوان الواحد فعند ذلك اعتبر أحوال عالم الافلاك والكواكب وطبقات العناصر وعجائب البر والبحر والنبات والحيوان وعند هذا تعرف أن عقول جميع الخلائق لو ركبت وجعلت عقلا واحداً ثم بذلك العقل يتأمل الانسان في عجائب حكمة الله تعالى في أقل الاشياء ما أدرك منها الا القليل فسبحانه تقدس عن أوهام المتوهمين

المثال الثانى انك اذا أخذت اللقمة الواحدة لتضعها في الفم فانظر الى ماقبلها والى مابعدها أما الامور التي قبلها فاعرف ان اللقمة من الخبز لاتتم ولا تكمل الا اذا كان هذا العالم بكليته قائما على الوجه الاكمل لان الحنطة لابد منها وانها لاتنبت الا بمعونة الفصول الاربع وتركيب الطبائع وظهور الرياح والامطار ولا يحصل شيء منها الا بعد دوران الافلاك واتصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة في الحركات وفى كيفيتها فى الجهة والسرعة والبطء ثم بعد أن تكون الحنطة لابد من آلات الطحن والخبز وهي لاتحصل الا عند تولد الحديد فى ارحام الجبال ثم ان الآلات الحديدية لا يمكن اصلاحها الا بآلات أخرى حديدية سابقة عليها ولا بد من انتهائها الى آلة حديدية هى أول هذه الآلات فتأمل انها كيف تكونت على الاشكال المخصوصة ثم اذا حصلت تلك الآلات فانظر انه لابد من اجتماع العناصر

الاربع وهى الارض والماء والهواء والنار حتى يمكن طبخ الخبز من ذلك الدقيق فهذا هو النظر فيما تقدم على حصول هذه اللقمة وأما النظر فيما بعد حصولها فتأمل فى تركيب بدن الحيوان وهو انه تعالى كيف خلق الابدان حتى يمكنها الانتفاع بتلك اللقمة وانه كيف يتضرر الحيوان بالاكل وفى أى الاعضاء تحدث تلك المضار ولا يمكنك ان تعرف القليل من هذه الاشياء الا بمعرفة علم التشريح وعلم الطب بالكلية فظهر بما ذكر ان الانتفاع باللقمة الواحدة لا يمكن معرفته الا بمعرفة جملة هذه الامور والعقول قاصرة عن ادراك ذرة من هذه المباحث

﴿ فصل فى بيان أن أفعال الله تعالى لاتخلو من الحكمة ﴾

ان الله تعالى لم يفعل فعلا خاليا عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف فى انه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته حكمة لابحيث تحمله تلك الحكمة على الفعل واذا علم ان فعله لايخلو عن الحكمة فقال الحكماء حكمة أفعاله بأسرها لاتدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الاجمال فكل ضرب يكون فى عالم الكون والفساد فحكمته تخرج من تقسيم عقلى وهو ان الفعل إما أن يكون خيراً محضاً أو شراً محضاً أو خيراً مشوبا بشر وهذا القسم ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره مثلان اذا علم هذا علمنا ان الله خلق عالما فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوى وخلق عالما فيه خير وشر وهو عالمنا وهو العالم السفلى ولم يخلق عالما فيه شر محض ثم ان العالم السفلى الذى هو عالمنا وان كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الاول الذي خيره غالب فانك اذا قابلت المنافع بالمضار والنافع بالضار تجد المنافع أكثر واذا قابلت الشر بالخير

تجد الخير أكثر وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لايكون فيه شر أصلا من أول عمره الى آخره كالانبياء عليهم الصلاة والسلام والاولياء والكافر لايمكن وجوده بحيث لا يكون فيه خير أصلا غاية مافي الباب ان الكفر يحبط خيره ولا ينفعه انما يستحيل نظراً الى العادة ان يوجد كافر لا يسقي العطشان شربة ماء ولا يطعم الجوعان لقمة خبز ولا يذكر ربه في عمله وكيف لا وهو في زمن صباه كان مخلوقا على الفطرة المقتضية للخيرات اذا ثبت هذا نقول لولا الشر في هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة في الخير المحض ولا يكون قد خلق القسم الذي فيه الخير الغالب والشر القليل ثم ان ترك هذا القسم ان كان لما فيه من الشر فترك الخير الكثير لاجل الشر القليل لا يناسب الحكمة الا ترى ان التاجر اذا طلب منه درهم بدينار فلو امتنع وقال فى هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكي فيقال له لكن فى مقابلته خير كثير وهو حصول الدينار فى ملكك وكذلك الانسان لو ترك الحركة اليسيرة لما فيها من المشقة مع علمه بانه تحصل له راحة مستمرة ينسب الى مخالفة الحكمة فاذا نظر الى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من اللطف فخلق العالم الذى يقع فيه الشر ولهذا أشار الله تعالى بقوله (انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فقال الله تعالى فى جوابهم (اني أعلم ما لا تعلمون) أى أعلم ان هذا القسم يناسب الحكمة لان الخير فيه كثير ثم بين لهم خيره بالتعليم كما قال تعالى (وعلم آدم الاسماء كلها) يعني أيها الملائكة ان خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوى لا يناسب الحكمة وأما الخير الكثير المشوب بالشر القليل فيناسبه فقوله تعالى

أتجعل فيها من يفسد فيها اشارة الى الشر وأجابهم الله بما فيه من الخير بقوله وعلم آدم الاسماء كلها فان قال قائل فالله تعالى قادر على تخليص هـذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر فيقال له ماقال الله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) يعني لو شئنا لخلصنا الخير من الشر لـكن حينئذ لا يكون الله تعالى خلق الخـير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول فما كان يجوز تركه للشر القليل وهو لا يناسب الحـكمة لان ترك الخير الكثير للشر القليل غـير مناسب للحكمة وان كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فيخلقه لما فيه من الخير الكثير وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح ان الخير في القضاء والشر فى القدر فانه قضى بالخير ووقع الشر في القدر بفعله المنزه عن القبح والجهل

روى ان ابليس لعنه الله قال للملائـكة اني أسلم ان لى الها هو خالقي وموجدي وهو خالق الخلق لـكن لى على حكمة الله تعالى أسئلة سبعة الاول الحكمة في الخلق لا سيما ان كان عالماً بان الكافر لا يستوجب عنـد الخلق الا الآلام الثانى ثم ما الفائدة فى التكليف مع انه لايعود منه ضر ولا نفع وكل ما يعود الى المـكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التـكليف الثالث هب انه كلفنى بمعرفته وطاعته فلماذا كلفنى السجود لآدم الرابع ثم لما عصيته في ترك السجود لآدم فلم لعنني وأوجب عقابى مع انه لافائدة ولا لغيره فيه ولي فيه أعظم الضرر الخامس ثم لما فعل ذلك فلم مكنني من الدخول الى الجنة ووسوست لآدم السادس ثم لما فعلت ذلك فلم سلطني على أولاده ومكنني من اغوائهم واضلالهم السابع ثم لما استمهلته المدة الطويلة فى ذلك فلم أمهلني ومعلوم أن العالم لو كان خاليا عن الشر لـكان ذلك خيراً

قال شارح الاناجيل فأوحى الله تعالى اليه من سرادقات الجلال والكبرياء ياابليس انك ماعرفتني ولو عرفتني لعلمت انه لااعتراض على فى شئ من أفعالي فانى أنا الله لا اله الا أنا لاأسأل عما أفعل

واعلم انه لو اجتمع الاولون والاخرون من الخلائق وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا عن هذه الشبهات مخلصاً وكان الكل لازما أما اذا أجبنا بذلك الجواب الذى ذكره الله تعالى زالت الشبهات واندفعت الاعتراضات وكيف لا وكما أنه سبحانه واجب الوجود في ذاته واجب الوجود في صفاته فهو مستغن فى فاعليته عن المؤثرات والمرجحات اذ لو افتقر لكان فقيراً لاغنياً فهو سبحانه مرجع الحاجات ومنتهى الرغبات ومن عنده نيل الطلبات واذا كان كذلك لم تتطرق اللمية الى أفعاله ولم يتوجه الاعتراض على خالقيته وما أحسن ماقال بعضهم (جل جناب الجلال عن أن يوزن بميزان الاعتزال)

ذكر الشعرانى فى البحر المورود قال وقفت مرة على شخص يصحن الحشيش وسألته الدعاء فقال ياولدي ماذا رأيت من أحوالي حتى سألتنى الدعاء فقلت رسوخك تحت قضاء الله وقدره من غير تملق وأنا لا أستطيع أن أجلس مكانك أصحن الحشيش يوما واحداً فقال ياولدى نحن قوم أقنافى المراتب المزرية تحملا عن اخواننا أصحاب الرتب العالية من العلماء والقضاة والتجار حين رأينا تلك المراتب قد استحكمت من أزمان متعددة ولم يقدر أحد على ازالتها من الوجود كما هو مشاهد لابد لها من أحد يتولى أمرها فدخلنا فيها رجاء الاجر من الله عز وجل فقلت وهل فى صحنك الحشيش أجر فقال نعم من حيث الرضا بالتقدير لا من حيث الكسب مع انى قائل

على غيري من الخلق كان من الادب ان أقول يارب قدر على أناذلك واعتق أخي النظيف من مخالطة تلك القـاذورات لان الوجود كله نظيف فأعجبني كلامه واستفدت منه آدابا عظيمة كنت عنها غافلا وعلمت أن الله تعالى في كل شيء حكمة وأسرارا تدق على فحول العلماء فضلا عن أمثالنا ولم أزل الين الكلام لاصحاب الكتب واخفض جناحي لهم من ذلك اليوم

﴿ الباب الثامن في الرسل على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام ﴾

اعلم ان بعثة الرسل سنة قديمة واحسان من الله الى الخلق ومنفعة بعثهم مذكورة في قوله تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ثم ان بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم احسان الى كل العالمين وذلك لان وجه الاحسان في بعثته كونه داعيا لهم الى مايخلصهم من عقاب الله ويوصلهم الى ثوابه وهذا عام في كل العالمين لانه مبعوث الى الكل كما قال تعالى (وما أرسلناك الا كافة للناس) الا انه لما لم ينتفع بهذا الانعام الا أهل الاسلام خص المنة بالمؤمنين في قوله جل شأنه (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) ونظيره قوله تعالى في كتابه العزيز (هدي للمتقين) مع انه هدي للمتقين وغيرهم كما قال هدى للناس ولما كان الانتفاع بالرسول أكثر كان وجه الانعام في بعثة الرسل أكثر وبعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كانت مشتملة على أمرين أحدهما المنفعة العامة الزائدة عن المنفعة الحاصلة من أصل البعثة وثانيهما المنافع الحاصلة بسبب ما فيه من الخصال التي ما كانت موجودة في غيره قال أبو عبد الله الحليمي وجه الانتفاع ببعثة الرسول ليس الا في طريق الدين وهو من وجوه

الاول ان الخلق جبلوا على النقصان وقلة الفهم وعدم الدراية فهو صلوات الله عليه أورد عليهم وجوه الدلائل وكلما خطر ببالهم شك أوشبهة أزالها وأجاب عنها والثانى ان الخلق وان كانوا يعلمون انه لابد لهم من خدمة مولاهم ولكنهم ما كانوا عارفين بكيفية تلك الخدمة فهو شرح تلك الكيفية لهم حتى يقدموا على الخدمة آمنين من الغلط ومن الاقدام على مالا ينبغي والثالث ان الخلق جبلوا على الكسل والغفلة والتوانى والملالة فهو يورد عليهم أنواع الترغيبات والترهيبات حتى انهم كلما عرض لهم كسل أو فتور نشطهم للطاعة ورغبهم فيها والرابع ان أنواع عقول الخلق تجرى مجرى أنوار البصر ومعلوم ان الانتفاع بنور البصر لا يكمل الا عند ظهور نور الشمس ونوره عقلى الهى يجرى مجرى طلوع الشمس فيقوى العقل بنور عقله ويظهر لهم من لوائح الغيب ما كان مستتراً عنهم قبل ظهوره فهذا اشارة حقيقية الى فوائد أصل البعثة وأما المنافع الحاصلة بسبب ما كان فى محمد صلى الله عليه وسلم من الصفات فأمور ذكرها الله تعالى في هذه الآية أولها قوله من أنفسهم واعلم ان وجه الانتفاع بهذا من وجوه الاول انه عليه السلام ولد فى بلدهم ونشأ فيما بينهم وهم كانوا عارفين بأحواله مطلعين على جميع أفعاله وأقواله فما شاهدوا منه من أول عمره الى آخره الا الصدق والعفاف وعدم الالتفات الى الدنيا والبعد عن الكذب والملازمة على الصدق ومن عرف من أحواله من أول العمر الى آخره ملازمته الصدق والامانة وبعده عن الخيانة والكذب ثم ادعى النبوة والرسالة التى يكون الكذب فى مثل هذه الدعوى أقبح أنواع الكذب يغلب على ظن كل أحد انه صادق في هذه الدعوى الثانى انهم كانوا عالمين بانه لم يقرأ كتابا ولم يمارس درسا على أحد

وانه الى تمام الاربعين لم ينطق البتة بحديث النبوة والرساله ثم انه بعد الاربعين ادعى الرسالة وظهر على لسانه من العلوم ما لم يظهر على أحد من العالمين ثم انه يذكر قصص المتقدمين وأحوال الانبياء الماضين على الوجه الصحيح الذى كان في كتبهم فكل من له عقل سليم علم ان هذا لا يتأتى الا بالوحى السماوى والالهام الالهي الثالث انه بعد ادعاء النبوة عرضوا عليه الاموال الكثيرة والازواج ليترك هذه الدعوي فلم يلتفت الى شئ من ذلك بل قنع بالفقر وصبر على المشقة ولما علا أمره وعظم شأنه وأخذ البلاد وعظمت الغنائم لم يغير طريقه في البعد عن الدنيا والدعوة الى الله والكاذب انما يقدم على الكذب ليجد الدنيا فاذا وجدها تمتع بها وتوسع فيها فلما لم يفعل شيئا من ذلك علم انه صادق الرابع ان الكتاب الذى جاء به ليس فيه الا تقرير التوحيد والتنزيه والعدل والنبوة واثبات المعاد وشرح العبادات وتقرير الطاعات ومعلوم ان كمال الانسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به ولما كان داعيا لتقرير هذين الامرين علم كل عاقل انه صادق فيما يقوله الخامس انه قبل مجيئه كان دين العرب أرذل الاديان وهو عبادة الاوثان وأخلاقهم أرذل الاخلاق وهو الغارة والنهب والقتل وأكل الاطعمة الرديئة ثم لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم نقلهم ببركة مقدمه من تلك الدرجة التى هي أخس الدرجات الى أن صاروا أفضل الامم في العلم والزهد والعبادة وعدم الالتفات الى الدنيا وطيباتها اهـ

ثم قد ورد بان عدد الانبياء مائة الف وأربعة وعشرون الفاً وعدد الرسل ثلثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر وكان بين عيسى وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة تقريبا وكان بين موسي وعيسي الف وسبعمائة سنة وبين

سيدنا عيسى وسيدنا محمد أربعة من الانبياء، ثلاثة من بني اسرائيل وواحد من العرب وهو خالد بن سنان العبسي

والفائدة العظمى في بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عند فترة من الرسل هي ان التغيير والتحريف قد تطرقا الى الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها وطول زمانها وبسبب ذلك اختلط الحق بالباطل والصدق بالكذب وصار ذلك عذراً ظاهراً في إعراض الخلق عن العبادات لان لهم أن يقولوا يا الهنا عرفنا انه لابد من عبادتك ولكنا ماعرفنا كيف نعبد فبعث الله تعالى في هذا الوقت سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام ازالة لهذا العذر

﴿ فصل في بيان أحوال الرسل في الفضل ﴾

أجمعت الامة على ان بعض الانبياء أفضل من بعض وعلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل الكل ويدل عليه وجوه أحدها قوله تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) فلما كان رحمة لكل العالمين لزم أن يكون أفضل من كل العالمين ثانيها قوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) فقيل فيه لانه قرن ذكر محمد بذكره في كلمتي الشهادة وفي الاذان وفي التشهد ولم يكن ذكر سائر الانبياء كذلك ثالثها انه تعالى قرن طاعته بطاعته فقال (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وبيعته ببيعته فقال (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) ورضاه برضائه فقال (والله ورسوله أحق أن يرضوه) وإجابته باجابته (فقال يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول) رابعها ان الله تعالى أمر محمداً بأن يتحدى بكل سورة من القرآن فقال فأتوا بسورة من مثله واقصر السور سورة الكوثر وهي ثلاث آيات وكأن الله تحداهم بكل ثلاث آيات من القرآن ولما كان كل القرآن ستة آلاف آية وكذا آية لزم أن لا يكون معجز

القرآن معجزاً واحداً بل يكون الفي معجزة وازيد واذا ثبت هـذا فنقول ان الله سبحانه ذكر تشريف موسى بتسع آيات بينات فلأن يحصل التشريف لمحمد بهذه الايات الكثيرة أولى خامسها ان معجزة رسولنا صلى الله عليه وسلم أفضل من معجزات سائر الانبياء فوجب أن يكون رسولنا أفضل من سائر الانبياء بيان الاول قوله عليه السلام القرآن في الكلام كادم في الموجودات بيان الثاني ان الخلقة كلما كانت أشرف كان صاحبها أكرم عند الملك سادسها ان معجزاته عليه السلام هي القرآن وهي من جنس الحروف والاصوات وهي أعراض غير باقية وسائر معجزات سائر الانبياء من جنس الامور الباقية ثم ان الله سبحانه جعل معجزات محمد صلى الله عليه وسلم باقية الى آخر الدهر ومعجزات سائر الانبياء فانية ومنقضية سابعها انه عليه السلام بعث الى كل الخلق وذلك يقتضي أن تكون مشقته أكثر فيجب أن يكون أفضل أما انه بعث الى كل الخلق فلقوله تعالى(وما أرسلناك الى كافة للناس) واما ان ذلك يقتضي أن تكون مشقته أكثر فلأنه كان انسانا فرداً من غير مال وأعوان وأنصار فاذا قال لجميع العالمين يا أيها الكافرون صار الكل أعداء له وحينئذ يصير خائفا من الكل فكانت المشقة عظيمة وكذلك فان موسى عليه السلام لما بعث الى بني اسرائيل لم يكن يخاف أحداً الا من فرعون وقومه واما محمد عليه السلام فالكل كانوا أعداء له يبين ذلك ان انسانا لو قيل له هـذا البلد الخالي عن الصديق والرفيق فيه رجل واحد ذو قوة وسلاح فاذهب اليه اليوم وحيداً وبلغ اليه خبراً يوحشه ويؤذيه فانه قلما سمحت نفسه بذلك مع انه انسان واحد ولو قيل له اذهب الى بادية بعيدة ليس فيها أنيس ولا صديق وبلغ الى صاحب البادية كذا وكذا من الاخبار الموحشة لشق ذلك

على الانسان أما النبي صلى الله عليه وسلم فانه كان مأموراً بان يذهب طول ليله ونهاره فى كل عمره الى الجن والانس الذين لا عهد لهم بل المعتادمنهم انه يعادونه ويؤذونه ويستخفونه ثم انه عليه السلام لم يمل من هذه الحالة بل سارع سامعا مطيعاً فهذا يقتضى انه تحمل فى اظهار دين الله أعظم المشاق ولهذا قال تعالى (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) ومعلوم ان ذلك البلاء كان على الرسول صلى الله عليه وسلم فاذا عظم فضل الصحابة بسبب تلك الشدة فما ظنك بالرسول واذا ثبت أن مشقته أعظم من مشقة غيره وجب أن يكون فضله أكثر من فضل غيره ثامنها ان دين محمد أفضل الاديان فيلزم أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الانبياء بيان الاول انه تعالى جعل الاسلام ناسخا لسائر الاديان والناسخ يجب أن يكون أفضل لقوله عليه السلام من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فلما كان هذا الدين أفضل وأكثر ثوابا كان واضعه أكثر ثوابا من واضعي سائر الاديان فيلزم أن يكون محمد عليه السلام أفضل من سائر الانبياء تاسعها ان أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الامم فوجب أن يكون محمداً أفضل الانبياء بيان الاول قوله تعالى كنتم خير أمة اخرجت للناس بيان الثانى ان هذه الامة انما نالت هذه الفضيلة لمتابعة محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله وفضيلة التابع توجب فضيلة المتبوع عاشرها انه عليه الصلاة والسلام خاتم الرسل فوجب ان يكون افضل لان نسخ الفاضل بالمفضول قبيح فى المعقول حادى عشرها ان تفضيل بعض الانبياء على بعض يكون لامور منها كثرة المعجزات التى هى دالة على صدقهم وموجبة لتشريفهم وقد حصل فى حق نبينا عليه السلام ما

يفضل على ثلاثة آلاف وهى بالجملة على اقسام منها ما يتعلق بالقدرة كاشباع الخلق الكثير من الطعام القليل وارواثهم من الماء القليل ومنها ما يتعلق بالعلوم كالاخبار عن الغيوب وفصاحة القرآن ومنها اختصاصه في ذاته بالفضائل نحو كونه اشرف نسبا من اشراف العرب وايضا كان في غاية الشجاعة ومنها في خلقه وحلمه ووفائه وفصاحته وسخائه وكتب الحديث ناطقة بتفصيل هذه الابواب ثاني عاشرها قوله عليه السلام آدم ومن دونه تحت لوائى يوم القيامة وذلك يدل على انه أفضل من آدم ومن كل أولاده وقال عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر وقال عليه السلام لا يدخل الجنة أحد من النبيين حتى أدخلها أنا ولا يدخلها أحد من الامم حتى تدخلها أمتى وروي أنس قال صلى الله عليه وسلم أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا وانا خطيبهم اذا وفدوا وأنا مبشرهم اذا أيسوا لواء الحمد بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر وعن ابن عباس قال جلس ناس من الصحابة يتذكرون فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثهم فقال بعضهم عجبا ان الله اتخذ ابراهيم خليلا وقال آخر ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما وقال آخر فعيسى كلمة الله وروحه وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قد سمعت كلامكم وحجتكم ان ابراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روح الله وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك الا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأنا أول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك حلقة الجنة فيفتح لى فأدخلها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الاولين والاخرين ولا فخر ثالث عشرها قال محمد بن عيسى الحكيم الترمذي في تقرير هذا المعني

ان كل أمير تكون مئونته على قدر رعيتـه فالأمير الذي تكون امارته على قرية تكون مؤنته بقدر تلك القرية ومن ملك الشرق والغرب احتـاج الى أموال وذخائر أكثر من أموال أمير تلك القرية فكذلك كل رسول بعث الى قومه أعطى من كنوز التوحيد وجواهر المعرفة على قدر ماحمل من الرسالة فالمرسل الى قومه فى طرف مخصوص من الارض انما يعطى من هذه الكنوز الروحانية بقدر ذلك الموضع والمرسل الى كل أهل الشرق والغرب انسهم وجنهم لابد وان يعطي من المعرفة بقدر مايمكنه أن يقوم بسعيه بأمور أهل الشرق والغرب واذا كان كذلك كانت نسبة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم الى نبوة سائر الانبياء كنسبة كل المشارق والمغارب الى ملك بعض البلاد المخصوصة ولما كان كذلك لاجرم اعطي من كنوز الحكمة والعلم مالم يعط أحـد قبله فلا جرم بلغ فى العلم الى الحد الذى لم يبلغه أحد من البشر قال تعالى فى حقه فاوحى الى عبده ما أوحى وفى الفصاحة الى ان قال أوتيت جوامع الكلم وصار كتابه مهيمنا على الكتب وصارت أمته خير الامم رابع عشرها فى في الصحيحين عن همام بن عتبة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلى ومثل الانبياء من قبلى كمثل رجل ابتني بيوتاً فاحسنها وأجملها وأ كملها الا موضع لبنة زاوية من زواياها فجعـل الناس يطوفونه ويعجبهـم البنيان فيقولون الا وضعت هنا لبنة فيتم بناؤك فقال محمـد كنت أنا تلك اللبنة خامس عشرها ان الله تعالى كلما نادى نبياً في القرآن ناداه باسمه (يا آدم اسكن ونادينا ان ياابراهيم ياموسى انى أنا ربك) وأما النبي عليه السلام فانه ناداه بقوله ياأيها النبي يا أيها الرسول وذلك يفيد الفضل

﴿ فصل في بيان من يظهر على يده الخوارق التي من ضمنها معجزات الانبياء ﴾

اذا ظهر فعل خارق للعادة للانسان فذاك اما أن يكون مقروناً بالدعوة أولا والقسم الاول وهو ان يكون مع الدعوة فتلك الدعوة اما أن تكون دعوة الالهية أو دعوة النبوة أو دعوة الولاية أو دعوة السحر وطاعة الشياطين فهذه أربعة أقسام القسم الأول ادعاء الالوهية وجوز بعضهم ظهور خوارق العادات على يده من غير معارضة كما نقل ان فرعون كان يدعى الالوهية وكانت تظهر خوارق العادات على يده وكما نقل أيضاً في حق الدجال قال بعضهم وانما جاز ذلك لان شكله وخلقته تدل على كذبه فظهور الخوارق على يده لايفضي الى التلبيس والقسم الثاني وهو ادعاء النبوة فهذا القسم على قسمين لانه اما ان يكون ذلك المدعى صادقا أو كاذبا فان كان صادقا وجب ظهور الخوارق على يده وهذا متفق عليه بين كل من أقر بصحة نبوة الأنبياء وان كان كاذبا لم يجز ظهور الخوارق على يده وبتقدير أن تظهر وجب حصول المعارضة وأما القسم الثالث وهو ادعاء الولاية فالقائلون بكرامات الأولياء اختلفوا في انه هل يجوز أن يدعي الكرامات ثم تحصل على وفق دعواه أملا وأما القسم الرابع وهو ادعاء السحر وطاعة الشيطان فعند بعضهم يجوز ظهور خوارق العادات على يده وعند المعتزلة لا يجوز وأما القسم الثاني وهو ان تظهر خوارق العادات على يد انسان من غير شئ من الدعاوى فذلك الانسان اما أن يكون صالحاً مرضياً عند الله واما أن يكون خبيثاً مذنباً والاول هو القول بكرامات الاولياء وقد اتفق البعض على جوازه وأنكرها المعتزلة الا البعض منهم وأما الثاني وهو أن تظهر خوارق العادات على بعض من كان مردوداً عن طاعة الله تعالى فهذا هو المسمي بالاستدراج

﴿ فصل في بيان القوة العقلية الروحانية خصوصاً في نبينا عليه السلام ﴾

اعلم ان النفس القدسية النبوية مخالفة بماهيتها لسائر النفوس ومن لوازم تلك النفس الكمال في الذكاء والفطنة والحرية والاستعلاء والترفع عن الجسمانيات والشهوات فاذا كانت الروح في غاية الصفاء والشرف وكان البدن في غاية النقاء والطهارة كانت القوى المحركة والمدركة في غاية الكمال لانها جارية مجرى أنوار فائضة من جوهر الروح واصلة الى البدن ومتى كان الفاعل والقابل في غاية الكمال كانت الآثار في غاية القوة والشرف والصفاء اذا عرفت هذا فالله سبحانه وتعالى وضع كمال القوة الروحانية في شعبة معينة من أولاد آدم عليه السلام وهم شيث وأولاده الى ادريس ثم الى نوح ثم الى ابراهيم ثم حصل من ابراهيم شعبتان اسماعيل واسحاق فجعل اسماعيل مبدأ لظهور الروح القدسية لمحمد صلى الله عليه وسلم وجعل اسحاق مبدأ لشعبتين يعقوب وعيصو فوضع النبوة في نسل يعقوب ووضع الملك في نسل عيصو واستمر ذلك الى زمان محمد صلى الله عليه وسلم فلما ظهر محمد صلى الله عليه وسلم نقل نور النبوة ونور الملك الى محمد صلى الله عليه وسلم وبقيا أعنى الدين والملك لاتباعه الى قيام القيامة ومما أذكره في التقسيم الآتي ينكشف لك مقام النبوة والرسالة وحاصله ان الانسان إما أن يكون ناقصاً أو كاملا أما الناقص فاما أن يكون ناقصاً في ذاته ولكنه لا يسعى في تنقيص حال غيره وإما أن يكون ناقصا ويكون مع ذلك ساعياً في تنقيص حال الغير فالاول هو الضال والثاني هو الضال المضل وأما الكامل فاما أن يكون كاملا ولا يقدر على تكميل الغير وهم الاولياء وإما أن يكون كاملا ويقدر على تكميل الناقصين وهم الانبياء ولذلك قال عليه الصلاة والسلام

علماء أمتي كانبياء بني اسرائيل ولما كانت مراتب النقصان والكمال ومراتب الاكمال والاضلال غير متناهية بحسب الكمية والكيفية لاجرم كانت مراتب الولاية والنبوة غير متناهية بحسب الكمال والنقصان فالولي هو الانسان الكامل الذي لا يقوي على التكميل والنبي هو الانسان الكامل والمكمل ثم قد تكون قوته الروحانية النفسانية وافية بتكميل انسانين ناقصين وقد تكون أقوي من ذلك فيفي بتكميل عشرة ومائة وقد تكون تلك القوة قاهرة قوية تؤثر تأثير الشمس في العالم فيقلب أرواح أكثر أهل العالم من مقام الجهل الى مقام المعرفة ومن طلب الدنيا الى طلب الآخرة وذلك مثل روح محمد صلى الله عليه وسلم فان وقت ظهوره كان العالم مملوءاً من اليهود وأكثرهم كانوا مشبهة ومن النصارى وهم حلولية ومن المجوس وقبح مذهبهم ظاهر ومن عبدة الاوثان وسخف دينهم أظهر من أن يحتاج الى بيان فلما ظهرت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم سرت قوة روحه في الارواح فقلب أكثر أهل العالم من الشرك الى التوحيد ومن التجسيم الى التنزيه ومن الاستغراق في طلب الدنيا الى التوجه الى عالم الآخرة

﴿ فصل في بيان طريق اثبات نبوة الانبياء ومراتب الدعوة الى الله تعالى ﴾

اعلم ان الطريق الى اثبات نبوة الانبياء عليهم السلام أمران الاول أن يقال ان هذا الشخص قد ادعي النبوة وظهرت المعجزة على يده وكل من كان كذلك فهو رسول من عند الله حقا وصدقا الثاني وهو أن نعلم بعقولنا ان الاعتقاد الحق مع العمل الصالح ما هو فكل من جاء ودعا الخلق اليه وحملهم عليه وكانت لنفسه قوة قوية في نقل الناس من الكفر الى الايمان ومن الاعتقاد الباطل الى الاعتقاد الحق ومن الاعمال الداعية الى الدنيا الى

الاعمال الداعية الى الآخرة فهو النبي الحق الصادق المصدق وتقريره ان نفوس الخلق قد استولى عليها أنواع النقص والجهل وحب الدنيا ونحن نعلم بعقولنا ان سعادة الانسان لا تحصل الا بالاعتقاد الحق والعمل الصالح وحاصله ان كل ما قوي نفرتك عن الدنيا ورغبك في الآخرة فهو العمل الصالح وكل ماكان بالضد من ذلك فهو العمل الباطل والمعصية واذا كان الامر كذلك كانوا محتاجين الى انسان كامل قوى النفس مشرق الروح علوى الطبيعة ويكون بحيث يقوى على نقل هؤلاء الناقصين من مقام النقصان الى مقام الكمال وذلك هو النبي ثم ان الدعوة الى الله تعالى مراتب فالمرتبة الاولى دعوة الانبياء عليهم السلام ودعوتهم راجحة على دعوة غيرهم من وجوه أحدها انهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولا ثم الدعوة بالسيف ثانيا وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين وثانيها انهم هم المبتدئون لهذه الدعوة وأما العلماء فانهم يبنون دعوتهم على دعوة الانبياء والشارع في احداث الامر الشريف على طريق الابتداء أفضل وثالثها ان نفوسهم أقوى قوة وأرواحهم أصفى جوهراً فكانت تأثيراتها في احياء القلوب الميتة واشراق الارواح الكدرة أكمل فكانت دعوتهم أفضل ورابعها ان النفوس ثلاثة أقسام ناقصة وكاملة لا تقوي على تكميل الناقصين وكاملة تقوى على تكميلهم فالقسم الاول العوام والقسم الثاني هم الاولياء والقسم الثالث هم الانبياء واذا عرفت هذا نقول ان نفوس الانبياء حصلت لها مزيتان الكمال في الذات والتكميل للغير فكانت قوتهم على الدعوة أقوى وكانت درجاتهم أفضل وأكمل وحينئذ فلهم صفتان العلم والقدرة أما العلماء فهم نواب الانبياء في العلم وأما الملوك فهم نواب الانبياء في القدرة والعلم يوجب الاستيلاء على

الارواح والقدرة توجب الاستيلاء على الاجساد فالعلماء خلفاء الانبياء فى عالم الارواح والملوك خلفاء الانبياء فى عالم الاجساد فظهر ان أكمل الدرجات في الدعوة الى الله تعالى بعد الانبياء درجة العلماء وأما الملوك فهم أيضا يدعون الى دين الله بالسيف وذلك بوجهين إما بتحصيله عند عدمه مثل المحاربة مع الكفار واما بابقائه عند وجوده وذلك مثل قولهم المرتد يقتل وأما المؤذنون فهم يدخلون فى هذا الباب دخولا ضعيفا أما دخولهم فيه فلأن ذكر كلمات الاذان دعوة الى الصلاة فكان ذلك داخلا تحت الدعاء الى الله تعالى وأما كون هذه المرتبة ضعيفة فلأن الظاهر من حال المؤذن انه لا يحيط بمعاني تلك الكلمات وبتقدير أن يكون محيطا بها الا أنه لا يريد بذكرها تلك المعاني الشريفة

﴿ فصل فى بيان احتياج النوع الانساني الى ارسال الرسل ﴾

الكلام في هذا الفصل موجه ان شاء الله تعالى الى بيان الحاجة اليهم وهو معترك الافهام ومزلة الاقدام ومزدحم الكثير من الافكار والاوهام وله مسلكان (الاول) يبتدئ من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت وان لها حياة أخري بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقي فيها بعذاب اليم وان السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية معقودان باعمال المرء فى حياته الفانية سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والارادات أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات

وقد اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين مليين وفلاسفة الا قليلا لا يقام لهم وزن على ان لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وانها لا تموت موت فناء وإنما الموت المحتوم هو ضرب من الخفاء وان اختلفت

منازعهم فى تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه

فهذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها وحشيها ومستأنسها باديها وحاضرها قديمها وحديثها لا يمكن ان يعد ضالة عقلية أو نزغة وهمية وانما هو الالهامات التى اختص بها هـذا النوع فكما الهم الانسان ان عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا كذلك قد الهمت العقول وأشعرت النفوس ان هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان في الوجود بل الانسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ثم يكون حياً باقياً فى طور آخر وان لم يدرك كنهه ذلك الهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة مهيأة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات معرضة لآلام من الشهوات ونزعات الاهواء ونزوات الامراض على الاجساد ومصارعة الاجواء والحاجات وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عدولا تنتهى عند حد

الهام يلفتها بعد هـذا الشعور الى أن واهب الوجود للانواع انما قدر الاستعداد بقدر الحاجة فى البقاء ولم يعهد في تصرفه العبث والكيل الجزاف فما كان استعداده لقبول مالا يتناهي من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات لا يصح أن يكون بقاؤه قاصراً على أيام أو سنين معدودات

شعور يهيج بالأرواح الى تحسس هـذا البقاء الابدي وما عسى أن تكون عليه متي وصلت اليه وكيف الاهتداء وأين السبيل وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل شعورنا بالحاجة الى استعمال عقولنا في تقويم هـذه

المعيشة القصيرة الامد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الاقوم بل لزمتنا الحاجة الى التعليم والارشاد وفضاء الازمنة والاعصار في تقويم الانظار وتعديل الافكار واصلاح الوجدان وتثقيف الازهان ولا نزال الى الآن من هم هذه الحياة الدنيا في اضطراب لاندرى متى نخاص منه وفى شوق الى طمأنينة لا نعلم متى ننتهى اليها

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها الى الغائب وهل في طرق الفكر مايوصل كل أحد الى معرفة ما قدر له في حياة يشعر بها وبان لامندوحة عن القدوم عليها ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ الى تفصيل ما أعد له فيها والشئون التى لابد أن يكون عليها بعد مفارقة ماهو فيه أو الى معرفة من يكون بيده تصريف تلك الشئون هل فى أساليب النظر ما يأخذ بك الى اليقين بمناطها من الاعتقادات والاعمال وذلك الكون مجهول لديك وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة اليك كلا فان الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامي المشاعر ولا اشتراك بينهما الا فيك أنت فالنظر في المعلومات الحاضرة لايوصل الى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة

أفليس من حكمة الصانع الحكيم الذى أقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليم الذى خلق الانسان وعلمه البيان علمه الكلام للتفاهم والكتاب للتراسل أن يجعل من مراتب الانفس البشرية مرتبة يعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه وهو أعلم حيث يجعل رسالته يميزهم بالفطرة السليمة ويبلغ بارواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق

بأنوار علمه والامانة على ملكوت سره بحيث لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه فيشرفون على الغيب باذنه ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ويكونون في مراتبهم العلويه على نسبة من العالمين نهاية الشاهد وبداية الغائب فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفى على العقول من شئون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه وما قدر أن يكون له مدخل في سعادتهم الاخروية وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفهامهم وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم وتعلمهم من الاعمال ماهو مناط سعادتهم وشقائهم في ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم فى اجماله ويدخل في ذلك جميع الاحكام المتعلقة بكليات الاعمال ظاهرة وباطنة ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات حتى تقوم بهم الحجة ويتم الاقناع بصدق الرسالة فيكونون بذلك رسلا من لدنه الى خلقه مبشرين ومنذرين

لا ريب ان الذى أحسن كل شئ خلقه وأبدع فى كل كائن صنعه وجاد على كل حي بما اليه حاجته ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره أن ينقذه من حيرته ويخلصه من التخبط فى أهم حياته والضلال فى أفضل حاليه

يقول قائل ولم لم يودع فى الغرائز ما تحتاج اليه من العلم ولم يضع فيها

الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية في الحياة الآخرة

وهو قول يصدر عن شطط العقل والغفلة عن موضوع البحث وهو النوع الانساني فلو ألهم حاجته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع بل كان إما حيواناً آخر كالنحل والنمل أوملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الارض

(المسلك الثانى) فى بيان الحاجة الى الرسالة يؤخذ من طبيعة الانسان نفسه ان الانسان نوع من الانواع التى غرز فى طبعها أن تعيش مجتمعة وان تمددت فيها الجماعات على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع في بقائه وللمجموع من العمل ما لا غني للواحد عنه فى نمائه وبقائه وأودع فى كل شخص من أشخاصها شعورما بحاجته الى سائر أفراد الجماعة التى يشملها اسم واحد وتاريخ وجود الانسان شاهد بذلك وكفاك من الدليل على ان الانسان لايعيش الا فى جملة ماوهبه من قوة النطق فلم يخلق لسانه مستعداً لتصوير المعانى فى الالفاظ وتأليف العبارات الا لاشتداد الحاجة به الى التفاهم وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر الا الشهادة بان لا غني لاحدهم عن الآخر

فحاجة كل فرد من الجماعة الى سائرها مما لا يشتبه فيه وكلما كثرت مطالب الشخص في معيشته ازدادت به الحاجة الى الايدي العاملة فتمتد الحاجة وعلى أثرها الصلة من الاهل الى العشيرة ثم الى الامة والى النوع باسره وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة قد تم النوع كما لايخفى فهذه الحاجة خصوصا فى الامة التى حققت عنوانها لها صلات وعلائق ميزتها عن سواها

حاجة فى البقاء حاجة فى التمتع بمزايا الحياة حاجة فى جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع

ولو جرى أمر الانسان على أساليب الخلقة في غيره لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده عامل يشعر كل نفس ان بقاءها مرتبط ببقاء الكل فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخرة لمنافعها ودرء مضارها والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب هى الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الاخر الناهض بكل منهما للمدافعة عنه في حالة الخطر فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظا لنظام الامم وروحاً لبقائها وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب أو ما تحب فان اشتدت كانت ولعاً وعشقاً

ولكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين اذا كانت الحاجة الى ذات المحبوب أو ما هو فيها لا يفارقها ولا يكون هذا النوع منها فى الانسان الا اذا كان منشؤه أمراً في روح المحبوب وشمائله التى لا تفارق ذاته حتى تكون لذة الوصول في نفس الاتصال لا في عارض يتبعه فاذا عرض التبادل والتعاوض ولوحظ فى العلاقة بينهما تحولت المحبة الى رغبة في الانتفاع بالعوض وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع وقام بين الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين

يحب الكلب سيده ويخلص له ويدافع عنه دفاع المستميت لما يرى انه مصدر الاحسان اليه فى سداد عوزه فصورة شبعه وريه وحمايته مقرونة فى شعوره بصورة من يكفلها له فهو يتوقع فقدها بفقده فيحرص عليه حرصه على حياته ولو انه انتقل من حوزته الى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه

معرضا لخطر ما عادت اليه تلك الصور يصل بعضها بعضا واندفع الى خلاصه بما تمكنه القوة

ذلك لان الالهام الذى هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب فوجدانه يتردد بين الاحسان ومصدره وليس له وراءهما مذهب فحاجة فى سد عوزه هي حاجة الى القائم بأمره فيحبه محبته لنفسه ولا يغص منها شوب التفاوض في الخدمة

أما الانسان وما أدراك ماهو فليس أمره على ذلك ليس ممن يلهم ولا يتعلم ولا ممن يشعر ولا يتفكر بل كان كماله النوعي في اطلاق مداركه عن القيد ومطالبه عن النهايات وله في كل كائن مما يصل اليه لذة وبجوار كل لذة ألم ومخافة فلا تنتهى رغائبه الى غاية ولا تقف مخاوفه عند نهاية (ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا) تفاوتت أفراده فى مواهب الفهم وفى قوى العمل وفي الهمة والعزم فنهم المقصر ضعفا أو كسلا المتطاول في الرغبة شهوة وطمعا يرى في أخيه ان العون له على مايريد من شئون وجوده لكنه يذهب من ذلك الى تخيل اللذة في الاستئثار بجميع ما فى يده ولا يقنع بمعاوضته في ثمرة من ثمار عمله وقد يجد اللذة فى أن يتمتع ولا يعمل ويرى الخير فى أن يقيم مقام العمل اعمال الفكر في استنباط ضروب الحيل ليتمتع وان لم ينفع ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له ان لا ضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته ولا يبالى بارساله الى عالم العدم بعد سلبه فكلما حثه الذكر والخيال الى دفع مخافة أو الوصول الى لذيذ فتح له الفكر بابا من الحيلة أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة فقام التناهب مقام التواهب وحل الشقاق محل الوفاق وصار الضابط لسير الانسان إما الحيلة وإما القهر

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بنى نظامهم وعلق بقاؤهم في الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضا في الاعمال أولا تكون هذه الافاعيل السابق ذكرها سببا في تفانيهم لاريب ان البقاء على تلك الاحوال من ضروب المحال فلا بد للنوع الانساني في حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها

لجأ بعض أهل البصيرة في أزمنة مختلفة الي العدل وظنوا كما ظن بعض العارفين ونطق به في كلمة جليلة ان العدل نائب المحبة نعم لا يخلو القول من حكمة ولكن من الذى يضع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها ، قيل ذلك هو العقل فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء كذلك تكون وسائل السعادة وفيها مستقر السكينة

هذا قول لا يجافى الحق ظاهره ولكن هل سمع في سيرة الانسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم لرأي العاقل لجردانه الصواب وهل كفى في اقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم انهم مخطئون وان الصواب فيما يدعوهم اليه وان أقام على ذلك من الادلة ما هو أوضح من الشمس وأجلى من ضرورية المحبة للبقاء كلا لم يعرف ذلك في تاريخ الانسان ولا هو مما ينطبق على سنته فهب الشقاء هو تفاوت الناس في الادراك وهم مع ذلك يدعون للمساواة في العقول والتقارب في الاصول ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل الا كما يعرف من أمر الجاهل ومن لم يكن في مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل فمجرد البيان العقلي لا يدفع نزاعا ولا يرد طمأنينة وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم انه أرفع من واضعها فيذهب بالناس بمذهب شهواته فتذهب حرمتها ويتهدم بناؤها ويفقد ما قصد بوضعها

فواهب الوجود كما أجاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس لينظر في طلب اللقمة وستر العورة والتوقي من الحر والبرد جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة في البقاء وآثر في الوقاية من غوائل الشقاء واحفظ لنظام الاجتماع الذي هو عماد كونه بالاجماع منّ عليه بالنائب الحقيق عن المحبة بل الراجع بها الى النفوس التي افقرت منها لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد غير انه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة فاقام له من بين أفراده مرشدين هادين وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لايشركهم فيها سواهم وأيدذلك زيادة في الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس وتأخذ الطريق على سوابق العقول فيستخذى الطامح ويذل الجامح ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع الى رشده وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه يطرقون القلوب بقوارع من امر الله ويدهشون المدارك ببواهر من آياته فيحيطون العقول بمالا مندوحة عن الاذعان له ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك والسلطان والصعلوك والعاقل والجاهل والمفضول والفاضل فيكون الاذعان لهم أشبه بالاضطرار منه بالاختيارى النظري يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم وما أراد أن يعلموه من شئون ذاته وكمال صفاته وأولئك هم الانبياء والمرسلون فبعثة الانبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان ومن أهم حاجته فى بقائه ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص نعمة أتمها الله (لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)

﴿ فصل فى بيان امكان الوحي ﴾

فى اللغة يقال وحيت اليه وأوحيت اذا كلمته بما تخفيه عن غيره والوحي

مصدر من ذلك والمكتوب والرسالة وكل ما القيته الي غيرك ليعلمه ثم غلب فيما يلقي الى الانبياء من قبل الله وقيل الوحي اعلام في خفاء ويطلق ويراد به الموحى وقد عرفوه شرعا أنه كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه

وامكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحي) وانكشاف ماغاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك وسهولة فهمه عند العقل فلا أراه مما يصعب ادراكه الا على من لا يريد أن يدرك ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم نعم يوجد في كل أمة وفي كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص في العلم الى ماوراء سواحل اليقين فيسقطون في غمرات من الشك فى كل مالم يقع تحت حواسهم الخمس بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها فكانهم بسقطاتهم هذه انحطوا الى ماهو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان فينسون العقل وشئونه وسره ومكنونه ويجدون في ذلك لذة الاطلاق عن قيود الاوامر والنواهى بل عن محابس الحشمة التى تضمهم الى التزام مايليق وتحجزهم عن مقارفة مالا يليق كما هو حال غير الانسان من الحيوان فاذا عرض عليهم شئ من الكلام في النبوات والاديان وهم من أنفسهم هام بالاصغاء دافعوه بما أوتوا من الاختيار في النظر وانصرفوا عنه وجعلوا أصابعهم في آذانهم حذر ان يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة وتتبعها الشريعة فيحرموا لذة ماذاقوا وما يحبون أن يتذوقوا وهو مرض فى الانفس والقلوب يستشفى منه بالعلم ان شاء الله

ومع ذلك فأى استحالة في الوحي وان ينكشف لفلان مالا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم ان ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة

فما شهدت به البديهة ان درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضاً وان الأدنى منها لا يدرك ماعليه الاعلى الا على وجه من الاجمال وان ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط بل لا بد معه من التفاوت فى الفطر التى لامدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه ولا شبهة في أن من النظريات عند بعض العقلاء ماهو بديهى عند من هو أرقي منه ولا تزال المراتب ترتقي فى ذلك الى مالا يحصره العد وان من أرباب الهمم وكبار النفوس مايرى البعيد عن صغارها قريباً فيسعى اليه ثم يدركه والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته ثم يألفون ماصار اليه كانه من المعروف الذى لاينازع والظاهر الذي لايجاحد فاذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم فى بادئ الامر على من دعاهم اليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً فى كل أمة الى اليوم

فاذا (سلم ولا محيص عن التسليم) بما أسلفنا من المقدمات فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول اليها أن لا يسلم بان من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر باصل الفطرة ماتستعد به من محض الفيض الالهي لان تتصل بالافق الاعلى وتنتهي من الانسانية الى الذروة العليا وتشهد من أمر الله شهود العيان مالم يصل غيرها الى تعقله أو تحسسه بعصى الدليل والبرهان وتتلقى عن العليم الحكيم مايعلو وضوحاً على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعليم ثم تصدر عن ذلك العلم الى تعليم ماعلمت ودعوة الناس الى ماحملت على ابلاغه اليهم وأن يكون ذلك سنة لله فى كل أمة وفى كل زمان على حسب الحاجة يظهر برحمته من يختصه بعنايته لبني الاجتماع بما يضطر اليه من مصلحته الى أن يبلغ النوع الانسانى أشده وتكون الاعلام التي نصبها لهدايته الى سعادته كافية في ارشاده فتختم الرسالة ويغلق

باب النبوة كما سنأتي عليه في رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم

أما وجود بعض الارواح العالية وظهورها لاهل تلك المرتبة السامية فما لا استحالة فيه بعد ماعرفنا من أنفسنا وأرشدنا اليه العلم قديمه وحديثه من إشتمال الوجود على ماهو الطف من المادة وان غيب عنا فاى مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقا لشيء من العلم الالهي وان يكون لنفوس الانبياء اشراف عليه فاذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الاذعان بصحته أما تمثيل الصوت وأشباح لتلك الارواح في حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الانبياء مالا يبعد عنه فى بعض المصابين بامراض خاصة على زعمهم فقد سلموا ان بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم ويصل الى درجة المحسوس فيصدق المريض فى قوله انه يرى ويسمع بل يجالد ويصارع ولا شيء من ذلك فى الحقيقة بواقع فان جاز التمثل فى الصور المعقولة ولا منشأ لها الا فى النفس وان ذلك يكون عند عروض عارض على المخ فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية وان يكون ذلك لها عندما تنزوى عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد فى مزاج غيرهم وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله بل يحتم لان شأنهم في الناس أيضا غير الشئون المألوفة وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم والدليل على سلامة شهودهم وصحة مايحدثون عنه ان أمراض القلوب تشفي بدوائهم وان ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة فى أممهم التى تأخذ بعقالهم ومن المنكر فى البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ويستقيم النظام بمختل

أما أرباب النفوس العاليـة والعقول الساميـة من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الانبياء ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء فكثير منهم نال حظـه من الانس بما يقارب تلك الحال في النوع أو الجنس لهم مشارفة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا ننكر عليهم لتحقق حقائقها في الواقع منهـم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الانبياء صلوات الله عليهم ومن ذاق عرف ومن حرم انحرف ودليل صحة ما يحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح منهم وسـلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهـم وطهارة فطرهم مما ينكره العقـل الصحيح أو يمجه الذوق السليم واندفاعهـم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم المتلألئ في بصائرهم الى دعوة من يحف بهم الى ما فيه خير العامة وترويح قلوب الخاصـة ولا يخلو العالم من متشـبهين بهم ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ويسوء مآلهم ومآل من غرروا به ولا يكون لهم الا سوء الأثر في تضليل العقول وفساد الاخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزءوا بهم الا ان يتداركهم الله بلطفه فتكون كلمتهم الخبيثة (كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار) فلم يبق بين المنكرين لاحوال الانبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بامكان ما أثبتوا به بل وبوقوعه الا حجاب من المادة وكثيرا ما حجب العقول حتى عن ادراك أمور معتادة

فصل في وقوع الوحي والرسالة

الدليل على رسالة نبي وصدقه فيما يحكى عن ربه ظاهر للشاهد الذي يرى حاله ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان أما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر وهو خبر عن مشهود من

جماعة يستحيل طواطؤهم على الكذب وآيته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه كالاخبار بوجود مكة وسبب استحالة التواطىء على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ومرجع كل ذلك الى العدد وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر

لانزاع بين العقلاء فى انهذا النوع من الاخبار يحصل اليقين بالمخبر به وانما النزاع فى اعتبارات تتعلق به ومن الانبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كابراهيم وموسى وعيسى ومما جاء به الخبر انهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالاقوى سلطانا ولا بالاكثر مالا ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا اليه وغاية الامر انهم لم يكونوا من الادنين الذين تعافهم النفوس وتنبو عنهم الانظار ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة المال لديه واستعلائه عليهم بما كسب من العلم قاموا بدعوة الى الله على رغم الملوك وأجنادهم وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم في عروشهم وادعوا انهم يبلغون عن خالق السموات والارض ما أراد شرعه للناس وأقاموا من الدليل ماتصاغرت دونه قوة المعارضة ثم ثبتت فى الكون شرائعهم ثبات الغريزة في الفطر وكان الخير لامهم في اتباع ما جاءوا به حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها فهذا وما أقاموه من الادلة عند التحدي لايصح معه في العقل أن يكونوا كاذبين فى حديثهم عن الله ولا في دعواهم انه كان يوحي اليهم ما شرعوا للناس على أن من لا يعتقد مايقول لا يبقي لمقاله أثر في العقول والباطل لابقاء له الا فى الغفلة عنه كالنبات الخبيث في الارض الطيبة ينبت باهمالها ويغوا باغفالها فاذا لامستها عناية الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء

ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الانبياء قامت في العالم الانسانى ماشاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه مع كثرة المعارضين وقوة سلطان الغالبين فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة وكلامنا هذا في جوهرها الذي يلوح دائما في خلال ما ألحق بها المبتدعون أما بقية الرسل ممن يجب علينا الايمان بهم فيكفى فى اثبات نبوتهم اثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم فقد اخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به وسنأتى على الكلام في رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى باب على حدته ان شاء الله تعالى

﴿ فصل في وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴾

ان الرسل من الامم بمنزلة العقول من الاشخاص وقد تقدم ان بعثهم حاجة من حاجات العقول البشرية قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه ولكنها حاجة روحية وكل مالامس الحس منها فالقصد فيه الى الروح وتطهيرها من دنس الاهواء الضالة أو تقويم ملكاتها أو إيداعها مافيه سعادتها في الحياتين أما تفصيل طرق المعيشة والحذق في وجوه الكسب وتطاول شهوات العقل الى درك ماأعد للوصول اليه من اسرار العلم فذلك مما لا دخل للرسالات فيه الا من وجه العظة العامة والارشاد الى الاعتدال فيه وتقريره ان شرط ذلك كله ان لا يحدث ريباً فى الاعتقاد بأن للكون الهاً واحداً قادراً عالماً حكيماً متصفاً بما أوجب الدليل أن يتصف به وباستواء نسبة الكائنات اليه فى انها مخلوقة له وصنع قدرته وانما تفاوتها فيم اختص به بعضها من الكمال وشرطه أن لا ينال شئ من تلك الاعمال السابقة أحداً من الناس بشر في نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الامة على ماحدد فى شريعتها

يرشدون العقل الى معرفة الله وما يجب ان يعرف من صفاته ويبينون الحد الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان على وجه لايشق عليه الاطمئنان اليه ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة يجمعون كلمة الخلق على اله واحد لافرقة معه ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده وينهضون نفوسهم الى التعلق به فى جميع الاعمال والمعاملات ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الاوقات تذكرة لمن ينسى وتزكية مستمرة لمن يخشى تقوى ماضعف منهم وتزيد المستيقن يقينا

يبينون للناس مااختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعته مصالحهم ولذاتهم فيفصلون فى تلك المخاصمات بامر الله الصادع ويؤيدون بما يبلغون عنه ماتقوم به المصالح العامة ولا تفوت به المنافع الخاصة يعودون بالناس الى الالفة ويكشفون لهم سر المحبة ويلفتونهم الى ان فيها انتظام شمل الجماعة ويفرضون عليهم مجاهدة انفسهم ليستوطئوها قلوبهم ويشعروها أفئدتهم يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الآخر وان كان لا يغفل حقه وان لايتجاوز فى الطلب حده وان يعين قويهم ضعيفهم ويمد غنيهم فقيرهم ويهدى راشدهم ضالهم ويعلم عالمهم جاهلهم

يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة يسهل عليهم ان يردوا اليها أعمالهم كاحترام الدماء البشرية الا بحق مع بيان الحق الذى تهدر له وحظر تناول شئ مما كسبه الغير الا بحق مع بيان الحق الذي يبيح تناوله واحترام الاعراض مع بيان مايباح ومايحرم من الابضاع ويشرعون لهم مع ذلك ان يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والامانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود والرحمة بالضعفاء والاقدام على نصيحة الاقوياء والاعتراف لكل مخلوق بحقه

بلا استثناء يحملونهم على تحويل اهوائهم عن اللذائذ الفانية الى طلب الرغائب السامية آخذين في ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والانذار والتبشير حسبما أمرهم الله جل شأنه

يفصلون في جميع ذلك للناس مايؤهلهم رضاء الله عنهم وما يعرضهم لسخطه عليهم ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبي لمن وقف عند حدوده وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع في محاظيره يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده في العلم به مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده

بهذا تطمئن النفوس وتثلج الصدور ويعتصم المرزوء بالصبر انتظاراً لجزيل الاجر أو ارضاء لمن بيده الامر وبهذا يحل أعظم مشكل في الاجتماع الانساني لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حله الى اليوم

ليس من وظائف الرسل ماهو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ولا تفصيل مايحويه عالم الكواكب ولا بيان ما اختلف من حركاتها ولا ما استكن من طبقات الارض ولا مقادير الطول فيها والعرض ولا ما تحتاج اليه النباتات في نموها ولا ماتفتقر اليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وأنواعها وغير ذلك مما وضعت له العلوم وتسابقت في الوصول الى دقائقه الفهوم فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة هدى الله اليه البشر بما أودع فيهم من الادراك يزيد في سعادة المحصلين ويقضي فيه بالنكد على المقصرين ولكن كانت سنة الله في ذلك أن يتبع طريقة التدرج في الكمال وقد جاءت شرائع الانبياء بما يحمل على الاجمال بالسعي فيه وما يكفل التزامه بالوصول الى ما أعدالله له الفطر الانسانية

من مراتب الارتقاء

أما ما ورد في كلام الانبياء من الاشارة الى شيء مما ذكرنا فى أحوال الافلاك أو هيئة الارض فانما يقصد منه النظر الى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه أو توجيه الفكر الى الغوص لادراك أسراره وبدائعه ولغتهم عليهم الصلاة والسلام فى مخاطبة أممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون والا ضاعت الحكمة فى ارسالهم ولهذا قد يأتى التعبير الذى سيق الى العامة بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة وكذلك ما وجه الى الخاصة يحتاج الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة وهذا القسم أقل ما ورد في كلامهم

على كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزا بين الارواح وبين ماميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان بل يجب أن يكون الدين باعثاً لها على طلب العرفان مطالبا لها باحترام البرهان فارضاً عليها أن تبذل ماتستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم ولكن مع التزام القصد والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين

فان قال قائل ان كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكما لا لنظام اجتماعهم وطريقاً لسعادتهم الدنيوية والاخروية فما بالهم لم يزالوا أشقياء عن السعادة بعداء يتخالفون ولا يتفقون يتقاتلون ولا يتناصرون يتناهبون ولا يتناصفون كل يستعد للوثبة ولا ينتظر الا مجئ النوبة حشو جلودهم الظلم وملء قلوبهم الطمع عد أهل كل ذي دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه واتخذوا منه سبباً جديداً للمداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم وتختلف مذاهبهم في

فيه وتتفارق عقولهم فى عقائدهم ويثور بينهم غبار الشر وتتشبث أهواؤهم بالفتن فيسفكون دماءهم ويخربون ديارهم الى أن يغلب قويهم ضعيفهم فيستقر الامر للقوة لا للحق والدين فما هو الدين الذي تقول انه جامع الكلمة ورسول المحبة كان سببا في الشقاء ومضرماً للضغينة فما هذه الدعوى وما هذا الأثر

فجوابه كل ذلك قد كان ولكن بعد زمن الانبياء وانقضاء عهدهم ووقوع الدين فى أيدي من لا يفهمه أو يفهمه ويغلو فيه أو لا يغلو فيه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الانبياء أنفسهم أو الخيرة من تبعتهم والا فقل لنا أى نبي لم يأت أمته بالخير الجم والفيض الاعم ولم يكن دينه وافيا بجميع ما كانت تمس اليه حاجتها فى أفرادها وجملتها

﴿ تتمة ﴾ من مزايا الانبياء انهم لا يورثون كما قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الأنبياء لا نورث وقد أثبت صلى الله عليه وسلم الشرف لمن انتسب اليه بالاكتساب ونفاه لمن أراد الشرف بالانتساب فقال العلماء ورثة الانبياء أي لا نورث بالانتساب وإنما نورث بالاكتساب قال الفخر رحمه الله تعالى سمعت أن بعض الشرفاء في بلاد خراسان كان فى النسب أقرب الناس الى علىّ عليه السلام غير أنه كان فاسقاً وكان هناك مولى اسود تقدم بالعلم والعمل ومال الناس الى التبرك به فاتفق انه خرج يوما من بيته يقصد المسجد فاتبعه خلق فلقيه الشريف سكران وكان الناس يطردون الشريف ويبعدونه عن طريقه فغلبهم وتعلق باطراف الشيخ وقال له يا أسود الحوافر والشوافر يا كافر ابن كافر أنا ابن رسول الله أذل وتجل واذم وتكرم وأهان

وتمانى فهم الناس بضربه فقال الشيخ لاهذا محتمل منه لجده وضربه ممدود لحده ولكن يا يها الشريف بيضت باطني وسودت باطنك فيرى الناس بياض قلبي فوق سواد وجهي لحسنت وأخذت سيرة أبيك وأخذت سيرة أبي فرآني الخلق في سيرة أبيك ورأوك في سيرة أبي فظنوني ابن أبيك وظنوك ابن أبي فعملوا معك ما يعمل مع أبي وعملوا معي مايعمل مع أبيك ثم قال تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم)

﴿ الباب الثالث في عقائد التوحيد ﴾

التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفاته وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفي عنه وعن الرسل لاثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب اليهم وما يمتنع أن يلحق بهم

والغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل لا استرسالا مع التقليد حسبما أرشدنا اليه الكتاب فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ اليه من دقائقه تحصيلا لليقين بما هدانا اليه ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وامحاء وجودهم الملى وحق ماقال فان التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل وكما يكون في النافع يحصل في الضار فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الانسان

﴿ فصل في أقسام المعلوم ﴾

ينقسم المعلوم الى ثلاثة أقسام ممكن لذاته وواجب لذاته ومستحيل لذاته

ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هو أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هي والممكن مالا وجود له ولا عدم من ذاته وانما يوجد لموجد ويعدم لعدم سبب وجوده وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره واطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز فان المعلوم حقيقة لا بد أن يكون له كون في الواقع ينطبق عليه العلم والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه فى أحكامه وانما المراد ما يمكن الحكم عليه في صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها الى الحكاية عنه

﴿ فصل فى حكم المستحيل ﴾

حكم المستحيل لذاته أن لا يطرأ عليه وجود فان العدم من لوازم ماهيته من حيث هي فلو طرأ الوجود عليه اسلب لازم الماهية من حيث هي عنها وهو يؤدى الى سلب الماهية عن نفسها بالبداهةفالمستحيل لايوجد فهو ليس بموجود قطعاً بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة كما أشرنا اليه فهو ليس بموجود حتي ولا في الذهن

﴿ فصل فى أحكام الممكن ﴾

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجد الا بسبب وأن لا ينعدم الا بسبب وذلك لانه لا واحد من الامرين له لذاته فنسبتهما الىذاته على السواء فان ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحدالمتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة

ومن أحكامه انه ان وجد يكون حادثاً لانه قد ثبت أنه لايوجد الا بسبب فاما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده والاول باطل والا لزم تقدم المحتاج على ما اليه الحاجة وهو ابطال لمعني الحاجة

وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤدى الى خلاف المفروض والثانى كذلك والا لزم تساويهما فى رتبة الوجود فيكون الحكم على أحدهما بانه أثر والثانى مؤثر ترجيحاً بلا مرجح وهو مما لا يسوغه العقل على أن علية أحدهما ومعلولية الاخر رجحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة فتمين الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه فيكون مسبوقا بالعدم فى مرتبة وجود السبب فيكون حادثا اذ الحادث ماسبق وجوده بالعدم فكل ممكن حادث

والممكن لايحتاج فى عدمه الى سبب وجودى لان العدم سلب والسلب لايحتاج الى ايجاد بداهة فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ماكان سبباً فى بقائه اما فى وجوده فيحتاج الى سبب وجودى ضرورة لان العدم لا يكون مصدراً للوجود فالموجود ان حدث فانما يكون حدوثه بايجاد وذلك كله بديهى

وكما يحتاج الممكن للسبب فى وجوده ابتداء يحتاج اليه في البقاء لما بينا ان ذات الممكن لاتقتضى الوجود ولا يرجح لها الوجود عن العدم الا للسبب الخارجي الوجودى فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لايفارقها من حيث هى فلا يكون للممكن حالة يقتضى فيها الوجود لذاته فيكون فى جميع أحواله محتاجا الى مرجح الوجود على العدم لا فرق بين الابتداء والبقاء .

ومعني السبب على ماذكر منشأ الايجاد ومعطي الوجود وهو الذي يعبر عنه بالموجد واستفادة الوجود تقتضى سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه وان يكون وجود المستفيد مستمداً من وجود الواهب لا يقوم الا به فلا يستقل بنفسه دونه في حال من الاحوال

ثم من الضروري أن الممكن موجود قطعاً لانا نرى أشياء توجد بعد ان لم تكن وأخرى تنعدم بعد ان كانت كاشخاص النباتات والحيوانات فهذه الكائنات اما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة لا سبيل الى الاول لان المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ولا الى الثاني لان الواجب له الوجود من ذاته وما بالذات لا يزول فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه كما سيجيء في أحكام الواجب فهي ممكنة فالممكن موجود قطعاً

ووجود الممكن يقتض بالضرورة وجود الواجب لان جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة وكل ممكن محتاج الى سبب يعطيه الوجود فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها الى موجد لها فاما أن يكون عينها وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه واما أن يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سبباً لنفسه ولما سبقه ان لم يكن الاول ولنفسه فقط ان فرض أول وبطلانه ظاهر فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات والموجود الذي ليس بممكن هو الواجب اذ ليس وراء الممكن الا المستحيل والواجب والمستحيل لا يوجد فيبقى الواجب فثبت أن للممكنات الموجودة موجداً واجب الوجود

وأيضاً الممكنات الموجودة سواء كانت متناهية أم غير متناهية قائمة بوجود فذلك الوجود إما ان يكون مصدره ذات الامكان وماهيات الممكنات وهو باطل لما سبق في أحكام الممكن من أنه لا شيء من الماهيات الممكنة بمقتضى للوجود فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة

﴿ فصل في أحكام الواجب ﴾

يجب له (القدم) فيكون الواجب قديماً أزلياً لانه لو لم يكن كذلك

لكان حادثاً والحادث ماسبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقا بعدم وكل ماسبق بالعدم يحتاج الى علة تعطيه الوجود والا لزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال فلو لم يكن الواجب قديماً لكان محتاجا فى وجوده الى موجد غيره وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون مافرض واجباً واجباً وهو تناقض محال

ويجب له (البقاء) فلا يطرأ عليه عدم والا لزم سلب ماهو للذات عنها وهو يعود الى سلب الشيء عن نفسه وهو محال بالبداهة

ويجب (نفى التركيب عنه) اذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التى هى ذاته وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة فيكون وجود جملته محتاجا الى وجود غيره وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته ولانه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفا على الحكم بوجود أجزائه وقد قلنا انه له لذاته من حيث هي ذاته ولانه لا مرجح لان يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هى الواجبة دونه

ونفي التركيب فى الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية أو خارجية فلا يمكن للعقل أن يحاكى ذات الواجب بمركب فان الاجزاء العقلية لا بد لها من منشأ انتزاع فى الخارج فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة فى الخارج والا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتبارا كاذب الصدق لا حقيقة

وكما لايكون الواجب مركبا لا يكون قابلا للقسمة فى أحد الامتدادات الثلاث أي لا يكون له امتداد لانه لو قبل القسمة لعاد بها الى غير وجوده

الاول وصار الى وجودات متعددة وهي وجودات الاجزاء الحاصلة من القسمة فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركبا وكلاهما محال كما سبق

ثم معني الوجود وان كان بديهيا عنـد العقل ولكنه يتمثـل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعني وقوته بالبداهة فكل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة في المعنى السابق ذكره والا كان الوجود لمرتبة سواها وقد فرض لها وما يتجلى للنفس من مثل الوجود لا ينحصر وأكمل مثال في أى مراتبـه ما كان مقرونا بالنظام والكون على وجه ليس فيـه خلل ولا تشويش فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمرا في النوع كان أدل على كمال المعني الوجودى فى صاحب المثال

فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصـدرا لكل نظام كان ذلك عنواناً على انها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها فوجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا وكل ما تصوره العقل كمالا فى الوجود من حيث ما يحيط به من معني الثبات والاستقرار والظهور وأمكن أن يكون له وجب أن يثبت له وكونه مصـدراً للنظام وتصريف الاعمـال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا فيجب أن يكون ذلك ثابتاً له فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التى تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له

فمما يجب أن يكون له (صفة الحياة) وهى صفة تستتبع العلم والاراد

وذلك ان الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة فان الحياة مع مايتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة وهي في أي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار فى تلك المرتبة فهي كمال وجودى ويمكن أن يتصف بها الواجب وكل كمال وجودى يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له فواجب الوجود حى وان باينت حياته حياة الممكنات فان ماهو كمال للوجود انما هومبدأ العلم والارادة ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان فى الممكنات ماهو أكمل منه وجوداً وقد تقدم انه أعلى الموجودات فى الوجود وأكملها فيه

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف لوكان فاقداً للحياة يعطيها فالحياة له كما أنه مصدرها

ومما يجب له (صفة العلم) ويراد به مابه انكشاف شئ عند من ثبتت له تلك الصفة أي مصدر ذلك الانكشاف منه لان العلم من الصفات الوجودية التى تمد كمالا في الوجود ويمكن أن تكون للواجب وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له فواجب الوجود عالم

ثم البداهة قاضية بان العلم كمال فى الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم فلو لم يكن الواجب عالما لكان في الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا ثم هو واهب العلم فى عالم الامكان ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده

علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علو وجوده على الوجودات فلا يتصور في العلوم ماهو أعلى منه فيكون محيطاً بكل مايمكن علمه والا تصور العقل علما أشمل وهو انما يكون لوجود أكمل وهو محال

وعلم الواجب من لوازم وجوده فلا يفتقر الى شئ ما وراء ذاته فهو

أزلى أبدى غنى عن الآلات وجولان الفكر وأفاعيل النظر فيخالف علوم الممكنات بالضرورة

وما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم والا لم يكن علما .

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده فى نظام الممكنات من الاحكام والاتقان ووضع كل شيء فى موضعه وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه في وجوده وبقائه وذلك ظاهر لجلى النظر بما يشاهد في الاعيان كبيرها وصغيرها علويها وسفليها فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذى قدر لها والزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام علله أو العالم بأسره وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره

اعتبر بما تراه في جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها وايتائها ما تحتاج اليه في تقويم وجودها من الآلات والاعضاء ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها وايداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل الى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لا يناسبه فترى بذرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ في أرض واحدة ثم تسقى بماء واحد وتنمى بعناية واحدة ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المر الزعاق وهذه تتناول ما يغذو حلو المذاق وارشاد الحساس منها الى استعمال ما منح من تلك الادوات والاعضاء وسوق كل قوة من قواه الى ما قدرت له فهو الذى يعلم حال الجنين وهو نطفة أو علقة ويعلم حاجته متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحي المستقل في عمله الى الايدى والارجل والاعين والمسام والآذان وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك

فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادي عليه وحاجته الى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الاعضاء التى لا غنى عنها في النمو والبقاء الى الاجل المحدود للشخص أو للنوع وغير ذلك مما لا يستطاع احصاؤه وقد فصل الكثير منه في كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمي التاريخ الطبيعي وفنون منافع الاعضاء والطب وما يتبعه على أن الباحثين في كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من الاسرار لم يزالوا في أول البحث

هـذا الصنيع الذى انما تتفاضل العقول فى فهم أسراره والوقوف على دقائق حكمه ألا يدل على ان مصدره هو العالم بكل شئ الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمي بالصدفة أن يكون ينبوعا لهذا النظام وواضعا لتلك القواعـد التى يقوم عليها وجود الاكوان عظيمها وحقيرها كلا بل مبدع ذلك كله (هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا فى السماء وهو السميع العليم)

ومما يجب لواجب الوجود (الارادة) وهى صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب وانه عالم وان ما يوجـد من الممكن لا بد أن يكون على وفق علمـه ثبت بالضرورة انه مريد لانه انما يفعـل على حسب علمه ثم ان كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة وله وقت ومكان محدودان وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ولا معني للارادة الا هذا

أما ما يعرف من معنى الارادة وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصده

وان يرجع عنه فذلك محال في جانب الواجب فان هذا المعني من الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ وهي من توابع النقص في العلم فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك

ومما يجب له (القدرة) وهي صفة بها الايجاد والاعدام ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وارادته فلا ريب يكون قادرا بالبداهة لان فعل العالم المريد فيما علم وأراد انما يكون بسلطة له على الفعل ولا معني للقدرة الا هذا السلطان

ثم ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار اذ لا معني له الا اصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الارادة فهو الفاعل المختار ليس من أفعاله ولا من تصرفه في خلقه مايصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودى بدون شعور ولا ارادة وليس من صالح الكون مايلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد فيأتيه تنزهاً عن اللائمة تعالى عن ذلك علواً كبيراً ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى انما تقررا له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذي هو أكمل الوجودات وأرفعها فالكمال فى الكون انما هو تابع لكمال المكون واتقان الابداع انما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والارادة المطلقة فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون) وهذا هو معنى قولهم ان أفعاله لا تعلل بالاغراض ولكنها تتنزه عن العبث ويستحيل أن تخلو من الحكم وان خفي شئ من حكمتها عن أنظارنا

ومما يجب له (صفة الوحدة) ذاتا ووصفاً ووجوداً وفعلا أما الوحدة

الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفي التركيب في ذاته خارجاً وعقلا وأما الوحدة في الصفة أي انه لا يساويه في صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس في الموجودات مايساوي واجب الوجود في مرتبة الوجود فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات وأما الوحدة في الوجود وفي الفعل ونعني بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من ايجاد الممكنات فهي ثابتة لانه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة والا لم يتحصل معني التعدد وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة لان الصفة انما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين مايثبت له بالبداهة فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة اذ يكون لكل واحدة منها علم وارادة يباينان علم الاخرى وارادتها ويكون لكل واحدة علم وارادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها

هذا التخالف ذاتي لان علم الواجب وارادته لازمان لذاته من ذاته لالامر خارج فلا سبيل الى التغير والتبدل فيهما كما سبق وقد قدمنا ان فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم ارادته فيكون فعل كل صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخلف علومهم وارادتهم وهو خلاف يستحيل معه الوفاق وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الايجاد في عامة الممكنات فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وارادته ولا مرجح لنفاذ احدي القدرتين دون الاخرى فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وارادتهم فيفسد نظام الكون بل يستحيل أن يكون له نظام بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات لان كل ممكن لابد أن يتعلق

به الايجاد على حسب العلوم والارادات المختلفة فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال (فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه واحد فى ذاته وصفاته لاشريك له في وجوده ولا فى أفعاله

ثم ماقدمنا من الصفات التى يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هي ما أرشدنا اليه البرهان وجاءت الشريعة الاسلامية وما تقدمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة اليه بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولسان من سبقه من الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل اذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ولكن لا يهتدى اليه النظر وحده ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره الشرع وتصديقا لما أخبر به

فمن تلك الصفات (صفة الكلام) فقد ورد ان الله كلم بعض أنبيائه ونطق القرآن بانه كلام الله فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لا بد أن يكون شأنا من شئونه قديما بقدمه أما الكلام المسموع نفسه المعبر عن ذلك الوصف القديم فلا خلاف فى حدوثه ولا في أنه خلق من خلقه وخصص بالاسناد اليه لاختياره له سبحانه فى الدلالة على ما أراد ابلاغه لخلقه ولانه صادر عن محض قدرته ظاهراً وباطنا بحيث لا مدخل لوجود آخر فيه بوجه من الوجوه سوي ان من جاء على لسانه مظهر لصدوره والقول بخلاف ذلك مصادمة للبداهة وتجرؤ على مقام القدم بنسبة التغير والتبدل اليه فان الآيات التى يقرؤها القارىء تحدث وتفني بالبداهة كلما تليت

والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالا وأضل اعتقاداً من كل ملة جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوة الي مخالفتها وليس في القول بان الله أوجد القرآن بدون دخل لكسب بشر في وجوده ما يمس شرف نسبته بل ذلك غاية ما دعا الدين الى اعتقاده فهو السنة وهو ما كان عليه النبي وأصحابه وكل ما خالفه فهو بدعة وضلالة

أما مانقل الينا من ذلك الخلاف الذى فرق الامة وأحدث فيها الاحداث خصوصا فى أوائل القرن الثالث من الهجرة وإباء بعض الائمة أن ينطق بان القرآن مخلوق فقد كان منشؤه مجرد التحرج والمبالغة في التأدب من بعضهم والا فيجل مقام مثل الامام ابن حنبل عن أن يعتقد أن القرآن المقروء قديم وهو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكيفه بصوته

ومما ثبت له بالنقل (صفة البصر) وهي ما به تنكشف المبصرات و (صفة السمع) وهي ما به تنكشف المسموعات فهو السميع البصير لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولاجارحة ولاحدقة ولاباصرة

(لطيفة) قال اعرابى لابي جعفر محمد بن على بن الحسين رضى الله عنه هل رأيت الله حين عبدته فقال لم أكن لاعبد من لم أره قال فكيف رأيته قال لم تره الابصار بمشاهدة العيان ورأته القلوب بحقائق الايمان لايدرك بالحواس ولا يشبه بالناس معروف بالآيات منعوت بالعلامات لا يجور في القضيات ذلك الله الذى لا اله الا هو فقال الاعرابي (الله أعلم حيث يجعل رسالته)

فصل في الكلام على صفات الله اجمالا

ابتدئ الكلام فيما أقصد بذكر حديث ان لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله صلي الله عليه وسلم تفكروا فى خلق الله ولا

تفكروا فى ذاته فتهلكوا

اذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا ما ينتهى اليه كماله انما هو الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الادراك الانسانى حسا كان أو وجدانا أو تعقلا ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها وتحصيل كليات لانواعها والاحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها أما الوصول الى كنه حقيقة ما فما لا تبلغه قوته لان اكتناه المركبات انما هو باكتناه ما تركبت منه وذلك ينتهى الى البسيط الصرف وهو لا سبيل الى اكتناهه بالضرورة وغاية مايمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره انظر أظهر الاشياء وأجلاها كالضوء قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة فصلوها فى علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكتنه معنى الاضاءة نفسه وانما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان وعلى هذا القياس

ثم ان الله لم يجعل للانسان حاجة تدعو الى اكتناه شئ من الكائنات وانما حاجته الى معرفة العوارض والخواص ولذة عقله ان كان سليما انما هي تحقيق نسبة تلك الخواص الى ما اختصت به وادراك القواعد التى قامت عليها تلك النسب فالاشتغال بالاكتناه اضاعة للوقت وصرف للقوة الى غير ما سيقت اليه

اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الاشياء اليه وهى نفسه أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر هل هى قبل الجسم أو بعده هل هي فيه أو مجردة عنه كل هذه صفات لم يصل العقل الى اثبات شئ منها يمكن الاتفاق عليه وانما مبلغ جهده انه عرف انه موجود حي له شعور وارادة وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع الى

الى تلك العوارض التى وصل اليها ببديهته أما كنه شيء من ذلك بل وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به

هـذا حال العقـل الانسانى مع ما يساويه في الوجود أو ينحط عنه بل وكذلك شأنه فيما يظن من الافعال انه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركه والنطق فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الأعلى ماذا يكون اندهاشه بل انقطاعه اذا وجه نظره الى مالا يتناهى من الوجود الأزلى الابدى

والنظر في الخلق يهـدى بالضرورة الى المنافع الدنيوية ويضيء للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره وعليها تجلت أنواره والى اتصافه بما لولاه ماصدرت عنه هـذه الآثار على ماهى عليه من النظام وتخالف الانظار في الكون انما هو من تصارع الحق والباطل ولا بد أن يظفر الحق ويعلو على الباطل بتعاون الافكار أو صولة القوىّ منها على الضعيف

أما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشري لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركيب في ذاته وتطاول الى مالا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى فهو (عبث ومهلكة) عبث لانه سعى الى مالا يدرك ومهلكة لانه يؤدي الى الخبط في الاعتقاد لانه تحديد لما لايجوز تحديده وحصر لمالا يصح حصره

لاريب أن هـذا الحـديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتى في الذات من حيث هي يأتي فيها مع صفاتها فالنهى واستحالة الوصول الى الاكتناه شاملان لها فيكفينا من العلم بها أن نعلم انه متصف بها أما ماوراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصـل اليه ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب الا بتوجيه النظر الى المصنوع لينفـذ منه الى

معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية أما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها

فالذى يوجبه علينا الايمان هو أن نعلم أنه موجود لايشبه الكائنات أزلى ابدى حي عالم مريد قادر متفرد فى وجوب وجوده وفى كمال صفاته وفي صنع خلقه وانه متكلم سميع بصير وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه أما كون الصفات زائدة على الذات وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ونحو ذلك من الشئون التى اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب فمما لايجوز الخوض فيه اذ لايمكن لعقول البشر أن تصل اليه والاستدلال على شئ منه بالالفاظ الواردة ضعف في العقل وتغرير بالشرع لان استعمال اللغة لاينحصر فى الحقيقة ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لاتراعي فيه الوجودات بكنهها الحقيق وانما تلك مذاهب فلسفة ان لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع فما علينا الا الوقوف عند ما تبلغه عقولنا وان نسأل الله أن يغفر لنا ولمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا

﴿ فصل فى الرسالة العامة ﴾

نريد من الرسالة العامة بعثة الرسل لتبليغ شئ من العقائد والاحكام عن الله خالق الانسان وموفيه مالا غني له عنه كما وفّي غيره من الكائنات سداد حاجتها وبقاء وجودها على القدر الذي حدد لها في رتبة نوعها من الوجود والكلام فى هذا البحث من وجهين

الاول وهو أيسرهما على المتكلم وجه ان الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من

أركان الايمان فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد بأن الله أرسل رسلا من البشر مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده وتفصيل لاحكامه في فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها وفي مثالب فعال وخلائق ينهاهم عنها وان يعتقد بوجوب تصديقهم في أنهم يبلغون ذلك عن الله ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه وان يعتقد بأن منهم من أنزل الله عليه كتباً تشتمل على ماأراد أن يبلغوه من الخبر عنه ومن الحدود والاحكام التي علم الخير لعباده في الوقوف عندها وان هذه الكتب التي أنزلت عليهم حق وأن يؤمن بانهم مؤيدون من العناية الالهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية وان هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه فمتى ادعي الرسول النبوة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب اعتقاد علو فطرتهم وصحة عقولهم وصدقهم في أقوالهم وأمانتهم في تبليغ ماعهد اليهم أن يبلغوه وعصمتهم من كل مايشوه السيرة البشرية وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الابصار وتنفر منه الاذواق السليمة وأنهم منزهون عما يضاد شيئاً من هذه الصفات المتقدمة وان أرواحهم ممدودة من الجلال الالهي بما لا يمكن معه لنفس انسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم مايعتري سائر أفراده يأكلون ويشربون ويناموون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الاحكام ويمرضون وتمد اليهم أيدي الظلمة وينالهم الاضطهاد وقد يقتلون

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا فان مخالفة السير الطبيعي

المعروف في الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته بل ذلك مما يقع كما يشاهدفى حال المريض يمتنع عن الاكل مدة لو لم يأ كل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف فان قيل ان ذلك لا بد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعي قلنا ان واضع الناموس هو موجد الكائنات فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات غاية ما فى الامر اننا لا نعرفها ولكنا نري أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده على اننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بانه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئة وتابعاً لاي سبب اذا سبق فى علمه انه يحدثه كذلك

المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدى أى دعوى النبوة وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده لان النبي يستند اليها فى دعواه انه مبلغ عن الله فاصدار الله لها عند ذلك يعد تأييدا منه له فى تلك الدعوى ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب فان تأييد الكاذب تصديق له وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله فتى ظهرت المعجزة وهى مما لا يقدرعليه البشر وقارن ظهورها دعوي النبوة علم بالضرورة ان الله ما أظهرها الا تصديقا لمن ظهرت على يده وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة

وأما السحر وأمثاله فان سلم ان مظاهره فائقة عن آثار الاجسام والجسمانيات فهى لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة فى شئ

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للانبياء فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس آخر أو مس عقولهم شئ من الضعف ما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الالهي الذى يفوق كل اختصاص اختصاصهم بوحيه والكشف لهم عن أسرار علمه ولو لم تسلم

أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر في انكار دعواهم ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ولكانوا مضلين لا مرشدين فتذهب الحكمة من بعثهم والامر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد اليهم تبليغه من العقائد والاحكام أما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل في التشريع فجوزه بعضهم والجمهور على خلافه وما ورد من مثل ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تأبير النخل ثم أباحه لظهور أثره في الاثمار فانما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس ان ما يتخذوه من وسائل الكسب وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ولا حظر عليهم فيه ما دامت الشرائع مرعية والفضائل محمية وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالاكل من الشجرة فما خفي فيه سر النهي عن الاكل والمؤاخذة به وغاية ما علمناه من حكمته انه كان سببا لعمارة الارض ببني آدم كأن النهي والاكل رمزان الى طورين من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران من مظاهر النوع الانساني في الوجود والله أعلم ومن العسر اقامة الدليل العقلي أو اصابة دليل شرعي يقطع بما ذهب اليه الجمهور

الباب الرابع في الشرائع المتعبد بها

اعلم انه ليس في العالم أحد يثبت لله شريكا يساويه في الوجود والقدرة والعلم والحكمة وهذا مما لم يوجد الى الآن لكن الثنوية يثبتون الهين أحدهما حليم يفعل الخير والثاني سفيه يفعل الشر وأما اتخاذ معبود سوى الله تعالى ففي الذاهبين الى ذلك كثرة فمنهم عبدة الكواكب وعبدة المسيح وعبدة الاوثان وكان لقبائل العرب أوثان معروفة وكان قصي جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاهم عن عبادتها ويدعوهم الى عبادة الله تعالى وكذلك زيد

ابن عمرو بن نوفل وهو الذى يقول

أربا واحدا أم الف رب أدين اذا تقسمت الامور
تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الرجل الخبير

وأهل الاديان على شدة اختلافها ونهاية تنافرها يعظمون ابراهيم عليه السلام ويتشرفون بالانتساب اليه اما فى النسب واما فى الدين والشريعة حتى ان عبدة الاوثان كانوا معظمين لابراهيم عليه السلام وقال الله تعالى فى كتابه (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا) وقال ومن يرغب عن ملة ابراهيم الامن سفه نفسه وجميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقولون فى آخر صلاتهم وارحم محمدا وآل محمد كما صليت وباركت وترحمت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم

ثم ان الشريعة الاسلامية ناسخة لكل الشرائع واختلفوا فى شريعة عيسى عليه السلام هل هي ناسخة لشريعة موسى أو مخصصة واستظهر ابن حجر انها مخصصة لا ناسخة والرسل بعد موسى كلهم على شريعته الا عيسي عليه السلام وذكر الامام فى المطالب العالية فى الحكمة في نسخ الشرائع كلاما حسنا فقال منها ما يعرف نفعه بالعقل معاشا ومعادا فهذا يمتنع طرو النسخ عليه كمعرفة الله تعالى وطاعته أبدا ومنها سمعية لا يعرف وجهها الا من السمع وهذا يمكن طرو نسخه وتبديله وحكمة نسخه ان الاعمال البدنية اذا واظب عليها الخلف عن السلف صارت كالعادة وظن أنها مطلوبة لذاتها فيمتنع حينئذ الوصول بها الى ما هو المقصود من معرفة الله والتقرب اليه

﴿ فصل في سبب قول طائفة من اليهود عزير بن الله وبعض فظائعهم ﴾

روى ابن عباس ان اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فانساهم

الله تعالى التوراة ونسخها من صدورهم فتضرع عزير الى الله تعالى وابتهل اليه فعاد حفظ التوراة الى قلبه فانذر قومه به فلما جربوه وجدوه صادقا فيه فقالوا ماتيسر هذا للعزير الا انه ابن الله ثم ان لليهود جملة فظائع

منها ماقالوه فى عبد الله ابن سلام حين أسلم وحاصله انه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نظر الى وجهه فعلم انه ليس بوجه كذاب وتأمله وتحقق انه هو النبي المنتظر فقال له إني سائلك عن ثلاث ما يعلمهن الا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة والولد ينزع الى أبيه أو الى أمه فقال صلى الله عليه وسلم أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وأما الولد فاذا سبق ماء الرجل نزع له وان سبق ماء المرأة نزع لها فقال أشهد انك لرسول الله حقا ثم قال يارسول الله ان اليهود قوم بهت وان علموا باسلامى قبل ان تسألهم عنى بهتونى عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلي الله عليه وسلم أى رجل عبد الله فيكم فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا واعلمنا وابن اعلمنا فقال أرأيتم ان أسلم عبد الله فقالوا أعاذه الله من ذلك فخرج عليهم عبد الله فقال أشهد أن لااله الا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال هذا ما كنت أخاف يارسول الله

ومنها ما حكاه عنهم أحد الفلاسفة من الاقباط ممن يشار اليه بالعلم فى مجلس أحمد بن طولون وذلك ان طبيبا يهوديا قد حضر هذا المجلس فاستأذن ابن طولون فى مخاطبته فقال شأنك فاقبل على القبطى سائلا له فقال له القبطى وما أنت أيها الرجل وما نحلتك فقال له يهودي فقال له مجوسى اذا قال له كيف ذلك وهو يهودى قال لانهم يرون نكاح البنات فى

بعض الحالات اذ في دينهم أن الاخ يتزوج بنت أخيه وعليهم أن يتزوجوا نساء إخوتهم اذا ماتوا فاذا وافق اليهودي أن تكون امرأة أخيه بنته لم يجد بداً من أن يتزوجها وهـذا من أسرارهم وما يكتمونه ولا يظهرونه فهل في المجوسية أشنع من هذا

فانكر اليهودي ذلك وجحـد أن يكون في دينه أو يعرفه أحـد من اليهود فاستخبر ابن طولون صحـة ذلك فوجـد الطبيب اليهودي قد تزوج امرأة أخيه وكانت ابنته ثم أقبل القبطي على ابن طولون فقال أيها الامير هؤلاء يزعمون وأشار الى اليهودي ان الله خلق آدم على صورته وعن نبي من أنبيائهم سماه قال في كتابه انه رآه في قديم الزمان أبيض الرأس واللحية وان الله تعالى قال انى أنا النار المحرقة والحمى الآخذة وأنا الذى آخذ الابناء بذنوب الاباء ثم في توراتهم ان بنات لوط سقينه الخمر حتى سكر وزني بهن وحملن منه وولدن وان موسى رد على الله الرسالة مرتين حتى اشتد غضب الله عليه وان هارون صنع العجل الذى عبده بنو اسرائيل وان موسي أظهر معجزات لفرعون وفعلت السحرة مثلها ثم قالوا ان شريعتهـم لا تنسخ ولا يقبل قول أحد من الانبياء بعد موسي اذا انحرف عما جاء به موسى

وذكر عن اليهود أقاصيص وتخاليط كثيرة ومناقضات واسعة ولهذا القبطي مجالس كثيرة عند أحمـد بن طولون مع جماعة من الفلاسفة والثنوية والصابئية والمجوس وعدة من متكلمي الاسلام

﴿ فصل في بيان قول النصارى المسيح بن الله والرد عليهم ﴾

يقول النصارى ان الله جوهر مركب من ثلاثة أقانيم أقنوم الوجود ويعبرون عنه بالاب وأقنوم العلم ويعبرون عنه بالابن وأقنوم الحياة ويعبرون

عنه بروح القدس ويعنون بالاقنوم الصفة وبالجوهر القائم بنفسه ويقولون ان أقنوم العلم الذى هو جزء الاله انتقل لجسد عيسى وامتزج به فاتحد اللاهوت بالناسوت وزادوا الطين بلة حيث ادعوا ان العلم إله والوجود إله والحياة إله ثم صار بمجموع الاقانيم الثلاثة الها واحداً فجمعوا بين نقيضين وحدة وكثرة وجعلوا الذات التى هي جوهر تتركب من مجموع الصفات التى هى اعراض وجعلوا جزء الاله انتقل لسيدنا عيسي وسموا الاقانيم باسماء خالية عن المناسبة

أمر أحمد بن طولون وقد أحضر بمجلسه بعض أهل النظر أن يسأل أحد الفلاسفة من أقباط مصر ممن يظهر دين النصرانية وراي اليعقوبية عن الدليل على صحة دين النصرانية فسأله عن ذلك فقال دليلي على صحتها وجودي اياها متناقضة متنافية تدفعها العقول وتنفر منها النفوس لتباينها وتضادها لانظر يقويها ولا برهان يعضدها من العقل والحس عند التأمل لها والفحص عنها ورأيت مع ذلك أمماً كثيرة وملوكا عظيمة ذوي معرفة وحس قد انقادوا اليها وتدينوا بها فعلمت أنهم لم يقبلوها ولم يتدينوا بها مع ما ذكرت من تناقضها فى العقل الا لدلائل شاهدوها وآيات علموها ومعجزات عرفوها أوجبت انقيادهم اليها والتدين بها قال له السائل وما التضاد الذى فيها قال وهل يدرك أو يعلم غايته منها قولهم بان الواحد ثلاثة والثلاثة في واحد ووصفهم الاقانيم والجوهر وهو الثالوث وهل الاقانيم فى أنفسها قادرة عالمة أم لا وفي اتحاد ربهم القديم بالانسان المحدث وما جرى في ولادته وقتله وصلبه وهل في الشنع أكبر وأفحش من اله صلب وبصق فى وجهه ووضع على رأسه الاكليل من الشوك وضرب رأسه بالقضيب وسمرت يداه ونخس بالاسنة والخشب جنباه وطاب

الماء فسق الخل في بطيخ الحنظل فامسكوا عن مناظرته وانقطعوا عن مجادلته لما قد أعطاهم من تناقض مذهبه وفساده ووهنه

حكي الله تعالى في كتابه العزيز عن النصارى انهم يقولون المسيح ابن الله وهو ظاهر لكن فيه اشكال قوي وهو أن يقطع أن المسيح صلوات الله عليه واصحابه كانوا مبرئين من دعوة الناس الى الابوة والبنوة فان هذا أخش أنواع الكفر فكيف يليق باكابر الانبياء عليهم السلام واذا كان الامر كذلك فكيف يعقل اطباق جملة محبي عيسى من النصارى على هذا الكفر ومن الذي وضع هذا المذهب الفاسد وكيف قدر على نسبته الى المسيح عليه السلام قال المفسرون في الجواب عن هذا السؤال ان اتباع عيسى عليه السلام كانوا على الحق بعد رفع عيسى حتى وقع حرب بينهم وبين اليهود وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بواس قتل جمعا من أصحاب عيسى ثم قال لليهود ان كان الحق مع عيسي فقد كفرنا والنار مصيرنا ونحن مغبونون ان دخلوا الجنة ودخلنا النار واني أحتال فأضلهم فعرقب فرسه وأظهر الندامة لما كان يصنع ووضع على رأسه التراب وقال نوديت من السماء ليس لك توبة الاأن تتنصر وقد تبت فأدخله النصارى الكنيسة ومكث سنة لايخرج وتعلم الانجيل فصدقوه وأحبوه ثم مضى الى بيت المقدس واستخلف عليهم رجلا اسمه نسطور وعلمه ان عيسى ومريم والاله كانوا ثلاثة وتوجه الى الروم وعلمهم اللاهوت والناسوت وقال ماكان عيسى انساناً ولا جسما ولكنه الله وعلم رجلا آخر يقال له يعقوب ذلك ثم دعا رجلا يقال له ملكا فقال له ان الاله لم يزل ولا يزال عيسي ثم دعا بهؤلاء الثلاثة وقال لكل واحدمنهم أنت خليفتي فادع الناس الى انجيلك ولقد رأيت عيسى في المنام ورضي عني واني

غدا أذبح نفسي لمرضاة عيسى ثم دخل المذبح فذبح نفسه ثم دعا كل واحد من هؤلاء الناس الى قوله ومذهبه فهذا هو السبب في وقوع هذا الكفر في طوائف النصارى هذا ماحكاه الواحدى رحمه الله تعالى قال الرازي والاقرب عندي أن يقال لعله ورد لفظ الابن في الانجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ الخليل في حق ابراهيم على سبيل التشريف ثم ان القوم لاجل عداوة اليهود ولاجل أن يقابلوا غلوهم الفاسد في أحد الطرفين بغلو فاسد في الطرف الثاني فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية والجهال قبلوا ذلك وفشا هذا المذهب الفاسد في اتباع عيسى عليه السلام والله أعلم بحقيقة الحال

قال محمد بن اسحاق قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران ستون راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم وثلاثة منهم كانوا أكابر القوم أحدهم أميرهم واسمه عبد المسيح والثاني مشيرهم وذو رأيهم وكانوا يقولون له السيد واسمه الايهم والثالث حبرهم وأسقفهم وصاحب مدارسهم يقال له أبو حارثة ابن علقمة أحد بني بكر بن وائل وملوك الروم كانوا شرفوه ومولوه وأكرموه لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم فلما قدموا من نجران ركب أبو حارثة بغلته وكان الى جنبه أخوه كرز ابن علقمة فبينا بغلة أبي حارثة تسير اذ عثرت فقال كرز أخوه تعس الابعد يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو حارثة بل تعست أمك فقال ولم يا أخي فقال انه والله النبي الذي كنا ننتظره فقال له أخوه كرز فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا قال لان هؤلاء الملوك أعطونا أموالا كثيرة وأكرمونا فلو آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم لاخذوا منا كل هذه الاشياء فوقع ذلك في قلب أخيه كرز وكان يضمره الى أن أسلم فكان يحدث بذلك

ثم تكلم أولئك الثلاثة الامير والسيد والحبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على اختلاف من أديانهم فتارة يقولون عيسي هو الله وتارة يقولون هو ابن الله وتارة يقولون ثالث ثلاثة ويحتجون بقولهم هو الله بانه كان يحيي الموتى ويبرئ الاكمه والابرص ويبرئ الاسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير ويحتجون فى قولهم انه ولد الله بانه لم يكن له أب يعلم ويحتجون على ثالث ثلاثة بقول الله تعالى فعلنا وجعلنا ولو كان واحدا لقال فعلت فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اسلموا فقالوا قد أسلمنا فقال صلى الله عليه وسلم كذبتم كيف يصح اسلامكم وأنتم تثبتون لله ولدا وتعبدون الصليب وتأكلون الخنزير قالوا فمن أبوه فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى فى ذلك أول سوره آل عمران الى بضع وثمانين آية منها ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يناظر معهم فقال ألستم تعلمون ان الله حي لا يموت وان عيسى يؤثر عليه الفناء قالوا بلى قال ألستم تعلمون انه لا يكون ولد الا ويشبه أباه قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئا من ذلك الا ما علم قالوا لا قال فان ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء فهل تعلمون ذلك قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث وتعلمون ان عيسي حملته امرأة كحمل المرأة ووضعته كما تضع المرأة وغذى كما تغذي الصبي ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث قالوا بلى فقال صلى الله عليه وسلم فكيف يكون كما زعمتم فعرفوا ثم أبوا الا جحودا وفي رواية قال عليه الصلاة والسلام ان الله أمرني ان لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم فقالوا يا أبا القاسم بل نرجع فننظر

في أمرنا ثم نأتيك فلما رجعوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم يا عبد المسيح ما ترى فقال والله لقد عرفتم يا معشر النصارى ان محمداً لنبي مرسل ولقد جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم ذلك لكان الاستئصال فان أبيتم الا الاصرار على دينكم والاقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود وكان قد احتضن الحسين .وأخذ بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى رضي الله عنه خلفها وهو يقول اذا دعوت فامنوا فقال أسقف نجران يا معشر النصارى انى لاري وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا عن مكانه لازاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الارض نصراني الى يوم القيامة ثم قالوا يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نقرك على دينك فقال صلوات الله عليه فاذا أبيتم المباهلة فاسلموا يكن لكم ماللمسلمين وعليكم ماعلى المسلمين فأبوا فقال فانى أناجزكم القتال فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدي اليك فى كل عام الفي حلة الفافي صفر والفا فى رجب وثلاثين درعا عادية من حديد فصالحهم على ذلك وقال والذى نفسي بيده ان الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولولا عنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى نارا ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رءوس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا

(وهنا دقيقة نافعة فى طلب الدين) وهو ان كفر النصارى اغلظ من كفر اليهود لان النصارى ينازعون فى الالهيات وفي النبوات واليهود لا ينازعون الا فى النبوات ولا شك في أن الاول اغلظ ثم ان النصارى مع

غلظ كفرهم لما لم يشتد حرصهم على طلب الدنيا بل كان في قلبهم شئ من الميل الى الآخرة شرفهم الله بقوله ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصاري وأما اليهود مع أن كفرهم أخف في جنب كفر النصاري فقد طردهم وخصهم الله بمزيد اللعن وما ذاك الا بسبب حرصهم على الدنيا وذلك ينبهك على صحة قوله صلى الله عليه وسلم (حب الدنيا رأس كل خطيئة)

﴿ فصل في بيان سبب قبول الاسلام الجزية من النصارى وتركهم على دينهم ﴾

ليس الغرض من قبول الاسلام الجزية من النصارى تركهم على دينهم بل المقصود منها حقن دم الكافر وامهاله مدة رجاء انه ربما وقف في هذه المدة على محاسن الاسلام وقوة ادلته فينتقل من الكفر الى الايمان ومع ذلك لايكفي دفع الجزية فقط بل لابد معه من الحاق الذل والصغار والسبب فيه ان طبع العاقل ينفر عن تحمل الذل والصغار فاذا أمهل مدة وهو يشاهد عز الاسلام ويسمع دلائل صحته ويشاهد الذل والصغار في الكفر فالظاهر انه يحمله ذلك على الانتقال الى الاسلام فهذا هو المقصود من شرع الجزية فاندفع قول بعض الاغبياء كيف يتركون علي دينهم بأخذ دينار واحد (هو عبارة عن الجزية) مع وصف كفرهم بانه بلغ حد النهاية في العظم بقوله تعالى في كتابه العزيز (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدًّا أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا) ولا تؤخذ الجزية الا من أهل الكتاب كما قال تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون الآية أما عبدة الاوثان وعبدة ما استحسنوا فلا يتركون على دينهم بأخذ الجزية ويجب قتالهم حتى يقولوا لا اله الا الله (وفي صحيح البخارى وغيره أمرت أن أقاتل الناس حتي يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم

الا بحق الاسلام وحسابهم على الله

والمجوس سبيلهم سبيل أهل الكتاب لقوله عليه الصلاة والسلام سنوا لهم سنة أهل الكتاب وايضا نقل عن اليهود والنصارى كما تقدم انهم أثبتوا لله ابناومن جوز ذلك في حق الاله فهو في الحقيقة قد انكر الاله وقد بين الله تعالى أيضا انهم بمنزلة المشركين في الشرك وان كانت طرق القول بالشرك مختلفة اذ لا فرق بين من يعبد الصنم وبين من يعبد المسيح وغيره لانه لا معنى للشرك الا أن يتخذ الانسان مع الله معبوداً فاذا حصل هذا المعني فقد حصل الشرك بل لو تأملنا لعلمنا ان كون عابد الوثن أخف من كفر النصارى لان عابد الوثن لا يقول ان هـذا الوثن خالق العالم وإله العالم بل يجري مجري الشيء الذي يتوسل به الى طاعة الله أما النصاري فانهم يثبتون الحلول والاتحاد وذلك كفر قبيح جداً فثبت انه لافرق بين هؤلاء الحلولية وبين سائر المشركين وانما خصهم بقبول الجزية منهم لانهم في الظاهر الصقوا أنفسهم بموسى وعيسى وادعوا أنهم يعملون بالتوراة والانجيل فلاجل تعظيم هذين الرسولين العظيمين وتعظيم كتابيهما وتعظيم اسلاف هؤلاء اليهود والنصارى بسبب انهم كانوا على الدين الحق حكم الله تعالى بقبول الجزية منهم والا في الحقيقة لافرق بينهم وبين المشركين

﴿ فصل في بيان الدين الاسلامى ﴾

هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم وجرى العمل عليه حينا من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع وانى مجمله فى هذا الفصل مقتديا بالكتاب المجيد في التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه وما سندى فيما أقول

الا الكتاب والسنة القويمة الصحيحة وهدى الراشدين

جاء الدين الاسلامي بتوحيد الله في ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين فاقام الأدلة على ان للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها وعلى انه لايشبهه شيء من خلقه وان لا نسبة بينه وبينهم الا انه موجدهم وانهم له واليه راجعون (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)

وما ورد من الفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا في شيء منها وان ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز في جسد أو روح أحد من العالمين وانما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الاعمال على سنة له في ذلك سنها في علمه الأزلى الذى لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه التغيير وحظر على كل ذي عقل أن يعترف لاحد بشيء من ذلك الا ببرهان ينتهي في مقدماته الى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التى لا تنقص عنه في الوضوح بل قد تعلوه كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معاً أو وجوب ان الكل أعظم من الجزء مثلا وقضى على هؤلاء كغيرهم بانهم لايملكون لانفسهم نفعاً ولا ضراً وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون وان ما يجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص وبتيسير خاص في موضع خاص لحكمة خاصة

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) والشكر عند العرب معروف انه تصريف النعمة فيما كان الانعام بها لاجله

دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوي مانصرفه في وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها واما ما تحير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه على أنه فوق مانعرف من القوى المسخرة لها وكان لابد من الخضوع له والرجوع اليه والاستعانة به فذلك انما يردّ الى الله وحده فلا يجوز أن تخشع الا له ولا ان تطمئن الا اليه وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه في الحياة الآخرة لايسوغ لها أن تلجأ الى أحد غير الله في قبول أعمالها من الطيبات ولا في غفران أفاعيلها من السيئات فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها في الصورة والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها في المعنى والحقيقة تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التي لاتنفك عن تلك العقيدة الباطلة ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التي كانت تلازم تلك الأوهام وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف في المعبودين وعليهم وارتفع شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث أصبح لايخضع لاحد الا لخالق السموات والارض وقاهر الناس أجمعين وأبيح لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال ابراهيم (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين) وكما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول (ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)

تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة وأطلقت ارادته من القيود التي

كانت تعقدها بارادة غيره سواء كانت ارادة بشرية ظن انها شعبة من الارادة الالهية أو انها هي كارادة الرؤساء والمسيطرين أو ارادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور والاحجار والاشجار والكواكب ونحوها وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء وللتكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الاسرار ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين أنهم واسطة النجاة وبأيديهم الاشقاء والاسعاد وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين صار الانسان بالتوحيد عبداً لله خاصة حراً من العبودية لكل ماسواه فكان له من الحق ما للحر على الحر لاعلىّ فى الحق ولا وضيع ولا سافل ولا رفيع ولا تفاوت بين الناس الا بتفاوت أعمالهم ولا تفاضل الا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم ولا يقربهم من الله الا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدي العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته .

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . وان ليس للانسان الا ما سعى) وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ماشاء كالأكل والشرب واللباس والزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضاراً بنفسه أو بمن يدخل في ولايته أو ماتعدي ضرره الى غيره وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يعد لها

عقبة تتعثر بها الهم الا حقا محترما تصطدم به

أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الامم صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم (نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة) على صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بان الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والاعلام اعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون صرح في وصف أهل الحق بانهم (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) فوصفهم بتمييز مايقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا مالم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت انظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الابناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على ان السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسمياً لعقول على عقول ولا لاذهان على أذهان وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان بل للاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وأبائه وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل

الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)

وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شئ لن تضيق عن دائب عاب أرباب الاديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون) فاطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده وخلصه من كل تقليد كان استعبده ورده الى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه امران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت له انسانيته واستعد لان يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية في أوروبا انما قامت على هذين الاصلين فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر الا بعد ان عرف العدد الكثير أنفسهم وان لهم حقا فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان الا في الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح وقرر ذلك الحكيم انه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله فى تلك الازمان

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الاديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لانفسهم وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم

لنيل تلك الرتب المقدسة نفرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعاً من تلك الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى ما ترمي اليه ثم غالوا في ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم الا قليلا ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء في الشرائع والنبوات ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبدا بالاصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون) (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآية الله والله لا يهدى القوم الظالمين)

أما الاماني ففسرت بالقرآآت والتلاوات أي لا يعلمون منه الا أن يتلوه واذا ظنوا انهم على شيء مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه دينا واذا عن لاحدهم أن يبين شيئا من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته الى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة واعتسف في التأويل وقال هذا من عند الله (فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) أما الذين قال انهم لم يحملوا التوراة وهي بين أيديهم بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا منها الا الالفاظ ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها وطمست عن أعينهم اعلام الهداية التي نصبت بانزالها فحق عليهم ذلك المثل الذي أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به مثل الحمار الذي يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها الا العناء والتعب وقصم الظهر وانبهار النفس وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال فما كان سببا في اسعادهم وهو التنزيل والشريعة أصبح سببا في شقائهم بالجهل

والغباوة وبهذا التقريع ونحوه وبالدعوة العامة الى الفهم وتمحيص الالباب للتفقه واليقين مما هو منتشر في القرآن العزيز فرض الاسلام على كل ذي دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله في كتبه وما قرر من شرعه وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد مالا بد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور الاعظم من المتدينين لاتختص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزيته وقت من الاوقات

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين وكانوا الا قليلا فى جانب عن اليقين يتنابذون ويتلاعنون ويزعمون في ذلك انهم بحبل الله مستمسكون فأنكر الاسلام ذلك كله وصرح تصريحا لايحتمل الريبة بان دين الله فى جميع الازمان وعلى السن جميع الانبياء واحد قال الله (ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم اليه) (قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون) وكثير من ذلك يطول ايراده فى هذا المختصر والآيات الكريمة التى تعيب على أهل الدين مانزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته

نص الكتاب على أن دين الله فى جميع الازمان هو افراده بالربوبية

والاستسلام له وحده بالعبودية وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى العمل به وان هذا المعني من الدين هو الاصل الذي يرجع اليه عند هبوب ريح التخالف وهو الميزان الذي توزن به الاقوال عند التناصف وان اللجاج والمراء في الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته ومتي روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية في الانعام على البشر به ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها وسار الكافة الى مراشدهم اخوانا بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين

أما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الاديان الصحيحة سابقها مع لاحقها واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها فمصدره رحمة الله ورأفته في ايتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للامة والملاءمة وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدريج في تربية الاشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئا الى راشد في عقله كامل في نشأته يمزق الحجب بفكره ويواصل أسرار الكون بنظره كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه في تربية الامم فلم يكن من شأن الانسان في جملته ونوعه أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه بل سبق القضاء بان يكون شأن جملته في النمو قائما على ما قررته الفطرة الالهية في شأن أفراده وهذا من البديهيات التي لا يصح الاختلاف فيها وان اختلف أهل النظر في بيان ماتفرع منه في علوم وضعت للبحث في الاجتماع البشري خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة في طور أشبه

بطور الطفولية للناشئ الحديث العهد بالوجود لا يألف منه الا ما وقع تحت حسه ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه وأن يتناول بذهنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه في هم شاغل عما يلقي اليه فيما يصله بغيره اللهم الا يدا تصل الى فمه بطعام أو تسنده في قعود أو قيام فلم يكن من حكمة تلك الاديان أن تخاطب الناس بما يلطف في الوجدان أو يرقي اليه بسلم البرهان بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالاقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في سذاجة السن لا يأتيه الا من قبل ما يحسه بسمعه أو ببصره فاخذتهم بالاوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالبتهم بالطاعة وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة كلفتهم بمعقول المعنى جلي الغاية وان لم يفهموا معناه ولم تصل مداركهم الى مرماه وجاءتهم من الايات بما تطرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الاقوام وسقطت وارتفعت وانحطت وجربت وكسبت وتخالفت واتفقت وذاقت من الايام آلاما وتقلبت في السعادة والشقاء أياما وأياما ووجدت الانفس بنفث الحوادث ولقن الكوارث شعورا أدق من الحس وأدخل في الوجدان لا يرتفع في الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان فجاء دين (أي دين المسيح) يخاطب العواطف ويناجي المراحم ويستعطف الاهواء ويحادث خطرات القلوب فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ويوجه وجوههم نحو الملكوت الاعلى ويقتضي من صاحب الحق أن

لا يطالب به ولو بحق ويغلق أبواب السماء في وجوه الاغنياء وما نحو نحو ذلك مما هو معروف وسن للناس سننا في عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه وما دعاهم اليه فلاقي من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها وداوى من أمراضها ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله ووقر في الظنون ان اتباع وصاياه ضرب من المحال فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك في السلطان ومزاحمة أهل الترف في جمع الاموال وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل وأضافوا عليه ماشاء الهوى من الاباطيل هذا كان شأنهم في السجايا والأعمال نسوا طهارته وباعوا نزاهته أما في العقائد فتفرقوا شيعاً وأحدثوا بدعا ولم يستمسكوا من أصوله الا بما ظنوه من أشد أركانها وتوهموه من أقوي دعائمها وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفي غيره من دقائق الاكوان والحظر على الافكار أن تنفذ الى شيء من سرائر الخلقة فصرحوا بان لا وفاق بين الدين والعقل وان الدين من أشد أعداء العلم ولم يكف الذاهب الى ذلك أن يأخذ به نفسه بل جد في حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة وقضى الغلو في ذلك بالانفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانساني وهي نزعة الحرب بين أهل الدين للالزام ببعض قضايا الدين فتقوض الاصل وتخرمت العلائق بين الاهل وحلت القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب محل السلام وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام

كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالانسان أشده واعدته الحوادث الماضية الى رشده فجاء الاسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشركه

مع العواطف و لاحساس في ارشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والاخروية وبين للناس مااختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه وبرهن على أن دين الله في جميع الاجيال واحد ومشيئته في اصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة وان رسم العبادة على الاشباح انما هو لتجديد الذكرى في الارواح وان الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه باصلاح سره ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن وعد كلا الامرين طهراً مطلوبا وجعل روح العبادة الاخلاص وان مافرض من الاعمال انما هو لما أوجب من التطبع بصالح الملكات (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) (ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين) ورفع الغني الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر بل ربما فضله عليه وعامل الانسان في مواعظه معاملة الناصح الهادي للرجل الرشيد فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة وصرح بما لا يقبل التأويل ان في ذلك رضا الله وشكر نعمته وأن الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول الى خير العقبى الا بالسعي في صلاح الدنيا

التفت الى أهل العناد فقال لهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق الى مازعزعوا من أصول اليقين ونص على ان التفرق بغي وخروج عن سبيل الحق المبين ولم يقف في ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان بل شرع شريعة الوفاق وقررها في العمل فاباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب وسوغ مؤاكلتهم وأوصي أن تكون مجادلتهم بالتي هي أحسن ومن المعلوم ان المحاسنة هي رسول المحبة وعقد الالفة والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين والارتباط

بينهما بروابط الائتلاف ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل في ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم ونص على ان لهم مالنا وعليهم ماعلينا ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيداً يقدمونه من مالهم ونهى بعد ذلك عن كل اكراه فى الدين وطيب قلوب المؤمنين فى قوله (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) فعليهم الدعوة الى الخير بالتي هي أحسن وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة فى الحمل على الاسلام فان نوره جدير أن يخترق القلوب وليست الآية فى الامر بالمعروف فيما بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بعد القيام به ولو أريد ذلك لكان التعبير (على كل واحد منكم بنفسه) لا (عليكم أنفسكم) كما هو ظاهر لكل عربي كل ذلك ليرشد الناس الى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ولكن ليهديهم الى الخير فى جميع نواحيه

رفع الاسلام كل امتياز بين الاجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله في الخلقة وشرف اندراجها في النوع الانسانى بالجنس والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها على خلاف مازعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم فأماتوا بذلك الأرواح في معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحا

هذه عبادات الاسلام على مافى الكتاب وصحيح السنة تتفق على مايليق بجلال الله وسمو وجوده عن الاشباه وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة فالصلاة ركوع وسجود وحركة وسكون ودعاء وتضرع وتسبيح وتعظيم

وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهي الذي يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول فتخشع له القلوب وتستخذى له النفوس وليس فيها شئ يعلو على متناول العقل الا نحو تحديد عدد الركعات أو رمي الجمرات على انه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالاصول التي وضعها الله للعقل في الفهم والتفكير أما الصوم فحرمان يعظم به أمر الله فى النفس وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ومكانة الاحسان الالهى في التفضل بها (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) أما أعمال الحج فتذكير الانسان بأوليات حاجاته وتعهد له بتمثيل المساواة بين افراده ولو فى العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير والصعلوك والامير ويظهر الجميع في معرض واحد عراة الابدان متجردين عن آثار الصنعة وجدت بينهم العبودية لله رب العالمين كل ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعي والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو أبو المؤمنين وهو الذى سماهم المسلمين واستقرار يقينهم على أن لاشئ من تلك البقايا الشريفة يضرا وينفع وشعار هذا الاذعان الكريم فى كل عمل (الله أكبر) أين هذا كله مما نجد فى عبادات أقوام آخرين يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص العمل للتنزيه والتوحيد

كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالم) والكون الصغير (الانسان) فقرر ان آيات الله الكبرى فى صنع العالم انما يجرى أمرها على السنن الالهية التى قدرها الله في علمه الازلى لايغيرها شئ من الطوارئ الجزئية غير أنه لايجوز أن يغفل شأن الله فيها بل ينبغي أن يحي ذكره عند رؤيتها فقد جاء على لسان النبى صلى

الله عليه وسلم (ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله) وفيه التصريح بان جميع آيات الكون تجري على نظام واحد لا يقضي فيه الا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها ثم أماط اللثام عن حال الانسان فى النعم التى يتمتع بها الاشخاص أو الأمم والمصائب التى يرزءون بها ففصل بين الامرين فصلا لامجال معه للخلط بينهما فاما النعم التي يمتع الله بها بعض الاشخاص فى هذه الحياة والرزايا التى يرزأ بها في نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد قد لا يكون كاسبها أو جالبها ماعليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان وكثيرا ماأمهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع الحياة الدنيا انظارا لهم حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الاخري وكثيرا ماامتحن الله الصالحين من عباده واثنى عليهم في الاستسلام لحكمه وهم الذين اذا اصابتهم مصيبة عبروا عن اخلاصهم في التسليم بقولهم (انا لله وانا اليه راجعون) فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا فى تلك النعم الخاصة اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة كارتباط الفقر بالاسراف والذل بالجبن وضياع السلطات بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الاغلب والمكانة عند الناس بالسعي في مصالحهم على الا كثر ومايشبه ذلك مماهو مبين فى علم آخر

أما شأن الامم فليس على ذلك فان الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الاهواء وتحديد مطامح الشهوات والدخول الى كل أمر من بابه وطلب كل رغيبة من أسبابها وحفظ

الامانة واستثمار الاخوة والتعاون على البر والتناصح في الخير والشر وغير ذلك من أصول الفضائل ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة (من يرد ثواب الدنيا نؤته منها) وان يسلب الله عنها نعمة مادام هذا الروح فيها يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحه الى مقره واستبدل الله عزة القوم بالذل وكثرهم بالقل ونعيمهم بالشقاء وراحتهم بالعناء وسلط عليهم الظالمين والعادلين فاخذهم بهم وهم في غفلة ساهون (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ثم لاينفعهم الانين ولا يجديهم البكاء ولا يفيدهم ما بقي من صور الاعمال ولايستجاب منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل بهم الا ان يلجئوا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وما أجل ماقاله العباس بن عبدالمطلب فى استسقائه (اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ولم يرفع الا بتوبة) على هذه السنن جرى سلف الامة فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ويأخذ نفسه بما يتبعها من الاعمال الجليلة كان غيره يظن انه يزلزل الارض بدعائه ويشق الفلك ببكائه وهو ولع باهوائه ماض فى غلوائه وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئاً

حث القرآن على التعليم وارشاد العامة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) ثم فرض ذلك فى قوله (ولتكن منكم أمة يدعون

الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فاما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ولله ما في السموات وما في الارض والى الله ترجع الامور) ثم بعد هذا الوعيد الذي يزعج المفرطين وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين أبرز حال الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر في أجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) فقدم ذكر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على الايمان في هذه الاية مع ان الايمان هو الاصل الذى تقوم عليه أعمال البر والدوحة التى تتفرع عنها أفنان الخير تشريفا لتلك الفريضة واعلاء لمنزلتها بين الفرائض بل تنبيها على انها حفاظ الايمان وملاك أمره ثم شدد بالانكار على قوم أغفلوها وأهل دين أهملوها فقال (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسي بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) فقذف عليهم اللعنة وهي أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه

فرض الاسلام للفقراء فى أموال الاغنياء حقا معلوما يفيض به الاخرون على الاولين سدا لحاجة المعدم وتفريجا لكربة الغارم وتحريرا لرقاب المستعبدين وتيسيرا لأبناء السبيل ولم يحث على شئ حثه على الانفاق من الاموال في سبيل الخير وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ودليل الاهتداء الي الصراط

المستقيم فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ومحص صدورهم من الاحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس أجمعين وأي دواء لامراض الاجتماع أنجع من هذا (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

أغلق الاسلام باب الشر وسد ينبوعي فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريما باتاً لا هوادة فيه

لم يدع الاسلام بعد ما قررنا أصلا من أصول الفضائل الا أتى عليه ولا أماً من أمهات الصالحات الا أحياها ولا قاعدة من قواعد النظام الا قررها فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر واستقلال العقل في النظر وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع وما فيه إنهاض العزائم الى العمل وسوقها في سبل السعي ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزا لا ينفد وذخيرة لا تفنى هل بعد الرشد وصاية وبعد اكتمال العقل ولاية كلا قد تبين الرشد من الغي ولم يبق الا اتباع الهدى والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها انه يحدث عن الله بشرع أو يصدع عن وحيه بأمر هكذا يصدق نبأ الغيب (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما)

﴿ فصل في مزايا الدين الاسلامي ﴾

من مزايا الدين الاسلامي انه أعدل الشرائع لان التشديد في دين موسى عليه السلام كان غالبا جدا والتساهل في دين عيسى عليه السلام كان غالبا جدا والوسط العدل شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قيل ان شرع موسى عليه السلام في القتل العمد استيفاء القصاص لا محالة وفي شرع عيسي عليه السلام العفو أما في شرعنا فان شاء استوفى القصاص على سبيل المماثلة وان شاء استوفي الدية وان شاء عفا وأيضا شرع موسي يقتضى الاحتراز العظيم عن المرأة حال حيضها وشرع عيسي يقتضي حل وطء الحائض والعدل ما حكم به شرعنا وهو انه يحرم وطؤها احترازا عن التلطخ بتلك الدماء الخبيثة مع معاشرتها وشريعتنا أمرت بالختان والحكمة فيه ان رأس ذلك العضو جسم شديد الحس ولاجله عظم الالتذاذ عند الوقاع فلو بقيت تلك الجلدة على ذلك العضو بقي ذلك العضو على كمال القوة وشدة الاحساس فيعظم الالتذاذ أما اذا قطعت تلك الجلدة بقي ذلك العضو عاريا فيلقى الثياب وسائر الأجسام فيتصلب ويضعف حسه ويقل شعوره فيقل الالتذاذ بالوقاع فتقل الرغبة فيه فكأن الشريعة أمرت بالختان سعياً في تقليل تلك اللذة حتى يصير ميل الانسان الى قضاء شهوة الجماع الى حد الاعتدال وأن لا تصير الرغبة فيه غالبة على الطبع (وقال الله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا) يعني متباعدين عن طرفي الافراط والتفريط في كل الامور

ومنها أنه سهل ليس فيه عسر ولا تضييق فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما أوتيتم من كتاب الله فالعمل به لاعذر لاحد في تركه فان لم يكن في كتاب الله فسنة مني ماضية فان لم

تكن سنة منى فما قال أصحابى ان أصحابى بمنزلة النجوم فى السماء فأيما أخذتم به اهتديتم واختلاف أصحابى لكم رحمة وفى هذا الحديث فوائد اخباره صلى الله عليه وسلم باختلاف المذاهب بعده فى الفروع وذلك من معجزاته لانه من الاخبار بالمغيبات ورضاه بذلك وتقريره عليه ومدحه حيث جعله رحمة والتخيير للمكلف فى الاخذ بأيها شاء من غير تعيين لاحد ويستنبط منه أن كل المجتهدين على هدى وكلهم على حق فلا لوم على أحد منهم ولا ينسب الى أحد منهم تخطئة لقوله فأيما أخذتم به اهتديتم فالائمة الاربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وسائر أئمة المسلمين على هدي من الله تعالى ولا التفات الى من تكلم فيهم بما هم بريئون منه فقد أوتوا من العلوم اللدنية والمواهب الالهية والاستنباطات الدقيقة والمعارف الغزيرة والدين والورع والعبادة والزهادة والجلالة مالا يسامي فاختلافهم فى الفروع نعمة كبيرة ورحمة وفضيلة واضحة وله سر لطيف أدركه العلماء العاملون وعمى عنه الجاهلون حتى قال بعضهم جاء صلى الله عليه وسلم بشرع واحد فمن أين مذاهب أربعة وايضاحه أنه تعالى قال يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وما جعل عليكم فى الدين من حرج ولذلك قال صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السمحة فمن سماحتها رفع الاصار التى كانت على من قبلنا عنا حتى ان كتابنا ليقرأ على سبعة أحرف بل عشرة وكانت كتبهم لاتقرأ الا على حرف واحد وحتى وقع اختلاف أئمتنا في الفروع فكانت المذاهب على اختلافها كشرائع متعددة حتى لايضيق الامر عليهم بالتزام شيء واحد وحتى يثاب كل عامل بمذهب صحيح ويمدح عليه وحتي انمن رأى له فسحة في غير مذهبه جاز له بشرط الانتقال اليه والعمل به وكل هذه نعم عظيمة

الوقم واسعة الرفق لاسيما وهي مؤذنة بغاية رفعته صلى الله عليه وسلم على بقية الانبياء بالتوسعة لاجله على أمته بتخييرهم فى الامر الواحد بالعمل بكل ما فيه سهولة لهم بتصويب كل مجتهد منهم ومدحه وان فرض خطؤه وقد قرر السبكى أن جميع الشرائع السابقة شرائع له صلى الله عليه وسلم والانبياء كالنواب عنه لانه نبي وآدم بين الروح والجسد فهو اذ ذاك نبي الانبياء وهو معني خبر (بعثت الى الناس كافة) فهو مبعوث الى الخلق كلهم من لدن آدم الى قيام الساعة اه فاذا تقرر أن شرائعهم شرائع له زيادة في تعظيمه فالشرائع التى استنبطها أصحابه وتابعوهم باحسان من أقواله وأفعاله على تنوعها شرائع متعددة له من باب أولى خصوصاً وقد أخبر بوقوعها ووعد بالهداية على الاخذ بها ورضي بها ومدحنا عليها وجعل ذلك رحمة أي رحمة ومنة أى منة اه باختصار قال المأمون للمرتد الخراسانى الذى أسلم على يديه وحمله معه الى العراق فارتد عن الاسلام أخبرني ماالذى أوحشك مما كنت به آنساً من ديننا فوالله لان استحييك بحق أحب الى من أن أقتلك بحق وقد صرت مسلما بعد ان كنت كافراً ثم عدت كافراً بعد ان صرت مسلما وان وجدت عندنا دواء لدائك تداويت به وان أخطأك الشفاء ونبا عنك الدواء كنت قد أبليت العذر فى نفسك ولم تقصر فى الاجتهاد لها فان قتلناك ففي الشريعة وترجع أنت فى نفسك الى الاستبصار واليقين ولم نفرط في الدخول من باب الحزم قال المرتد أوحشني منكم ما رأيت من الاختلاف فى دينكم قال المأمون لنا اختلافان أحدها كاختلافنا فى الاذان وتكبير الجنائز وصلاة العيدين والتشهد والتسليم من الصلاة ووجوه القراآت واختلاف وجوه الفتيا وما أشبه ذلك وهذا ليس باختلاف وانما هو تخيير وتوسعة وتخفيف

من السنة فمن اذن مثنى وأقام مثنى لم يأثم ومن ربع لم يأثم والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا وتأويل الحديث عن نبينا مع اجتماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر فان كان انما أوحشك هذا فينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والانجيل متفقاً على تأويله كما يكون متفقاً على تنزيله ولا يكون بين اليهود والنصارى اختلاف فى شئ من التأويلات ولو شاء الله أن ينزل كتبه مفسرة ويجعل كلام أنبيائه ورسله لايختلف في تأويله لفعل ولكنا لم نجد شيئاً من أمور الدين والدنيا وقع الينا على الكفاية الا مع طول البحث والتحصيل والنظر ولو كان الامر كذلك لسقطت البلوى والمحن وذهب التفاضل والتباين وماعرف الحازم من العاجز ولا الجاهل من العالم قال المرتد أشهد أن لااله الا الله وحده لاشريك له وان المسيح عبد الله وأن محمداً صادق وانك أمير المؤمنين

ومنها انه مصون عن تلاعب الايدي والافكار كما في غيره فلا تخرج أحكامه عن الكتاب والسنة والقياس والاجماع وقد قال بعض الاكابر كالامام الرافعي رحمه الله من لطف الله تعالى على هذه الامة وماخصها به من الكمالات ان علماءها لايسكتون على غلط غيرهم ولا بيان حالهم وان كان المعترض عليه والداً فضلا عن غيره الى ان قال وبهذا يسهل عليك مايقع بين علماء هذه الامة من الاعتراضات والتغليطات والتجريحات كفلان فاسق وفلان مبتدع وفلان كذاب وقد وقع لامام الحرمين مع والده الشيخ ابن محمد الجويني أى الذى قال الائمة في ترجمته لو جاز أن يبعث الله نبيا فى زمنه لكان أبو محمد الجوينى هو ذلك النبي انه اذا نقل عن والده مسألة لا يرتضيها أو ان المذهب لايقتضيها أو انها موهمة أدنى ايهام أو مشكلة أدنى اشكال واظلام

يقول عقب ذلك وهذه ذلة أو فلتة أو غلطة من الشيخ وشدد النكير عليه بنحو ذلك من العبارات لا لاستهتاره فى حق والده حاشاه الله عن ذلك وانما هو لمجرد تنفير الناس عن تلك المقالة عملا بما أخذه الله على الذين أوتو الكتاب أن يتركو أدنى دخل أو ابهام الا بينوه وأحلوه ذروة الصواب وبذلك دامت هذه الشريعة على غاية الحفظ ونهاية الاتقان اه وفي الحادي والثلاثين من عدد جريدة العالم الاسلامي المؤرخ لسبعة من شعبان سنة ١٣٢٣ هـ اطلعت على مقالة لاحد الاجانب من أمريكا يمدح بها الشريعة الاسلامية فى وضعها وضبطها من ضمنها هي على ما ظهر لى بعد دراسة طويلة وضعت على أساسات امتن واقوي من غيرها ذلك ان الدين المسيحى نزل قبل الاسلام وانتشر انتشارا هائلا ولكن لم يلبث الا قليلا حتى ترك خلفه جيوشاً جرارة من العالم اهملته وخالفته وهو زمن الجاهلية ولكن الامر على طرفي نقيض فى الدين الاسلامى فانه ما عم ذكره حتى قبلته النفوس بكل ارتياح ومن يدرك ان الذي قبلوه هم أشد الناس عارضة وفهما وكان لهم أوسع ميدان فى عالم الخيال الشعرى والمعانى العالية يحكم بلا محالة ان هذا الدين دين قيم يجب على كل انسان أن يبحث في كنهه ومنها ان الاسلام لايعرف الا الها واحداً ببراهين لايعرفها اتباع المسيح ويعترف بنبوة موسى وعيسي ويعظمها ويجلهما ويحلهما من العزة اسمي مكان كما انه يقص على المتأخرين حكايات المتقدمين بنص صريح صحيح ثم يعاقب على الرذيلة عقابا لا يلبث مرتكبها أن يحاربها بنفسه ويحل محلها الفضيلة فهذا هو دين الطهر دين المروءة دين الشهامة لانه انما يأمر المتدين به أن لايعتدى على الغير قبل ان يعتدى عليه ويحضه على اقتناء العلم ولو كان مغرسه في أقصى المعمورة وغير ذلك من اطعام المسكين وابن

السبيل والرأفة باليتامى واجتناب الخيانة والكذب ومنها ان لجنـة الاديان ببلاد اليابان أخذت تبحث فى الدين الاسلامي بحثا دقيقا وعلى الاخص بعد ما ألف أحد المسلمين الصينيين بلغة اليابان كتابه الاخير الذي سماه بلغة اليابان (الديانة الوحيده) وشرح فيـه فضائل الاسـلام وحض القوم على دراسة هذا الدين والتمسك به لانه يضمن السـعادتين الدنيوية والاخروية بل ويصور الانسان في شهامته أسدا وفى أخلاقـه ملكا وانى لا أشك فى أن اليابانيين مع ما أتوه من حب التدقيق في كل مبنى ومغزى سيصلون بقوة عوارضهم الى حل يرضينا فى أسرار هذا الدين الذى عاديناه بلا سبب بل بكل حدة وطيش مع أن أغلب ساستنا يجهلونه ولا يستندون فى سبه واتهامه بالمنكرات الا على أحاديث أولئك الذين ذهبوا للشرق ولم يقابلوا الا الحوذى والحمار والقواد وكل بعيد عن ادراك هذا الدين الذى هو براء من أمثال هؤلاء ومنها كما انى لا أرتاب لحظة واحـدة فى أن المسلمين مقصرون فى المدافعة عن دينهم وان هـذا الجمود الذى اتصفوا به الآن لم يكن من أوامر الدين الاسلامي أصلا بل ناشئ من ضغط الحكام واستبداد القائمين بازمة الامور اه باختصار (والفضل ماشهدت به الاعداء)

﴿ الباب الخامس فى رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴾

ليس من غرضنا فيهذا الباب أن نلم بتاريخ الامم عامة وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية لنبين كيف كانت حاجة سكان الارض ماسـة الى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهـم الغاشم وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء الى من دونهـم من رعاياهم الضعفاء والى نار تنقض من سماء الحق على أدم الانفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من

الاباطيل القاتلة للعقول وصيحة فصحى تزعج الغافلين وترجع بألباب الذاهلين وتنبه المرءوسين الى انهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين والهداة الضالين والقادة الغارين وبالجملة تثوب بهم الى رشد يقيم الانسان على الطريق التي سنها الله له (انا هديناه السبيل) ليبلغ بسلوكها كماله ويصل على نهجها الى ما أعد في الدارين له ولكنا نستمير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر امعان وانصاف

كانت دولتا العالم دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب في تنازع وتجالد مستمر دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة وأموال هالكة وظلم من الاحن حالكة ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والاسراف والفخفخة والتفنن في الملاذ بالغة حد مالا يوصف في قصور السلاطين والامراء والقواد ورؤساء الاديان من كل أمة وكان شره هذه الطبقة من الامم لايقف عند حد فزادوا في الضرائب وبالغوا في فرض الاتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم وأتوا على ما في أيديها من ثمرات أعمالها وانحصر سلطان القوى في اختطاف ما بيد الضعيف وفكر العاقل في الاحتيال لسلب الغافل وتبع ذلك ان استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الامن على الارواح والاموال

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم فعاد هؤلاء كاشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب ويظنها الناظر اليها من ذوي الالباب ففقد بذلك الاستقلال الشخصي وظن أفراد الرعايا انهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم كما هو الشأن في العجماوات مع من يقتنيها . ضلت السادات في عقائدها وأهوائها وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ولكن بقي لها من قوة

الفكر أرداً بقاياها فلم يفارقها الحذر من أن النور الالهى الذى يخالط الفطر الانسانيـة قد يظهر فيفتق الغلف التى أحاطت بالقلوب ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول فتهتدى العامة الى السبيل ويثور الجم الغفير على العـدد القليل ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحبا من الاوهام ويهيئوا كسفا من الاباطيل والخرافات ليقذفوا بها في عقول العامة فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ويختنق بذلك نور الفطرة ويتم لهم مايريدون من المغلوبـين لهم وصرح الدين بلسان رؤسائه انه عدو العقل وعدو كل ماثمره النظر الا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لاتنضب ومدد لاينفد هذه حالة الاقوام كانت في معارفهم وذلك كان شأنهم فى معايشهم عبيد اذلاء حيارى في جهالة عمياء اللهم الا بعض شوارد من بقايا الحكمـة الماضية والشرائع السابقة آوت الى بعض الاذهان ومعها مقت الحاضر ونقص العلم بالغابر ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع فكان يري الدنس في مظنة الطهارة والشره حيث تنتظر القناعة والدعارة حيث ترجي السلامة والسلام مع قصور النظر عن معرفـة السبب والانصراف لاول وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين فاستولى الاضطراب على المدارك وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشريعة معا وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين في شعوب متعددة وكان ذلك ويلا عليها فوق مارزئت به من سائر الخطوب

وكانت الامة العربية قبائل متخالفة في النزعات خاضعة للشهوات فخر كل قبيـلة في قتال أختها وسـفك دماء أبطالها وسبي نسائها وسلب أموالها تسوقها المطامع الى المغانم ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات وقـد بلغ

العرب من سخافة العقل صنعوا معه أصنامهم من الحلوي ثم عبدوها فلما جاعوا أكلوها وبلغوا من تضعضع الاخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصا من عار حياتهن أو تنصلا من نفقات معيشتهن وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة وبالجملة فكانت روابط النظام الاجتماعي قد تراخت عقدها في كل أمة وانفصمت عراها عند كل طائفة

أفلم يكن من رحمة الله باولئك الاقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحي اليه رسالته ويمنحه عنايته ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم التي أظلت رءوس جميع الامم ثم كان ذلك ولله الامر من قبل ومن بعد

في الليلة الثانية عشر من ربيع الاول على المشهور عام الفيل ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام (ولد سيدنا محمد) بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي بمكة ولد يتيما توفي والده قبل أن يولد ولم يترك له من المال الا خمس جمال وبعض نعاج وجارية ويروى أقل من ذلك وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبد المطلب وبعد سنتين من كفالته توفي جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهما كريما غير انه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله وكان صلى الله عليه وسلم من بني عمه وصبية قومه كاحدهم على ما به من يتم فقد فيه الابوين معا وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ولم يقم على تربيته مهذب ولم يعن بتثقيفه مؤدب بين أتراب من نبت الجاهلية وعشراء من حلفاء الوثنية وأولياء من عبدة الاوهام وأقرباء من حفدة الاصنام غير انه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا وفضيلة وأدبا حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالامين أدب الهي لم تجر العادة بان تزين به نفوس الايتام من الفقراء خصوصا

مع فقر القوام فاكتهل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصون رفيعا والناس منحطون موحدا وهم وثنيون سلما وهم شاغبون صحيح الاعتقاد وهم واهمون مطبوعا على الخير وهم به جاهلون وعن سبيله عادلون

من السنن المعروفة ان يتيما فقيرا أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لا سيما ان كان من ذوي قرابته وأهل عصبته ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه ولا عضد اذا عزم يؤيده فلو جرى الامر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم الى أن يبلغ مبلغ الرجال ويكون للفكر والنظر مجال فيرجع الى مخالفتهم اذا قام له الدليل على خلاف ضلالتهم كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ولكن الامر لم يجر على سنته بل بغضت له الوثنية من مبدأ عمره فعاجلته طهارة العقيدة كما بادره حسن الخليقة وما جاء في الكتاب من قوله (ووجدك ضالا فهدى) لا يفهم منه انه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم حاش لله ان ذلك لهو الافك المبين وانما هى الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص وطلب السبيل الى ما هدوا اليه من انقاذ الهالكين وارشاد الضالين وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته

وجد شيئا من المال يسد حاجته (وقد كان له في الاستزادة منه مايرفه معيشته) بما عمل لخديجة رضى الله عنها في تجارتها وبما اختارته بعد ذلك زوجاً لها وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه لكنه لم ترقه الدنيا ولم تغره زخارفها ولم يسلك ما كان يسلكه مثله فى

الوصول الى ما ترغبه الانفس من نعيمها بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة وغا فيه حب الانفراد والانقطاع الى التفكر والمراقبة والتحنث بمناجاة الله تعالى والتوسل اليه في طلب المخرج من همه الاعظم في تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذي تولاه الى أن انفتق له الحجاب عن علم كان يحثه اليه الالهام الالهي وتجلى عليه النور القدسي وهبط عليه الوحي من المقام العلي في تفصيل ليس هذا موضعه

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه وكانت نفوس قومه في النصر افتام من طلب مناصب السلطان وفي قناعة بما وجدوه من شرف النسبة الى المكان دل عليها ما قال جده عبد المطلب عند زحف ابرهة الحبشي على ديارهم بجله الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم الاعلم وبيتهم الحرام ومنتجع حجيجهم ومستوى العلية من آلهتهم ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الابل فيها لعبد المطلب مائتا بعير وخرج عبد المطلب في بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته فقال هي ان ترد الى مائتي بعير أصبتها لي فلامه الملك على الطلب الحقير وقت الخطب الخطير فأجابه أنا رب الابل أما البيت فله رب يحميه هذا غاية ماينتهي اليه الاستسلام وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قريش فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم في حاله من الفقر ومقامه في الوسط من طبقات أهله حتى يتجمع ملكا أو يطلب سلطانا لا مال لا جاه لا جند لا أعوان لا سليقة في الشعر لا براعة في الكتاب لاشهرة في الخطاب لاشيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة أو يرقى به الى مقام ما بين الخاصة ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس ما الذي أعلى رأسه على الرءوس ما الذي سما بهمته

على الهمم حتى انتدب نفسه لارشاد الامم وكفالته لهم كشف الغمم بل واحياء الرمم ماكان ذلك الا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم الى مقوم لما زاغ من عقائدهم ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعاداتهم ما كان ذلك الا أن وجد ان ريح العناية الالهية ينصره فى عمله ويمده في الانتهاء الى أمله قبل بلوغ أجله ماهو الا الوحي الالهى يسعى نوره بين يديه يضئ له السبيل ويكفيه مؤنة الدليل ماهو الا الوعد السماوى قام لديه مقام القائد والجندى أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة الى التوحيد والتصديق بالعلى المجيد والكل مابين وثنية متفرقة ودهرية وزندقة نادى فى اوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الاقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم وفي الثاوية بافراد اله واحد بالتصرف في الاكوان ورد كل شئ فى الوجود اليه اهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم الى ماوراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذى قامت به صاح بذوى الزعامة ليهبطوا الى مصاف العامة في الاستكانة الى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والارض والقابض على أرواحهم فى هيا كل أجسادهم ، تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الاعلى فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحي ان نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المعتقدين فيهم وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لانفسهم من المكانات الربانية الى أدنى سلم من العبودية والاشتراك مع كل ذى نفس انسانية فى الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق فى النسبة اليه لايتفاوتون الا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة وخز بوعظه عبيد العادات واسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما تعبدوا له ويحلوا اغلالهم التى أخذت بايديهم عن العمل وقطعتهم

دون الامل . مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ما أودعته من الشرائع الالهية فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم وشدد النكير على المحرفين لها الصارفين لألفاظها الى غير ما قصد من وحيها اتباعا لشهواتهم ودعاهم الى فهمها والتحقق بسر علمها حتى يكونوا على نور من ربهم ولفت كل انسان الى ما أودع فيه من المواهب الالهية ودعا الناس أجمعين ذكورا واناثا عامة وخاصة سوقة وسادات الى عرفان أنفسهم وانهم من نوع خصه الله بالعقل وميزه بالفكر وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره وان الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الاكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد الا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة وأقدرهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد الا من خصهم الله بوحيه وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع والحاجة الى أولئك المصطفين انما هو في معرفة الصفات التي أذن الله ان تعلم منه وليست في الاعتقاد بوجوده وقرر ان لا سلطان لاحد من البشر على آخر منه الا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ما سخرت له بمقتضى الفطرة . دعا الانسان الى معرفة انه جسم وروح وانه بذلك من عالمين متخالفين وان كانا ممتزجين وانه مطالب بخدمتها جميعا وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الالهية من الحق . دعا الناس كافة الى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الاخرى وبين لهم ان خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله في العبادة والاخلاص للعباد في العدل والنصيحة والارشاد

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول ولا قوة له الا بربه كل هذا

كان منه والناس أحباءما ألفوا وان كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة اعداء ما جهلوا وان كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم وعبيد شهواتهم لا يفقهون دعوته ولا يعقلون رسالته عقدت اهداب بصائر العامة منهم باهواء الخاصة وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله لا يرون فيه مايرفعه الى نصيحتهم والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ويناضلهم بالدليل ويأخذهم بالنصيحة ويزعجهم بالزجر وينبههم للعبر ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة كأنما هو سلطان قاهر في حكمه عادل في أمره ونهيه أو أب حكيم في تربية أبنائه شديد الحرص على مصالحهم رءوف بهم في شدته رحيم في سلطته . ماهذه القوة في ذلك الضعف ماهذا السلطان في مظنة العجز ماهذا العلم في تلك الامية ماهذا الرشاد في غمرات الجاهلية ان هو الا خطاب الجبروت الاعلى قارعة القدوة العظمى . نداء العناية العليا ذلك خطاب الله القاهر على كل شيء الذى وسع كل شيء رحمة وعلما . ذلك أمر الله الصادع يقرع الآذان ويشق الحجب ويمزق الغلف وينفذ الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به واختصه بذلك وهو أضعف قومه ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيداً عن الظنة بريئا من التهمة لاتيانه على غير المعتادين خلقه . أي برهان على النبوة أعظم من هذا أمي قام يدعو الكاتبين الى فهم مايكتبون ومايقرءون بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون . في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء . ناشئ بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء غريب في أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة وأبعدها

عن فهم نظام الخليقة والنظر فى سننه البديعة أخـذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها ماهـذا الخطاب المفحم ماذلك الدليل الملجم . أأقول ماهذا بشراً ان هذا الاملك كريم لا لاأقول ذلك ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه (ان هو الا بشر مثلكم يوحي اليه) نبي صدق الانبياء ولكن لم يأت فى الاقناع برسالته بما يلهى الابصار أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له واختص العقـل بالخطاب وحاكم اليه الخطأ والصواب وجعل فى قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحـة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

﴿ فصل فى بيان انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ ﴾

كانت حاجة الأمم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك لكن يندهش عقل الناظر فى أحوال البشر عندمايرى أن هذا الدين يجمع اليه الأمة العربية من أدناها الى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربي وجـدار الصين فى أقل من قرن واحد وهو أمر لم يعهد في تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب واهتدي اليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هـذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقى من أعداء أنفسهم أشد مايلقي حق من باطل أوذى الداعي صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقبات لولا عناية الله وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق وطردوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تنفجر من صخور الصبر ثبتت

الله بشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهى ذوب مافسد من طباعهم فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدي الاطباء الحاذقين (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون) تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبته ويخنقوا دعوته فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء والفقير للاغنياء ولا ناصر له الا أنه الحق بين الاباطيل والرشد فى ظلمات الاضاليل حتى ظفر بالعزة وتعزز بالمنعة وقد وطئ أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحا ولا أنالهم القهر فلاحا

ضم الإسلام سكان القفاري العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير في ماضيهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان فهزءوا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر فبعث اليهم البعوث فى حياته وجرى على سنته الائمة من صحابته طلباً للامن وابلاغا للدعوة فاندفعوا في ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم وانهالوا به على تلك الامم فى قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال أهبها وعددها فظفروا منها بما هو معلوم وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وأباحوا لهم البقاء على أديانهم واقامة شعائرها آمنين مطمئنين ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه

أهليهم وأموالهم وفرضوا عليهم مقابل ذلك جزءاً قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينها يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر وبرهانهم الغلبة وحجتهم القوة ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد في تاريخ فتوح الاسلام ان كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل في نشره ويقفون مساعيهم على بث عقائده بين غير المسلمين بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة وشهد العالم بأسره ان الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا واحسانا عندما كان يعدها الاوربيون ضعة وضعفا رفع الاسلام ما ثقل من الاتاوات ورد الاموال المسلوبة الى أربابها وانتزع الحقوق من مغتصبيها ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل اسلام من دخل فيه الا بين يدى قاض شرعى باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا اكراه ولا رغبة في دنيا وصل الامر في عهد بعض الخلفاء الامويين انه كره عمالهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا انه ينقص من مبالغ الجزية وكان في حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة عرف خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمن ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في اسبانيا اشتهرت حرية الاديان في بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوروبا فراراً منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها

هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم لم

يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا الى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته والقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ولم يقوموا بينهم بدعوة ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيئا من القوة وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه فما الذي أقبل باهل الاديان المختلفة على الاسلام وأقنعهم انه الحق دون ماكان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا وبذلوا فى خدمته مالم يبذله العرب أنفسهم

ظهور الاسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الأعمال وسيرها بسكانها على الجادة القويمة حقق لقراء الكتب الالهية السابقة أن ذلك هو وعد الله انبيه ابراهيم واسماعيل وان هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء أقوامهم من بعدهم فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا الى البقاء على العناد فى مجاحدته فلاقوه شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم الى النظر فيه فوجدوا لطفاً ورحمة وخيراً ونعمة لاعقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعية البشرية وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الاعلى ويدعوها الى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم وهو مع ذلك لايمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى في توفية البدن حقه متي حسنت النية وخلصت السريرة فاذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الالهي ينتظره متى حسنت التوبة

وكانت الاوبة تبدت لهم سذاجة الدين عند ماقرءوا القرآن ونظروا فى سيرة الطاهرين من حامليه اليهم وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل الى فهمه وما تكفى جولة نظر فى الوصول الى علمه فتراموا اليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه كانت الأمم تطلب عقلا فى دين فوافاها وتطلع الى عدل فى ايمان فأتاها فما الذى يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها والمبادرة الى رغبتها كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشئون الادنين متى عرضت دونها شهوات الاعلين فجاء دين يحدد الحقوق ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجداً فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الامير على ما كان منه عدل يسمح ليهودي أن يخاصم مثل على بن أبي طالب امام القاضي وهو من نعلم من هو ويستوقفه معه للتقاضي الى ان قضى الحق بينهما هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذى حببه الى من كانوا أعداءه ورد اليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد أن يجرحهم الجار فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ثم لا يكون الا طائفاً يحل ثم يرتحل فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ماالفته من اللين والمياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له

وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الاسلام في انتشاره عند حـد خصوصا في الصين وفي أفريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخـذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه لا سيف وراءها ولا داعي امامها وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه مع قليل من حركة الفكر في العلم بما شرعه ومن هذا تعلم ان سرعة انتشار الدين الاسلامي واقبال الناس على التصديق به من كل ملة انما كان لسهولة تعقله ويسر أحكامه وعـدالة شريعته وبالجملة لان فطر البشر تطلب دينا فترتاد منه ماهو أمس بمصالحها وأقرب الي قلوبها ومشاعرها وأدعى الى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذاً والى العقول مخلصا بدون حاجة الى دعاة ينفقون الاموال الكثيرة والاوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه هذا كان حال الاسـلام في سذاجته الاولى وطهارته التي أنشأه الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض أطراف الارض الى اليوم

قال من لم يفهم ماقدمناه أو لم يرد أن يفهمه أن الاسلام لم يعطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخري يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته (سبحانك هذا بهتان عظيم) ماقدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ماتواترت به الاخبار تواتراً صحيحا لا يقبل الريبة فى جملته وان وقع اختلاف فى تفصيله وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم وكفا للعدوان عليهم ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا أنهـم جاوروهم وأجاروهم

فكان الجوار طريق العلم بالاسلام وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه

لو كان السيف ينشر دينا لظهر أثر ذلك في عشرة قرون فقد عمل في الرقاب للاكراه على الدين والالزام به مهدداً كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة اسمى درجة وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر فى شدته بعد مجيء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام فى أقل من قرن هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون مايشاءون تحت حمايته مع غيرة تفيض من الافئدة وفصاحة تتدفق من الالسنة وأموال تخلب ألباب المستضعفين ان في ذلك لآيات للمستيقنين

حلت حكمة الله فى أمر هذا الدين سلسبيل حياة نبع في القفار العربية أبعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها فجمع شملها فاحياها حياة شعبية ملية علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء في رفعتها وتملو أهل الارض بمدنيتها زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الارواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها قالوا كان لايخلو من غلَبْ قلنا تلك سنة الله فى الخلق لاتزال المصارعة بين الحق والباطل والرشد والغي قائمة فى هذا العالم الى أن يقضي الله قضاءه فيه اذا ساق الله ربيعا الى أرض جدبة ليحي ميتها وينقع غلتها ونمي الخصب فيها أفينقص من قدره ان أتى فى طريقه على عقبة فعلاها أو بيت رفيع العماد فهوى به

سطع الاسلام على الديار التي بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار

وبينه الا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا وانحرفوا عن طريق الدين ازمانا فوقف وقفة القائد خذله الانصار وكاد يتزحزح الى ماوراء لكن الله بالغ أمره فانحدرت الى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها (جنكيزخان) وفعلوا بالمسلمين الافاعيل وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والنهب والسلب ولم يلبث أعقابهم ان اتخذوا الاسلام دينا وحملوه الى أقوامهم فعمهم منه ماعم غيرهم جاءوا اشقوتهم فماجوا بسعادتهم

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتي سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين مالم يسبق لهم من قبل وجيشوا من الجند واعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها لم جاءوا وعماذا رجعوا ظفر رؤساء الدين في الغرب باثارة شعوبهم ليبيدوا مايشاءون من سكان الشرق أو يستولي سلطان تلك الشعوب على مايعتقدون لانفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية جاء من الملوك والامراء وذوي الثروة والاعلياء جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدروه بالملايين استقر المقام بكثير من هؤلاء فى أرض المسلمين وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها تنظر فى أحوال المجاورين وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع فتبينت ان المبالغات التى أطاشت الاحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة ثم وجدت حرية فى دين وعلما وشرعا مع كمال في يقين وتعلمت ان حرية الفكر وسعة

العلم من وسائل الايمان لا من الموادي عليه ثم جمت من الآداب ما شاء الله وانطلقت الى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها هذا الى ما كسبه السفار من اطراف الممالك الى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا وأخذت الافكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة في العلم تتزايد بين الغربيين ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين والاخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه وحرفوا في معناه ولم يكن بعد ذلك الا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعوا الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته وجاءت في اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلا بل ذهب بعض طوائف الاصلاح في العقائد ما يتفق مع عقيدة الاسلام الا في التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وان ما هم عليه انما هو دينه يتباعد منه اسما ولا يختلف معني الا في صورة العبادة لا غير

ثم أخذت أمم أوربا تفتك من أسرها وتصلح من شئونها حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا اليه الاسلام غافلة عن قائدها لاهية عن مرشدها وتقررت أصول المدنية الحاضرة التي تفاخر بها الاجيال المتأخرة ما سبقها من أهل الازمان الغابرة هذا طل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا ظن الرؤساء ان في اهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم وتقوية ركنهم فباءوا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم وما بيناه في شأن الاسلام ويعرفه كل من تفقه فيه قد ظفر به كثير من أهل النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا انه أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم والى الله عاقبة الامور

﴿ فصل في بيان الحوادث الارضية الدالة على صدق نبوته ورسالته ﴾

منها فيضان وادي السماوة في ليلة مولده صلى الله عليه وسلم وهى موضع من ديار العرب بين الكوفة والشام وغيض بحيرة ساوة من قرى بلاد الفرس وخمود نار فارس التى كانوا يعبدونها ولم تخمد قبل ذلك بألف عام وارتجاج إيوان كسرى وسقوط أربع عشرة شرفة منه طول كل واحدة منها خمسة عشر ذراعا اذ كان طوله فى السماء مائة ذراع كسمكه بخلاف طوله في الارض فستون ذراعا كعرضه فيها وقد راع أنو شروان وهاله ما وقع بالايوان لكنه لما أصبح لم يظهر انزعاجه تشجعاً ثم رآى انه لا يكتم هذا الامر عن رؤساء دولته فجلس على سريره ولبس تاجه ثم أرسل لوزيره الأعلى والى موابذته جمع موبذان أى رؤساء حكامهم الدينية والى هرابذته جمع هربذ وهم كالخلفاء للموابذة والى أصبهبذه وهو حافظ الجيوش وأمير أمرائهم والى مرازبته جمع مرزبان وهم حفظة الثغور وولاة بلاد المملكة فلما حضروا قال أتدرون فيم بعثت اليكم قالوا لا الا أن يخبرنا الملك فاخبرهم بما وقع بالايوان فقال موبذان موبذ أى كبيرهم وأنا أصلح الله الملك قد رأيت في هذه الليلة رؤيا رأيت ابلا صعابا تقود خيلا عرابا أي كراما قد قطعت دجلة وانتشرت في بلاد الفرس وأخبره فى ذلك الوقت بخمود النيران تلك الليلة فهاله ومن حضر مجلسه ذلك واستعظموه ولم يظهر لهم وجهه ففزعوا وتفرقوا عن الملك يترددون فيه ووافت البرد الى كسرى من جميع جهات ممالكه بخمود النيران وكتاب بغيض بحيرة ساوة وآخر بفيضان وادي السماوه فازداد غما الى غمه ثم جمع رؤساء سلطانه ثانياً فاطلعهم على ما انتهي اليه من ذلك كله ليعرف ما عندهم فيه فقال أى شيء هذا ياموبذان قال حدث عظيم يكون من ناحية

العرب ولم يقنع الموبذان ما فهمه فقال لانو شروان فابعث الى عاملك بالحيرة يوجه اليك رجلا من علمائهم فانهم أصحاب علم بالحدثان أي حوادث الدهر فكتب الى النعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة ان وجه الى برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه فوجه اليه بعبد المسيح الغساني الكاهن المعمر أكثر من ثلاثمائة وخمسين سنة فلما ورد عليه قال له الك علم بما أريد أن أسألك عنه قال ليسألني الملك عما أحب فان كان عندى علم منه والا أخبرته بمن يعلمه فاخبره بالذي وجه اليه فيه فقال علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام أى أعاليها يقال له سطيح فلما ذكره عبد المسيح لانو شروان قال فآته فاسأله عما سألتك عنه ثم ائتني بتفسيره فخرج حتى انتهى اليه وهو محتضر فسلم عليه وكلمه فلم يرد عليه فقال

أصمّ أمْ يَسمَعُ غِطرِيفُ اليَمَنْ ... أمْ فادَ فازْلَمَّ بهِ شَأوُ العَنَنْ
يافاصل الخطة أعيت منْ وَمنْ ... وكاشف الكربة في الوجه الغضَنْ
أتاك شيخ الحى من آل سنن ... وأمه من آل ذئب بن حجن
لا يرهب الرعد ولا ريب الزمن ... رسول قيل العُجم يسرى بالوسن
تجوب بي الارض علنداة شزن ... ترفعني وَجناً وتهوى بن وَجَنْ
حتى أتى عارى الجآجى والقطَنْ ... يلفه في اللوح بَوْغاء الدّمَنْ

كانما حَثْحَثَ من حضنى ثكَنْ

فلما سمعها سطيح رفع رأسه وقال عبد المسيح من بلد نزيح على جمل مشيح جاء الى سطيح وقد أوفى على الضريح بعثك ملك ساسان لارتجاج الايوان . وخمود النيران . ورؤيا الموبذان رأى إبلا صعابا . تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلاد فارس ياعبد المسيح اذا ظهرت التلاوة

وبعث صاحب الهراوة وغاضت بحيرة سارة وخمدت نار فارس وفاض وادي السماوة فليست بابل للفرس مقاما ولا الشام لسطيح شاما يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات وكل ماهو آت آت ثم مات من ساعته وقدم عبد المسيح على كسري فأخبره فقال الى أن يملك منا أربعة عشر ملكا كانت أمور وأمور

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل عبد الله بن حذافة السهمى الى كسرى ملك الفرس وبعث معه كتابا مختوما فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسري عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله أدعوك بدعاية الله فانى أنا رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين اسلم تسلم فان أبيت فعليك اسم المجوس) أي الذين هم أتباعك قال عبد الله بن حذافة رضى الله عنه فأتيت الى بابه وطلبت الاذن عليه حتى وصلت اليه فدفعت اليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرئ عليه فأخذه ومزقه أي لانه أغضبه حين بدا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتاب بنفسه وأمر باخراج حامل ذلك الكتاب فاخرج فلما رأى ذلك قعد على راحلته وسار فلما وصل اليه صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر قال صلى الله عليه وسلم مزق الله ملكه كل ممزق وكتب كسرى الى بعض أمرائه باليمن يقال له باذان انه بلغنى ان رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي فسر اليه فاستتبه فان تاب والا فابعث الى برأسه يكتب الى هذا الكتاب أى الذى بدا فيه بنفسه وهو عبدى وفي رواية أن تكفيني رجلا خرج بأرضك يدعوني الى دينه والا فعلت فيك كذا يتوعده فابعث اليه رجلين جلدين فيأتيانى به

فبعث باذان بكتاب كسرى الى النبي صلى الله عليه وسلم مع قهرمانه وبعث معه رجلا آخر من الفرس وبعث معهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما الى كسرى فخرجا وقدما الطائف فوجدا رجلا من قريش فى أرض الطائف فسألاه عنه فقال هو بالمدينة فلما قدما عليه صلى الله عليه وسلم المدينة قالا له شاهنشاه ملك الملوك كسري بعث الى الملك باذان يأمره أن يبعث اليك من يأتى بك وقد بعثنا اليك فان أبيت هلكت وأهلكت قومك وخربت بلادك وكانا على زي الفرس من حلق لحاهم واعفاء شواربهم فكره صلى الله عليه وسلم النظر اليهما ثم قال لهما ويلكما من أمركما بهذا قال أمرنا ربنا يعنيان كسرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أمرنى ربى باعفاء لحيتى وقص شاربى ثم قال لهما ارجعا حتى تأتيانى غدا وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بان الله قد سلط على كسرى ابنه يقتله في شهر كذا فى ليلة كذا فلما كان الغد دعاهما وأخبرهما الخبر وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى باذان ان الله قد وعدنى أن يقتل كسرى يوم كذا من شهر كذا فلما أتي الكتاب باذان توقف وقال ان كان نبيا فسيكون ماقال فقتل الله كسري فى اليوم الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على يد ولده شيرويه قيل قتله ليلا بعد ما مضى من الليل سبع ساعات فيكون المراد باليوم فى تلك الرواية مجرد الوقت وقدم على باذان كتاب ولد كسرى شيرويه فيه أما بعد فقد قتلت كسري ولم أقتله الا غضبا لفارس فانه قتل أشرافهم فتفرق الناس فاذا جاءك كتابى هذا فخذلى الطاعة ممن قبلك وانظر الرجل الذى كان كسرى يكتب اليك فيه فلا تزعجه حتى يأتيك أمرى فيه فبعث باذان باسلامه واسلام من معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ فصل في الحوادث السماوية الدالة على صدق رسالته صلى الله عليه وسلم ﴾

منها انشقاق القمر فعن عبد الله بن مسعود قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كفار قريش هذا سحر ابن أبي كبشة قال فقالوا انظروا ما يأتيكم به السفار فان محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم قال فجاء السفار فأخبروهم بذلك قال الخطابي انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الانبياء وذلك انه ظهر في ملكوت السموات خارجا عن جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع فليس فيما يطمع في الوصول اليه بحيلة فلذلك صار البرهان به أظهر اه وقال بعض المفسرين المراد سينشق قال في تكملة التفسير الكبير الامام فخر الدين الرازي وهو بعيد ولا معنى له لان من منع ذلك وهو الفلسفي يمنعه في الماضي والمستقبل ومن يجوزه لاحاجة الى التأويل وانما ذهب اليه ذلك الذاهب لان الانشقاق أمر هائل فلو وقع لعم وجه الارض فكان ينبغي أن يبلغ حد التواتر نقول النبي صلى الله عليه وسلم لما كان يتحدى بالقرآن وكانوا يقولون انا نأتي بأفصح ما يكون من الكلام وعجزوا عنه فكان القرآن معجزة باقية الى قيام القيامة لا يتمسك بمعجزة أخرى فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر وأما المؤرخون تركوه لان التواريخ في أكثر الامر يستعملها المنجم وهو لما وقع الامر قالوا بانه مثل خسوف القمر وظهور شيء في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر فتركوا حكايته في تواريخهم والقرآن أدل دليل وأقوى مثبت له وامكانه لايشك فيه وقد أخبر عنه الصادق فيجب اعتقاد وقوعه (وحديث امتناع الخرق والالتئام حديث اللئام) وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السموات اه قلت وعدم تدوينه في كتب التسيير والتنجيم لايحدث الشك في ذلك

لان القمر لا سلطان له بالنهار فوقع ليلا ومن شأن الليل أن يكون الناس فيه نياماً ومستكنين في الابنية والبارز منهم بالصحراء فى ذلك الوقت يكون مشغولا بما يلهيه من سمر وغيره ومن المستبعدان يقصدوا الى مراكز القمر ناظرين اليه ولا يغفلوا عنه فقد يجوز أنه وقع ولم يشعر به أكثر الناس وانما رآه من قصد الرؤية ممن اقترح وقوعه وقد يكون القمر حينئذ فى بعض المنازل التى تظهر لبعض الآفاق دون بعض كما يكون ظاهراً لقوم غائباً عند قوم وربما يجد الكسوف أهل بلد دون بلد اخر

﴿ فصل في التنويه به صلى الله عليه وسلم فى الكتب ﴾
(السالفة بانه صاحب الرسالة)

(قال الله تعالى الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) وهذا يدل على أنه لو لم يكن مكتوبا لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله لان الاصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات والعاقل لايسعى فيما يوجب نقصان حاله وينفر الناس عن قبول مقاله فلما قال لهم عليه الصلاة والسلام هذا دل على أن ذلك النعت كان مذكوراً في التورة والانجيل وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته لكن أهل الكتاب كما قال الله تعالى يكتمون الحق وهم يعلمون ويحرفون الكلم عن مواضعه والافهم قاتلهم الله قد عرفوا محمداً صلى الله عليه وسلم كما عرفوا أبناءهم ووجدوه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل لكنهم حرفوهما وبدلوهما ليطفئوا نور الله بأفواههم ويابى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون فدلائل نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم في كتابيهما بعد تحريفهما طافحة وأعلام شريعته ورسالته فيهما لائحة وقد كان

صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى اتباعه وتصديقه فكيف يجوز أن يحتج بباطل من الحجج ثم يحيل ذلك على ماعندهم وما في أيديهم ويقول من علامة نبوتي وصدقي انكم تجدوني عندكم مكتوبا وهم لا يجدونه كما ذكر أو ليس ذلك مما يزيدهم عنه بعداً وقد كان غنيا أن يدعوهم بما ينفرهم ويستميلهم بما يوحشهم وقد أسلم من أسلم من علمائهم كعبد الله بن سلام وتميم الداري وكعب وقد وقفوا منه على مثل هذه الدعاوي

وقد روي ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق محمد بن حمزة بن عبد الله بن سلام عن جده عبد الله بن سلام انه لما سمع بمخرج النبي صلى الله عليه وسلم بمكة خرج فلقيه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أنت ابن سلام عالم أهل يثرب قال نعم قال ناشدتك بالله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد صفتي في كتاب الله قال انسب ربك يا محمد فارتج على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له جبريل (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) فقال ابن سلام أشهد انك رسول الله وان الله مظهرك ومظهر دينك على الاديان واني لاجد صفتك في كتاب الله ياأيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح وان يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا لا اله الا الله ويفتح به أعينا عميا وآذاناً صما وقلوبا غلفاً

وأخرج ابن سعيد قال لما أمر ابراهيم باخراج هاجر حمل على البراق فكان لا يمر بأرض عذبة سهلة الا قال أنزل هاهنا ياجبريل فيقول لاحتى أتي مكة فقال جبريل انزل يا ابراهيم قال حيث لاضرع ولا زرع قال نعم هاهنا

بخروج النبي صلى الله عليه وسلم الذي من ذرية ابنك الذي تم به الكلمة العليا

وفي التوراة مما اختاروه بعد الخلف والتبديل والتحريف مما ذكره ابن طفر في البشر وابن قتيبة في اعلام النبوة (تجلى الله من سينا وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران) فسينا هو الجبل الذي كلم الله فيه موسى وساعير هو الجبل الذي كلم الله فيه عيسى وظهرت فيه نبوته وجبال فاران وهو اسم عبراني وليست ألفه الاولى همزة هي جبال بني هاشم التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحنث في أحدها وفيه فاتحة الوحي وهو أحد ثلاثة جبال أحدها أبو قبيس والمقابل له قعيقعان الى بطن الوادي وهو شعب بني هاشم وفيه مولده صلى الله عليه وسلم على أحد الاقوال

قال ابن قتيبة وليس بهذا غموض لان تجلى الله تعالى من سينا انزاله التوراة على موسى عليه الصلاة والسلام بطورسينا ويجب أن يكون اشراقه من ساعير انزاله على عيسى الانجيل وكان المسيح يسكن من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى ناصره وباسمها سمى من اتبعه نصارى فكما وجب أن يكون اشراقه من ساعير انزاله على المسيح الانجيل فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران انزاله القرآن على محمد صلي الله عليه وسلم وهي جبال مكة وليس بين المسلمين وأهل الكتاب في ذلك اختلاف في ان فاران هي مكة وان ادعى انها غير مكة قلنا أليس في التوراة ان الله أسكن هاجر واسماعيل فاران وقلنا دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران والنبي الذي أنزل عليه كتابا بعد المسيح أو ليس استعلن وعلن بمعنى واحد وهو ما ظهر وانكشف فهل تعلمون دينا ظهر ظهور الاسلام وفشا في مشارق الارض ومغاربها فشوه

وفي الانجيل مماذكره ابن طغربك فى الدرالمنظم قال يوحنا في انجيله عن المسيح انه قال أنا أطلب من الاب أن يعطيكم فارقليطا آخر يثبت معكم الى الابد روح الحق الذى لن يطيق العالم أن يقتلوه وهو عند ابن طغر بلفظ ان أجبتمونى فاحفظوا وصيتي وأنا أطلب الى أبى فيعطيكم فارقليطا آخر يكون معكم الدهر كله قال فهذا تصريح بان الله تعالى سيبعث اليهم من يقوم مقامه فينوب عنه فى تبليغ رسالة ربه وسياسة خلقه منابه وتكون شريعته باقية مخلدة أبداً فهل هذا الا محمد صلى الله عليه وسلم انتهي ولم يذكر فصول الفارقليط كما أفاده ابن طغربك سوى يوحنا دون غيره من نقلة الاناجيل

وقد اختلف النصاري فى تفسير الفارقليط فقيل هو الحامد وقيل المخلص فان وافقناهم على أنه المخلص أفضي بنا الأمر الى أن المخلص رسول يأتى لخلاص العالم وذلك من غرضنا لان كل نبي مخلص لأمته من الكفر ويشهد له قول المسيح فى الانجيل انى قد جئت لخلاص العالم فاذا ثبت أن المسيح هو الذى وصف نفسه بانه مخلص العالم وهو الذى سأل الأب أن يعطيهم فارقليطا آخر في مقتضى اللفظ مايدل على أنه قد تقدم فارقليط أول حتى يأتي آخر وان تنزلنا معهم على القول بانه الحامد فأى لفظ أقرب الى أحمد ومحمد من هذا

وأما قوله (أبى) فهذه اللفظة مبدلة محرفة وليست منكرة الاستعمال عندأهل الكتابين اشارة الى الرب سبحانه لانهاعندهم لفظة تعظيم يخاطب بها المتعلم معلمه الذى يستمد منه العلم ومن المشهور مخاطبة النصارى عظماء دينهم بالاباء الروحانيين ولم تزل بنو اسرائيل وبنو عيصو يقولون نحن أبناء الله بسوء فهم عن الله تعالي

وفي ترجمة أخرى للانجيل انه قال الفارقليط اذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ولا يقول من تلقاء نفسه بل يقول مايسمع ويكلمهم به ويسوسهم بالحق ويخبرهم بالحوادث وهو عند ابن طغر بك بلفظ فاذا جاء روح الحق ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل مايسمع ويخبركم بكل ماياتي وهو يمجدني لانه ياخذ مما هو لي ويخبركم فقوله ليس ينطق من عنده وفي الرواية الاخرى ولا يقول من تلقاء نفسه بل يتكلم بكل ما يسمع أي من الله الذي أرسله وهذا كما قال تعالى في حقه صلى الله عليه وسلم (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحي) وقوله وهو يمجدني فلم يمجده حق تمجيده الا محمد صلى الله عليه وسلم لانه وصفه بانه رسول الله وبرأه وبرأ أمه عليهما الصلاة والسلام مما نسب اليهما وأمر أمته بذلك قال ابن طغر فمن ذا الذي وبخ العلماء على كتمان الحق وتحريف الكلم عن مواضعه وبيع الدين بالثمن البخس ومن ذا الذي أنذر بالحوادث وأخبر بالغيوب الا محمد صلى الله عليه وسلم

وفي زابور داود عليه الصلاة والسلام من مزمور أربعة وأربعين فاضت النعمة من شفتيك من أجل هذا باركك الله الى الابد تقلد أيها الجبار بالسيف فان شرائعك وسننك مقرونة بهيبة يمينك وسهامك مسنونة وجميع الأمم يخرون تحتك فهذا المزمور ينوه بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فالنعمة التي فاضت من شفتيه هي القول الذي يقوله وهو الكتاب الذي أنزل عليه والسنة التي سنها وفي قوله تقلد سيفك أيها الجبار دلالة على انه النبي العربي اذ ليس يتقلد السيوف أمة من الامم سوى العرب فكلهم يتقلدونها على عواتقهم وفي قوله فان شرائعك وسننك نص صريح على أنه صاحب شريعة وسنة وانها تقوم بسيفه والجبار الذي يجبر الخلق بالسيف على الحق

ويصرفهم عن الكفر جبراً

وعن وهب بن منبه قال قرأت في بعض الكتب القديمة قال الله تبارك وتعالى وعزتي وجلالي لانزلن على جبال العرب نوراً يملأ ما بين المشرق والمغرب ولاخرجن من ولد اسماعيل نبياً أمياً يؤمن به عدد نجوم السماء ونبات الارض كلهم يؤمن بي ربا وبه رسولا ويكفرون بملل آبائهم ويفرون منها قال موسى سبحانك وتقدست أسماؤك لقد كرمت هذا النبي للتكريم وشرفته قال الله ياموسى انى أنتقم من عدوه في الدنيا والآخرة وأظهر دعوته على كل دعوة وأذل من خالف شريعته وبالعدل دينته وبالقسط أخرجته وعزتي لاستنقذن به أمماً من النار فتحت الدنيا بابراهيم واختمها بمحمد صلى الله عليه وسلم فمن أدركه ولم يؤمن به ولم يدخل فى شريعته فهو من الله بريء ذكره ابن ظفر وغيره

روى أنه لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة وذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها تهنئه وتمدحه فأتاه وفد قريش فيهم عبد المطلب ابن هاشم فقدموا عليه وهو فى قصر له يقال له غمدان فطلبوا الاذن عليه فاذن لهم فدخلوا فوجدوه متضمخاً بالعنبر والمسك وعليه بردان أخضران قد اتزر باحدهما وارتدى بالاخر وسيفه بين يديه والملوك عن يمينه وشماله وأبناء الملوك فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام فاذن له وكان من ضمن كلامه نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته أشخصنا اليك الذى أبهجك لكشف الكرب الذى فدحنا فنحن وفد التهنئة قال سيف ابن ذى يزن من أنت أيها المتكلم قال أنا عبد المطلب ابن هاشم قال ابن أختنا قال ثم فادناه وقربه ثم أقبل عليه وعلى القوم ورحب بهم وأنزلهم في دار

بالضيافة فاقاموا ببابه شهرا لا يصلون اليه ولا يأذن لهم في الانصراف ثم انتبه اليهم انتباهة فدعا بعبد المطلب من بينهم فخلا به وأدنى مجلسه وقال ياعبد المطلب انى مفيض اليك من علمي أمرا لو غيرك لم أبح له به ولكن رأيتك معدنه فاطلعتك عليه فليكن مصونا حتى يأذن الله فيه فان الله بالغ أمره

انى أجد في العلم المخزون والكتاب المكنون الذى ادخرناه لانفسنا واحتجبناه دون غيرنا خبرا عظيما وخطرا جسيما فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس كافة ولرهطك عامة ولنفسك خاصة قال عبد المطلب مثلك يايها الملك بر وسر وبشر ما هو فداك أهل الوبر زمرا بعد زمر قال ابن ذي يزن اذا ولد مولود بتهامة . بين كتفيه شامة . كانت له الامامة . الى يوم القيامة . قال عبد المطلب أبيت اللعن لقد أبت بخبر ما آب به أحد فلولا اجلال الملك لسألته عما ساره الى فازداد به سرورا قال ابن ذي يزن هذا حينه الذى يولد فيه أوقد ولد يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه قد وجدناه مرارا والله باعثه جهارا وجاعل له منا أنصارا يعزبهم أولياءه ويذل بهم أعداءه ويفتتح كرائم الارض ويضرب بهم الناس عن عرض يخمد الاديان ويكسر الاوثان ويعبد الرحمن قوله حكم وفصل وأمره حزم وعدل يأمر بالمعروف ويفعله وينهى عن المنكر ويبطله فقال عبد المطلب طال عمرك ودام ملكك وعلا جدك وعز فخرك فهل الملك يسرنى بان يوضح فيه بعض الايضاح فقال ابن ذي يزن والبيت ذى الطلب والملامات والنصب انك ياعبد المطلب لجده من غير كذب فخر عبد المطلب ساجدا قال ابن ذى يزن ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا أمرك فهل أحسنت شيئا مما ذكرت لك قال عبد المطلب أيها الملك كان لى ابن كنت له محبا وعليه حدبا مشفقا فزوجته كريمة من كرائم

قومه يقال لها آمنة بنت وهب بن عبدمناف فجاءت بغلام بين كتفيه شامة فيه كل ماذكرت من علامة مات أبوه وأمه وكفلته انا وعمه قال ابن ذى يزن ان الذى قلت لك كما قلت فاحفظ ابنك واحذر عليه اليهود فانهم له اعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا اطو ماذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك فانى لست آمن ان تدخلهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة فيبغون لك الغوائل وينصبون لك الحبائل وهم فاعلون وابناؤهم ولولا انى أعلم ان الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار مهاجره فاني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق ان يثرب دار هجرته وبيت نصرته ولولا أنى أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لاعلنت على حداثة سنه وأوطأت أقدام العرب عقبه ولكنى صارف اليك ذلك عن تقصير منى بمن معك ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشرة اماء سود وخمسة أرطال فضة وحلتين من حلل اليمن وكرش مملوءة عنبرا وأمر لعبد المطلب بعشرة اضعاف ذلك وقال اذا حال الحول فأنبئني بما يكون من أمره فما حال الحول حتى مات ابن ذي يزن فكان عبد المطلب يقول يامعشر قريش لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك فانه الى نفاد ولكن يغبطني بما يبقي لى ذكره وفخره ولعقبى فاذا قالوا له وماذاك قال سيظهر بعد حين وقد مات عبد المطلب وله صلى الله عليه وسلم ثمان سنين على الراجح

﴿ فصل فى بيان اعتراف قيصر ملك الروم برسالته صلى الله عليه وسلم ﴾

كتب صلى الله عليه وسلم كتابا لقيصر المدعو هرقل ملك الروم يدعوه الى الاسلام وبعث به دحية الكلبي رضى الله عنه وأمره أن يدفعه الى قيصر ففعل كذلك فلما أخذ قيصر الكتاب وجد عليه عنوان كتاب العرب فدعا

الترجمان الذي يقرأ بالعربية ثم قال انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه وكان أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه بالشام أي بغزة مع رجال من قريش في تجارة (زمن هدنة الحديبية) قال أبو سفيان فأتى رسول قيصر فانطلق بنا حتى قدمنا عليه في بيت المقدس فاذا هو جالس وعليه التاج وعظماء الروم حوله فقال لترجمانه سلهم أيهم اقرب نسبا لهذا الرجل الذي يزعم انه نبي فقال أبو سفيان أنا أقربهم نسبا اليه فقال له ادن مني ثم أمر باصحابي فجعلوا خلف ظهري ثم قال لترجمانه قل لاصحابه انما قدمت هذا امامكم لاسأله عن هذا الرجل الذي يزعم انه نبي واني جعلتكم خلف ظهره لتردوا عليه كذبا ان قاله أي حتي لاتستحيوا ان تشافهوه بالتكذيب اذا كذب قال أبو سفيان فوالله لولا الحياء يومئذ ان يردوا على كذبا لكذبت ولكن استحيت فصدقت وانا كاره لبغضي اياه ومحبتي نقصه

ثم قال لترجمانه قل له كيف نسب هذا الرجل فيكم قلت هو منا ذو نسب قال قل له هل قال هذا القول احد منكم قبله قلت لا قال قل له هل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل ان يقول ماقال قلت لا قال هل كان من آبائه من ملك قلت لا قال فاشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم قلت بل ضعفاؤهم قال فهل يزيدون أو ينقصون قلت بل يزيدون قال فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه قلت لا قال فهل يغدر اذا عاهد قلت لا ونحن الآن منه في ذمة لاندري ماهو فاعل فيها قال فهل قاتلتموه قلت نعم قال فكيف حربكم وحربه قلت دول وسجال ندال عليه مرة ويدال علينا أخرى قال فما يأمركم به قلت يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدقة والزكاة ويأمرنا بالوفاء بالعهد واداء الامانة

فقال لترجمانه قل له اني سألتك عن نسبه فزعمت انه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها وسألتك هل هذا القول قاله أحد منكم قبله فزعمت ان لا فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت هو يأتم بقول قيل قبله وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ماقال فزعمت أن لا فقد عرفت انه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى وسألتك هل كان من آبائه من ملك فقلت لافلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل وسألتك هل يزيدون أو ينقصون فزعمت أنهم يزيدون وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب وسألتك هل قاتلتموه قلت نعم وان حربكم وحربه دول وسجال يدال عليكم مرة وتدالون عليه أخرى وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة وسألتك هل يغدر فذكرت ان لا وكذلك الرسل لاتغدر وسألتك بماذا يأمركم فزعمت انه يأمر بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة فعلمت انه نبي وقد كنت أعلم انه خارج ولكن لم أظن انه فيكم وان كان ماحدثتني به حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ثم قال ولو أعلم انى أخلص أى أصل اليه لتجشمت أى تكلفت لقيه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه

ويروى أن أبا سفيان رضى الله عنه قال لقيصر لما سأله هل كنتم تتهمونه بالكذب فقال لا لكن أخبرك عنه أيها الملك خبراً تعرف به أنه قد كذب قال وما هو قلت انه يزعم لنا انه خرج من أرضنا أرض الحرم فى ليلة فجاء مسجدكم هذا ورجع الينا فى تلك الليلة قبل الصباح فقال بطريق أي قائد من قواد الملك كان واقفاً عند رأس قيصر صدق أيها الملك فنظر اليه

قيصر فقال ماأعلمك بهذا قال اني كنت لاأنام ليلة أبداً حتى أغلق أبواب المسجد فلما كانت تلك الليلة أغلقت الابواب كلها غير باب واحد غلبني فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني فلم نستطع أن نحركه كانما نزاول جبلا فدعوت النجارين فنظروا اليه فقالوا لا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فلما أصبحت جئت اليه فاذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب فقلت لاصحابي ماحبس هذا الباب الليلة الا لهذا الأمر فقال قيصر لقومه ياقوم ألستم تعلمون أن بين يدي الساعة نبياً بشركم به عيسى ابن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم قالوا بلى قال فان الله قد جعله في غيركم وهي رحمة الله عز وجل يضعها حيث شاء وأمر بانزال دحية وا كرامه قال أبو سفيان ثم دعا بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم فقرئ عليه فاذا فيه

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدي أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك اثم الاريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون)

فلما قضى مقالته وفرغ من الكتاب علت أصوات الذين حوله وكثر لغطهم أي أصواتهم التي لا تفهم فلا أدرى ماقالوا وأمر بنا فاخرجنا فلما خرجت أنا وأصحابي وخلصنا قلت لهم لقد أمر أمر ابن أبي كبشة أي عظم أمره هذا ملك بني الاصفر يخافه فما زلت موقنا انه سيظهر حتى أدخل الله علي الاسلام وفي لفظ فما زلت مرعوبا من محمد حتى أسلمت وذكر ان ابن أخي قيصر أظهر الغيظ الشديد وقال لعمه لقد ابتدأ بنفسه وسماك صاحب الروم التي

به يعني الكتاب فقال له والله انك لضعيف الرأي أتري أرمي بكتاب رجل يأتيه الناموس الاكبر هو أحق أن يبدأ بنفسه ولقد صدق أناصاحب الروم والله مالكي ومالكه ولكن الله سخرهم له ولو شاء لسلطهم علي كما سلط فارس على كسرى فقتلوه ثم أمر بانزال دحية واكرامه ولما رجع الى حمص جمع عظماء الروم في دار له وقال يامعشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد آخر الابد وان يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الابواب فوجدوها قد غلقت فلما رأي قيصر نفرتهم وأيس من الايمان منهم وقالوا له أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيد الاعرابي فقال ردوهم علي وقال انى قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه وعند ذلك كتب كتابا وأرسله مع دحية الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه انى مسلم ولكني مغلوب وأرسل بهدية فلما قرئ عليه صلى الله عليه وسلم الكتاب قال كذب عدو الله ليس بمسلم وقبل صلى الله عليه وسلم هديته وقسمها بين المسلمين

وقد دعا صلى الله عليه وسلم بتثبيت ملكه وفي لفظ سيكون لهم بقية ولقد صدق رسول الله فقد ذكر الحافظ بن حجر رحمه الله تعالى ان الملك المنصور قلاوون أرسل بعض أمرائه الى ملك المغرب بهدية فارسله ملك المغرب الى ملك الافرنج في شفاعة فقبله وأكرمه وقال له لاتحفنك بتحفة سنية فاخرج له صندوقا مصفحاً بالذهب وأخرج منه مقلمة من الذهب فاخرج منها كتابا قد زالت أكثر حروفه وقد الصق عليه خرقة حرير فقال هذا كتاب نبيكم لجدي قيصر مازلنا نتوارثه الى الآن فذكر لنا آباؤنا عن آبائهم انه مادام هذا الكتاب عندنا لايزول الملك عنا ونحن نحفظه غاية الحفظ

ونطمه ونكتمه عن النصاوى ليدوم الملك فينا ولا ينافيه ماجاء اذا هلك قيصر فلا قيصر بعده لان المراد اذا زال ملكه عن الشام لايخلفه أحد وكان كذلك لم يبق الا ببلاد الروم

﴿ فصل فى بيان اعتراف المقوقس ملك القبط بصدق (رسالته صلى الله عليه وسلم) ﴾

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن ابى بلتعة رضى الله عنه الى المقوقس ملك القبط (وهم أهل مصر والاسكندرية وليسوا من بني اسرائيل) وبعث معه كتابا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك اثم القبط ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون) وختم الكتاب وجاء به حاطب رضي الله عنه حتى دخل مصر فلم يجده فذهب الى الاسكندرية فاخبر انه في مجلس مشرف على البحر فركب حاطب رضى الله عنه سفينة وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب اليه فلما رآه أمر باحضاره بين يديه فلما جيء به نظر الى الكتاب وفضه وقرأه وقال لحاطب مامنعه ان كان نبيا ان يدعو على من خالفه أى من قومه وأخرجوه من بلده الى غيرها ان يسلط عليهم فاستعاد منه الكلام مرتين ثم سكت فقال له حاطب الست تشهد ان عيسى ابن مريم رسول الله فاله حيث أخذه قومه فأرادوا ان يقتلوه ان لا يكون دعا عليهم ان يهلكهم الله تعالى حتى رفعه الله اليه قال أحسنت انت حكيم جئت من عند حكيم ثم قال له حاطب رضي الله عنه انه كان

قبلك رجل يزعم انه الرب الاعلى يعني فرعون فأخذه الله نكال الآخرة والاولى فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك ان هذا النبي صلى الله عليه وسلم دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش واعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى ولعمري مابشارة موسى عليه الصلاة والسلام بعيسي الا كبشارة عيسى بمحمد صلى الله عليه وسلم وما دعاؤنا اياك الى القرآن الا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل وكل نبي ادرك قوما فهم أمته فالحق عليهم ان يطيعوه فانت ممن أدرك هذا النبي ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام ولكنا نأمرك به فقال اني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لايأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب عنه ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ووجدت معه آلة النبوة باخراج الخبء أى الشيء الغائب المستور والاخبار بالنجوى أي يخبر بالمغيبات وسأنظر وأخذ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وجعله في حق من عاج وختم عليه ودفعه الى جارية له ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية فكتب للنبي صلى الله عليه وسلم (بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليكم أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ماذكرت فيه وماتدعو اليه وقد علمت ان نبيا قد بقي وقد كنت أظن انه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم (وهما مارية وسيرين) وبثياب وأهديت لك بغلة لتركبها والسلام عليك) ولم يزد على ذلك ولم يسلم وقد أهدي اليه صلي الله عليه وسلم زيادة عما ذكر طبيبا فقال له صلى الله عليه وسلم ارجع الى أهلك نحن قوم لانأكل حتى نجوع واذا أكلنا لانشبع وذكر ان المقوقس قال لحاطب رضي الله عنه القبط لايطاوعوني في اتباعه ولا أحب أن تعلم بمحاورتي اياك

وأنا أضن أي أبخل بملكي أن أفارقه وسيظهر على البلاد وينشر بساحتنا هذه أصحابه من بعده (أى وكان كذلك) فارجع الى صاحبك وارحل من عندى ولا تسمع منك القبط حرفا واحداً قال حاطب رضى الله عنه فرحلت من عنده وذكرت قوله للنبى صلى الله عليه وسلم فقال (ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه)

﴿ فصل في انتقاله صلى الله عليه وسلم من الدار الفانية الى الدار الباقية ﴾

لما كان الموت مكروها بالطبع لما فيه من الشدة والمشقة العظيمة لم يمت نبي من الانبياء حتى يخير وأول ما أعلم النبي صلى الله عليه وسلم من انقضاء عمره باقتراب أجله نزول سورة النصر (اذا جاء نصر الله والفتح الى آخر السورة) وهو صلي الله عليه وسلم بمنىً فى حجة الوداع لان المراد من هذه السورة انك يامحمد اذا فتح الله عليك البلاد ودخل الناس في دينك الذي دعوتهم اليه أفواجا فقد اقترب أجلك فتهيأ للقائنا بالتحميد والاستغفار فانه قد حصل مقصود ما أمرت به من أداء الرسالة والتبليغ وما عندنا خير لك من الدنيا فاستعد للنقلة الينا

وللطبرانى من حديث جابر لما نزلت هذه السورة قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل نعيت الىّ نفسى فقال له جبريل وللآخرة خير لك من الاولى

وما زال صلى الله عليه وسلم يعرض باقتراب أجله فى آخر عمره فى خطبه فقال في خطبته فى حجة الوداع

(ان الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيآت أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله أوصيكم عباد

الله بتقوى الله وأحثكم على طاعة الله واستفتح بالذي هو خير

أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فاني لا أدرى لعلى لا القاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا أيها الناس ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم فاشهد

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى الذي ائتمنه عليها وان ربا الجاهلية موضوع وان أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبدالمطلب وان دماء الجاهلية موضوعة وأن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة ابن الحرث ابن عبدالمطلب وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية أيها الناس ان الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم أيها الناس انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله وان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب لله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت اللهم اشهد

أيها الناس ان لنسائكم عليكم حقا وان لكم عليهن حقاً لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين بفاحشة فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن

بالمعروف وانما النساء عندكم عوار لا يملكن لانفسهن شيئا أخذتموهن بامانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً أيها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامريء مال أخيه الا عن طيب نفسه ألا هل بلغت اللهم اشهد فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم اعناق بعض فاني قد تركت فيكم ماان أخذتم به لم تضلوا بعده (كتاب الله) ألا هل بلغت اللهم اشهد أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى ألاهل بلغت اللهم اشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب أيها الناس ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)

ولما رجع صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع الى المدينة أقام بها بقية ذي الحجة تمام سنة عشر ثم دخلت سنة احدى عشرة فاقام المحرم وصفراً وفي يوم الاربعاء من آخر صفر بدأ بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه لحم وصدع

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر (أي في ابتداء مرضه) فقال ان عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ماشاء وبين ماعنده فاختار ماعنده فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال يارسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا قال فعجبنا له وقال الناس انظروا الى هذا الشيخ يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا ماشاء وبين ماعنده وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا

قال فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا به فقال النبي صلي الله عليه وسلم ان أمَنّ الناس على في صحبته وما له أبو بكر فلو كنت متخذاً من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن اخوة الاسلام لا تبقى في المسجد خوخة الا سدت الا خوخة أبي بكر رضي الله تعالى عنه رواه البخارى ومسلم

وفي البخارى قالت عائشة لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد به وجعه استأذن أزواجه أن يمرض فى بيتى فأذن له فخرج وهو بين رجلين تخط رجلاه في الارض بين العباس ابن عبد المطلب وبين رجل آخر قال عبيد الله فأخبرت عبد الله بالذى قالت عائشة فقال لى عبد الله ابن عباس هل تدرى من الرجل الآخر الذى لم تسم عائشة قال قلت لا قال ابن عباس هو على ابن أبى طالب الحديث ولما تعذر عليه الخروج الى الصلاة قال مروا أبا بكر فليصل بالناس (فرضيه عليه السلام خليفة له فى حياته) روى انه كان عنده صلى الله عليه وسلم فى مرضه سبعة دنانير فكان يأمرهم بالصدقة بها ثم يغمى عليه يشتغلون بوجعه فدعا بها فوضعها فى كفه فقال ما ظن محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه ثم تصدق بها كلها رواه البيهقى (انظر) اذا كان هذا سيد المرسلين وحبيب رب العالمين المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكيف حال من لقى الله وعليه دماء المسلمين وأموالهم المحرمة وما يظنه بربه تعالى وفى البخارى من طريق عروة عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت دعا النبى صلى الله عليه وسلم فاطمة فى شكواه الذى قبض فيه فسارها بشيء فبكت ثم دعاها فسارها فضحكت فسألناها عن ذلك فقالت سارني النبي صلى الله عليه وسلم انه يقبض فى وجعه الذي توفى فيه فبكيت

ثم سارني فاخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت

وفي كتاب الفتوح ان الانصار لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد وجعا طافوا بالمسجد فدخل العباس فاعلمه عليه الصلاة والسلام بمكانهم واشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فاعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه على ابن أبي طالب كذلك فخرج صلى الله عليه وسلم متوكئاً على علي والفضل والعباس أمامه والنبي صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وثار الناس اليه فحمد الله وأثنى عليه وقال (يايها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم هل خلد نبي قبلى فيمن بعث اليه فأخلد فيكم الا انى لاحق بربي وانكم لاحقون به فأوصيكم بالمهاجرين الاولين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم فان الله تعالى يقول والعصر ان الانسان لفي خسر الى آخرها وان الامور تجرى باذن الله تعالى ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فان الله عز وجل لايعجل بعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم وأوصيكم بالانصار خيراً فانهم الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلكم ان تحسنوا اليهم ألم يشاطروكم في الثمار ألم يوسعوا لكم فى الدار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة الا فمن ولى ان يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ألا ولا تستأثروا عليهم الا وانى فرط لكم وانتم لاحقون بى الا وان موعدكم الحوض الا من أحب ان يرده غداً فليكف يده ولسانه الا فيما ينبغي)

ولما احتضر صلى الله عليه وسلم واشتد به الامر قالت عائشة مارأيت الوجع على أحد أشد منه على النبي صلى الله عليه وسلم قالت وكان عنده قدح

من ماء فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ويقول اللهم اعني على سكرات الموت وفي رواية فجعل يقول لااله الا الله ان للموت لسكرات قال بعض العلماء فيه ان ذلك من شدة الالم والاوجاع لرفعة منزلته وقال الشيخ أبو محمد المرجاني تلك السكرات سكرات الطرب الا ترى الى قول بلال حين قال له أهله وهو في الاحتضار واحرباه ففتح عينيه وقال واطرباه غداً ألقى الاحبة محمداً وصحبه فاذا كان هذا طربه وهو في هذا الحال بلقاء محبوبه وهو النبي صلى الله عليه وسلم وحزبه فما بالك بلقاء النبي صلى الله عليه وسلم لربه تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) وهذا موضع تقصر العبارة عن وصف بعضه

ولما تغشاه الكرب قالت فاطمة رضي الله عنها وا كرب أبتاه فقال لها لا كرب على أبيك بعد اليوم رواه البخارى وقالت عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صحيح يقول انه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير فلما اشتكي وحضره القبض ورأسه على فخذى غشي عليه فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال اللهم في الرفيق الاعلى فقلت اذا لا يختارنا فعرفت أنه حديثه الذى كان يحدثنا به وهو صحيح

وبينما المسلمون في صلاة الفجر من يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الاول وأبو بكر يصلي لهم اذا برسول الله صلى الله عليه وسلم قد كشف سجف حجرة عائشة فنظر اليهم وهم في صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عقبه ليصل الصف وظن أن رسول الله يريد أن يخرج الى الصلاة وهم المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحا برسول الله فأشار اليهم بيده ان أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخي الستر ولم تأت ضحوة

هذا اليوم حتى فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم دنياه ولحق بمولاه

فطاشت العقول فنهم من خبل ومنهم من أقعد فلم يطق القيام ومنهم من أخرس فلم يطق الكلام ومنهم من أضني وكان عمر من خبل وكان أجزع الناس كلهم حتى أخذ بقائم سيفه وتوعد من يقول (مات رسول الله) وقال انما أرسل اليه كما أرسل الى موسى فلبث عن قومه أربعين ليلة والله انى لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم

وكان عثمان ممن أخرس يذهب به ويجاء ولا يستطيع كلاما وكان على ممن أقعد فلم يستطيع حراكا وأضني عبد الله بن أنيس فمات كمداً وكان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أثبتهم وكان غائباً بالسنح وهي منازل بنى الحارث بن الخزرج عند زوجته فلما أقبل وأخبر الخبر دخل بيت عائشة وكشف عن وجه رسول الله فجثا يقبله ويبكي ويقول توفى والذي نفسي بيده صلوات الله عليك يارسول الله ما أطيبك حياً وميتاً بأبي أنت وأمى لا يجمع الله عليك موتتين ثم خرج فحمد الله واثني عليه ثم قال(الا من كان يعبد محمدا فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت) وتلا قوله تعالى (انك ميت وانهم ميتون) وقوله تعالى(وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) قال عمر فكأنى لم أتل هذه الآية قط

ولما تحقق رضي الله عنه موته صلى الله عليه وسلم بقول أبي بكر ورجع الى قوله قال وهو يبكى بابى أنت وأمى يارسول الله لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه فلما كثروا اتخذت منبراً لتسمعهم فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم بابى أنت وأمي

يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند ربك ان جعل طاعتك طاعته فقال من يطع الرسول فقد أطاع الله بابى أنت وأمي يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده ان بعثك آخر الانبياء وذكرك فى أولهم فقال تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح الآية بابى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده ان أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم في أطباقها يعذبون يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول بابى أنت وأمى يارسول الله لقد اتبعك فى قصر عمرك مالم يتبع نوحا فى كثرة سنه وطول عمره فلقد آمن بك الكثير ومن آمن معه الا القليل

ثم مكث عليه الصلاة والسلام في بيته بقية يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويومه وليلة الاربعاء حتى انتهي المسلمون من اقامة خليفة عليهم فغسل ودفن وكان الذى يغسله على بن أبى طالب ويساعده العباس وابناه الفضل وقثم واسامة ابن زيد وشقران مولى رسول الله وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة ولما فرغوا من تجهيزه وضع على سريره فى بيته ودخل الناس عليه ارسالا متتابعين يصلون عليه ولم يؤمهم أحد ثم حفرله لحد فى حجرة عائشة حيث توفي وأنزله القبر على والعباس وولداه الفضل وقثم ورش قبره بلال بالماء ورفع قبره عن الارض قدر شبر

وبعد دفنه صلى الله عليه وسلم جاءت فاطمة رضى الله تعالى عنها فقالت كيف طابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب وأخذت من تراب القبر الشريف ووضعته على عينيها وأنشأت تقول

ماذا على من شم تربة أحمد ... أن لا يشم مدي الزمان غواليا
صبت علىّ مصائب لو أنها ... صبت على الايام عدن لياليا

وفي سنن ابن ماجة انه صلى الله عليه وسلم قال في مرضه أيها الناس ان أحداً من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبته فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري فان أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبته بي وقال أبو الجوزاء كان الرجل من اهل المدينة اذا أصابته مصيبة جاء أخوه فصافحه ويقول ياعبد الله اتق الله فان في رسول الله أسوة حسنة

﴿ الباب السادس فى ذكر نخبة من معجزاته صلي الله عليه وسلم ﴾

من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام انه كان أميا لايخط كتابا بيده ولا يقرؤه ولد في قوم أميين ونشأ بين أظهرهم فى بلد ليس بها عالم يعرف أخبار الماضين ولم يخرج فى سفر ضاربا الى عالم فيعكف عليه فجاءهم باخبار التوراة والانجيل والامم الماضية وقد كان ذهب معالم تلك الكتب ودرست وحرفت عن مواضعها ولم يبق من المتمسكين بها وأهل المعرفة بصحيحها وسقيمها الا القليل ثم حاج كل فريق من أهل الملل المخالفة له بما لو احتشد له حذاق المتكلمين وجهابذة النقاد المتقنين لم يتهيأ لهم نقض ذلك وهذا أدل شيء على انه أمر جاء من عند الله تعالى

(لطيفة) قال المأمون لابى العلاء المنقري بلغني انك أمى وانك لا تقيم الشعر وانك تلحن في كلامك فقال يا أمير المؤمنين أما اللحن فربما سبقنى لسانى بالشيء منه وأما الامية وكسر الشعر فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أميا وكان لا ينشد الشعر فقال له المأمون سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعا وهو الجهل أما علمت يا جاهل ان ذلك فى النبي صلى الله عليه وسلم فضيلة وفيك وفي أمثالك نقيصة

ثم معجزاته وكراماته عليه الصلاة والسلام شاملة للعلوي والسفلي والصامت والناطق والساكن والمتحرك والمائع والجامد والسابق واللاحق والغائب والحاضر والباطن والظاهر والعاجل والآجل الى غير ذلك مما لا يحصى ولا يعد

﴿ فصل ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم القرآن ﴾

جاء الخبر المتواتر الذى لا تتطرق اليه الريبة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا وتواترت أخبار الامم كافة على انه جاء بكتاب قال انه أنزل عليه وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف المحفوظ في صدور من عني بحفظه من المسلمين الى اليوم

كتاب حوي من أخبار الامم الماضية ما فيه معتبر للاجيال الحاضرة والمستقبلة

نقب على الصحيح منها وغادر الاباطيل التى ألحقتها الاوهام بها ونبه على وجوه العبرة فيها حكي عن الانبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم وما كان بينهم وبين أممهم وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدون لرسالاتهم آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم وما خلطوا فى أحكامهم وما حرفوا بالتأويل في كتبهم

وشرع للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ثم عظمت المضرة في اهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذى أودعته ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر في شرائع الامم ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب وتهش لاستقبالها

العقول وتنصرف وراءها الهمم انصراف السيل فى الأَمَمْ

نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الاخبار على انه أرقي الاعصار عند العرب وأغزرها مادة في الفصاحة وانه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطابة وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء هو الغلب في القول والسبق الى اصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الاذعان من العقول وتفانيهم في المفاخرة بذلك مما لايحتاج الى الاطالة في بيانه

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه وتكذيبه في الاخبار عن الله واتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته والامراء الذين يدعوهم السلطان الى مناواته والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته وقد اشتد جميع أولئك في مقاومته وانهالوا بقواهم عليه استكباراً عن الخضوع له وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم وهو مع ذلك يخطئ آراءهم ويسفه أحلامهم ويحتقر أصنامهم ويدعوهم الى مالم تعهده أيامهم ولم تخفق لمثله أعلامهم ولا حجة له بين يدي ذلك كله الا تحديه بالاتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله وكان في استطاعتهم أن يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء والبلغاء ماشاءوا ليأتوا بشئ من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة ويفحموا صاحب الدعوة

جاءنا الخبر المتواتر انه مع طول زمن التحدى ولجاج القوم في التمدى أصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل

كلام وقضي حكمه العلى على جميع الاحكام

اليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمى أعظم معجزة وأدل برهان على انه ليس من صنع البشر وانما هو النور المنبعث عن شمس العلم الالهي والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمي صلوات الله عليه

هذا وقد جاء فى الكتاب من أخبار الغيب ماصدقته حوادث الكون كالخبر في قوله (غلبت الروم فيأدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) وكالوعد الصريح فى قوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم الآيه) وقد تحقق جميع ذلك وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته

ومن الكلام عن الغيب فيه ماجاء فى تحدى العرب به وا كتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن ياتوا بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى مكة من جميع أرجائها ومع أنه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها وقصور العلم البشرى عادة عن الاحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة كالامة العربية فهذا القضاء الحاتم منه بانهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشئ من مثل ماتحداهم به ليس قضاء بشريا ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه وشرط كالذي شرط على نفسه لغلبة الظن عند من له شيء من العقل ان الارض لاتخلو من صاحب قوة مثل قوته وانما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه وقدأحاط

علمه بقصور جميع القوى عن تناول مااستنهضهم له وبلوغ ماحثهم عليه

عن محمد بن كعب قال حدثت ان عتبة بن ربيعة قال ذات يوم وهو جالس في نادى قريش (ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده فى المسجد) يامعشر قريش الا أقوم الى هذا فاعرض عليه أموراً لعله يقبل منها بعضها ويكف عنا قالوا بلى يا أبا الوليد فقام عتبة حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا ابن أخى اسمع منى اعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قل ياأبا الوليد اسمع فقال ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الامر مالا جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذى يأتيك رؤيا من الجن تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى فلما فرغ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرغت ياأبا الوليد قال نعم قال فاسمع منى قال افعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (بسم الله الرحمن الرحيم)

حمٓ تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فاعرض أكثرهم فهم لايسمعون فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه فلما سمعها عتبة انصت لها والقى بيديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه حتى انتهي رسول الله صلي الله عليه وسلم الى قوله تعالى فان أعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فامسك عتبة على فيه صلى الله عليه وسلم وناشده الرحم ان يكف عن ذلك ثم انتهى الى السجدة فسجد فيها ثم قال سمعت يا أبا الوليد قال سمعت فانت وذاك

فقام عتبة الى أصحابه فقال بعضهم لبعض يحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس اليهم قالوا ماوراءك ياأبا الوليد قال والله انى قد سمعت قولا ماسمعت مثله قط والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة يامعشر قريش أطيعونى خلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ قال فأجابنى بشئ والله ماهو بسحر ولا بشعر ولا كهانة قرأ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم حتى بلغ فقد أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فامسكت فمه وناشدته الرحم أن يكف وقد علمتم ان محمداً اذا قال شيئاً لم يكذب فخفت ان ينزل بكم العذاب رواه البيهقي وغيره

واعلم انه قد اجتمع فى القرآن وجوه كثيرة كانت تقتضي نقصان فصاحته ومع ذلك فانه في الفصاحة بلغ النهاية التي لاغاية وراءها فدل ذلك على كونه معجزاً أحدها ان فصاحة العرب أكثرها فى وصف المشاهدات مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو ملك أوضربة أو طعنة أو وصف حرب أو وصف غارة وليس فى القرآن من هذه الاشياء شئ فكان يجب ان لاتحصل فيه الالفاظ الفصيحة التي اتفقت العرب عليها في كلامهم وثانيها انه تعالى راعى فيه طريقة الصدق وتنزه عن الكذب فى جميعه وكل شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نزل شعره ولم يكن جيدا الا ترى ان لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل شعرهما ولم يكن شعرهما الاسلامي فى الجودة كشعرهما الجاهلي وان الله تعالى مع ما تنزه عن الكذب والمجازفة جاء في القران فصيحا كما ترى وثالثها ان الكلام الفصيح والشعر الفصيح انما يتفق في القصيدة فى البيت والبيتين والباقي لايكون كذلك وليس كذلك القرآن لانه كله فصيح

وكذا كل جزء منه بحيث يعجز الخلق عنه كما عجزوا عن جملته

ورابعها ان كل من قال شعراً فصيحا فى وصف شئ فانه اذا كرره لم يكن كلامه الثانى في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الاول وفي القرآن التكرار الكثير ومع ذلك كل واحدمنها فى نهاية الفصاحة ولم يظهر التفاوت أصلا وخامسها انه اقتصر على ايجاب العبادات وتحريم القبائح والحث على مكارم الاخلاق وترك الدنيا واختيار الآخرة وأمثال هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة وسادسها انهم قالوا ان شعر امرئ القيس يحسن عند الطرب وذكر النساء وصفة الخيل وشعر النابغة عند الخوف وشعر الاعشى عند الطلب ووصف الخمر وشعر زهير عند الرغبة والرجاء وبالجملة فكل شاعر يحسن كلامه في فن فانه يضعف كلامه في غير ذلك الفن أما القرآن فانه جاء فصيحا فى كل الفنون على غاية الفصاحة ألا ترى انه سبحانه وتعالى قال فى الترغيب (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين)وقال تعالى (وفيها ماتشتهيه الانفس وتلذ الاعين) وقال فى الترهيب (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر الآيات) وقال(أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الارض فاذا هى تمور أم أمنتم الآية) وقال وخاب كل جبار عنيد الى قوله ويأتيه الموت من كل مكان وقال فى الزجر ما لا يبلغه وهم البشر وهو قوله فكل أخذنا بذنبه الى قوله ومنهم من أغرقنا وقال فى الوعظ مالا مزيد عليه أفرأيت ان متعناهم سنين وقال فى الالهيات الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد الى آخره وسابعها أن القرآن أصل العلوم كلها فعلم الكلام كله فى القرآن وعلم الفقه كله مأخوذ من القرآن وكذا علم أصول الفقه وعلم النحو واللغة وعلم الزهد فى الدنيا وأخبار الآخرة واستعمال مكارم الاخلاق ومن تأمل فى

كتاب دلائل الاعجاز علم ان القرآن قد بلغ فى جميع وجوه الفصاحة الى النهاية القصوى

وقد أخبر الله تعالى بقوله (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) عن بقائه محفوظاً عن التغيير والتحريف وانقضى الآن أكثر من الف وثلاثمائة سنة فكان هذا اخباراً عن الغيب فكان ذلك أيضا معجزاً قاهراً ولم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ فانه لا كتاب الا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير اما في الكثير منه او في القليل سيما وانه منتشر فى كافة الممالك الاسلامية وغيرها ووجدت شدة الاعتناء فيه بحفظه وطبعه في جودة الورق وحسن الحروف فبقاء هذا الكتاب مصوناً عن جميع جهات التحريف مع ان دواعى الملحدة واليهود والنصاري متوفرة على ابطاله وافساده من أعظم المعجزات قال الله تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) فلم يقدر أحد أن يأتى بمثل هذا القرآن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بعده على نظمه وتأليفه وعذوبة منطقه وصحة معانيه وما فيه من الامثال والاشياء التي دلت على البعث وآياته والانباء بما كان وما يكون وبما فيه من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والامتناع من اراقة الدماء وصلة الارحام الى غير ذلك فكيف يقدر على ذلك أحد وقد عجزت عنه العرب الفصحاء والخطباء البلغاء والشعراء من قريش وغيرها وهو صلى الله عليه وسلم فى مدة ما عرفوه قبل نبوته واداء رسالته أربعين سنة لا يحسن نظم كتاب ولا عقد حساب ولا يتعلم سحراً ولا ينشد شعراً ولا يحفظ خبراً ولا يروي أثراً حتى أكرمه الله بالوحى المنزل والكتاب المفصل فدعاهم اليه

وحاجهم به قال الله تعالى (قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) وشهد له فى كتابه بذلك فقال تعالى (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لا ارتاب المبطلون)

فثبت بهذه المعجزة العظمي وقام الدليل بهذا الكتاب الباقى الذى لايمرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل ان نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله الى خلقه فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ماورد فى الكتاب المنزل عليه والاخذ بكل ماثبت عنه من هدى وسنة متبعة وقد جاء فى الكتاب انه خاتم الانبياء فوجب علينا الايمان بذلك كذلك

﴿ فصل ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم الاسراء والمعراج ﴾

أسري بروحه وجسده يقظة بعد البعث بخمس سنين من المسجد الحرام الى المسجد الاقصي ثم عرج به صلى الله عليه وسلم من المسجد الاقصي الى مافوق سبع سموات ورأي ربه بعيني رأسه وأوحي الله اليه ما أوحي وفرض عليه الصلوات الخمس (ولبعض أهل الاشارات) كأن الله قال له يا محمد قد أعطيتك نوراً تنظر به جمالى وسمعاً تسمع به كلامي يامحمد انى أعرفك بلسان الحال معني عروجك الى يامحمد أرسلتك الى الناس شاهداً ومبشراً ونذيراً والشاهد يطالب بحقيقة مايشهد به فاريك جنتى لتشاهد ما أعددت فيها لاوليائى وأريك ناري لتشاهد ماأعددت فيها لاعدائى ثم أشهدك جلالى وأكشف لك عن جمالى لتعلم اني منزه فى كمالى عن الشبيه والنظير والوزير والمشير فرآه صلى الله عليه وسلم بالنور الذى قواه من غير ادراك ولا احاطة فرداً صمداً لافى شئ ولا من شئ ولا قائما بشئ ولا على شئ ولا مفتقرا الى شئ ليس كمثله شئ فلما كلمه شفاهاً وشاهده عيانا

قيل له يا محمد لابد لهذه الخلوة من سر لا يذاع ورمز لا يشاع فأوحي الى عبده ماأوحي فكان سراً من سر لم يقف عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل وأنشد لسان الحال

بين المحبين سر ليس يفشيه　　قول ولا قلم في الكون يحكيه
سر يمازجه أنس يقابله　　نور تحير في بحر من التيه

ولما أراد صلى الله عليه وسلم الانصراف قال يارب لكل قادم من سفر تحفة فما تحفة أمتي قال الله تعالى أنا لهم ما عاشوا وأنا لهم اذا ماتوا وأنا لهم في القبور وأنا لهم في النشور ثم رجع عليه الصلاة والسلام من ليلته فلما أصبح غدا الى نادي قريش فجاء اليه أبو جهل بن هشام فحدثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جرى له فقال أبو جهل يابني كعب بن لؤي هلموا فاقبل عليه كفار قريش فأخبرهم الرسول الخبر فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وانكاراً وارتد ناس ممن كان آمن به من ضعاف القلوب وسعى رجال الى أبي بكر فقال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا أتصدقه على ذلك قال اني لاصدقه على أبعد من ذلك فسمي من ذلك اليوم صديقاً ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه نعت بيت المقدس وفيهم رجال رأوه أما رسول الله فلم يكن رآه قبل ذلك فجلاه الله له فصار يصفه لهم بابا بابا وموضعاً موضعاً فقالوا أما النعت فقد أصاب ولكن ما آية ذلك يامحمد (أى ماالعلامة الدالة على هذا الذى أخبرت به) فأنا لم نسمع بمثل هذا قط وكان للقوم عير (أي قوافل تسير في طريقه) فأخبرهم صلى الله عليه وسلم بالعير فذكر ثلاثة بل أربعة مر باولاها في ذهابه وبما بعدها في ايابه (الاولى) عير بنى فلان بمكان كذا فيها جمل أحمر عليه غرارة سوداء

وغرارة بيضاء فنفرت تلك العير من حس البراق حين قرب منها وكذلك الجمل فانكسر ودلهم صلى الله عليه وسلم على بعير لهم قد شرد فجمعه رجل سماه صلى الله عليه وسلم وكان صلى الله عليه وسلم قد بداهم بالسلام فعرفه بعضهم وقال هـذا صوت محمد قال صلى الله عليه وسلم فاسألوهم عن ذلك فقالوا هذه آية (والثانية) عير بني فلان بالروحاء ضلوا ناقة لهم فانطلقوا في طلبها وانتهى صلى الله عليه وسلم الى رحالهم وليس أحد فيها واذا بقدح فيه ماء فشرب منه أو شربه ثم وضعه كما كان قال صلوات الله عليه فاسألوهم هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا اليه فقالوا وهذه اية (والثالثة) عير بني فلان مر بها وفلان وفلان راكبان وحين مر عليهما (بذى مر) شعر به بعيرهما فنفر فرمى بفلان فانكسرت يده فاسألوهما عن ذلك قالوا وهذه اية (والرابعة) عير بنى فلان بالتنعيم على ثلاث أميال من مكة قالوا فما عدتها وأحمالها وهيئتها فقال كنت في شغل عن ذلك ثم مثلت له بالجزورة (مكان بمكة) بعددها وأحمالها ومن بها فقال نعم هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق (هو ما بياضه الى سواد) عليه غرارتان مخططتان وفي رواية عليه مسح اسود وغرارتان سودا وان قال وهاهي قد تطلع عليكم من الثنية عند طلوع الشمس قالوا وهذه اية ما بها بأس

ثم خرجوا نحو الثنية يشتدون وهم يقولون والله لقد قص محمد شيئاً وبينه حتى أتوا ثنية كداء وهي عقبة معلاة مكة فجلسوا ينتظرون حتى تطلع الشمس فقال قائل منهم هذه الشمس والله قد أشرقت وقال آخر وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق فيها فلان وفلان كما أخبر محمد وكانوا يسألوه عن عير أخرى متى تجيء فقال يوم الاربعاء وسألوا من ضل بعيرهم هل

ضل لكم بعير فقالوا نعم وسألوا أهل الجمل الاحمر هل انكسر لكم جمل أحمر فقالوا نعم وعن القدح وغيره فكذلك ثم لم يزدهم ذلك الا كفراً وعناداً حتى قالوا هذا سحر مبين

ونقلت من خط الاستاذ الوالد ما ملخصه ولا يخالف هذا ماجاء فى بعض الروايات ان النبي صلى الله عليه وسلم عين اليوم الذى تقدم فيه العير فاشرفت قريش ينتظرون ذلك وقد ولى النهار ولم تجئ حتي كادت الشمس أن تغرب فدعا الله تعالى فحبس الشمس عن الغروب حتى قدم العير لانه يجوز أن يكون هذا بالنسبة لبعض العيرات التى مرعليها والى حبس الشمس عن المغيب أشار الامام السبكى فى تائيته بقوله

وشمس الضحي طاعتك وقت مغيبها فما غربت بل وافقتك بوقفة

وأشار ابن أبي حمزة الى أن الحكمة في الاسراء الى بيت المقدس اظهار الحق للمعاند لانه لو عرج به من مكة الى السماء لم يجد لمعاندة الاعداء سبيلا الى البيان والايضاح حيث سألوه عن جزئيات من بيت المقدس كانوا راوها وعلموا انه لم يكن رآها قبل ذلك (وعن العير التى كانت لهم بالشام) فلما أخبرهم بها حصل التحقيق انه أسري به الى بيت المقدس واذا صح البعض لزم تصحيح الباقي فكان ذلك سببا لقوة ايمان المؤمنين وزيادة في شقاء من عاند وجحد من الكافرين

﴿ فصل ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم هجرته من مكه الى المدينة ﴾

لما ضيقت كفار قريش على أصحاب الرسول صلي الله عليه وسلم واشتد البلاء على المسلمين ونالوا منهم مالم يكونوا ينالون من الشتم والاذي شكوا للنبي صلي الله عليه وسلم فقال قد أريت دار هجرتكم سبخة ثم مكث أياما

ثم خرج مسروراً فقال أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب فمن أراد منكم أن يخرج فليخرج اليها فجعلوا يتجهزون ويترافقون ويتواسون ويخفون ذلك ويخرجون أفواجا وفرقاً متقطعة وأقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يؤذن له في الخروج ولما رأت كفار قريش هجرة الصحابة وعرفوا أنه صار له أصحاب من غيرهم خافوا خروجه لانه يكون أجمع لحربهم فاجتمعوا في دار الندوة (محل للمشاورة) يتشاورون فيما يصنعون من أمره عليه الصلاة والسلام وقد تصور لهم ابليس في صورة شيخ نجدي ووقف على باب الدار فقالوا من الشيخ قال من نجد سمع بالذي اجتمعتم له فحضر يسمع ماتقولون وعسى أن لايعدمكم رأيا ونصحا قالوا أدخل فدخل فقال قائل منهم احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء قبله فقال النجدي ماهذا برأي والله لو حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه الى أصحابه فلاوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ماهذا برأي فانظروا في غيره وقال آخر نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فلا نبالي أين ذهب فقال النجدي لعنه الله ماهذا برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب فيتغلب بذلك عليهم من قوله حتى يتابعوه عليكم ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ماأراد دبروا رأيا غير هذا فقال أبو جهل والله ان لي فيه رأيا ماأراكم وقعتم عليه أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً ثم يعطى كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا اليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ويتفرق دمه في القبائل

فلا تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جيما فنعقله لهم فقال النجدي لعنه الله القول ماقال لا رأي غيره فأقروا على هذا الرأي ولكن ارادة الله فوق كل ارادة (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) فاعلم نبيه بما دبره الاعداء في سرهم وأمره باللحاق بدار هجرته بدار فيها ينشر الاسلام ويكون فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم العزة والمنعة وهذا من الحكمة بمكان عظيم فانه لو انتشر الاسلام بمكة لقال المبغضون ان قريشا أرادوا ملك العرب فعمدوا الى شخص منهم وأوعزوا اليه أن يدعى هذه الدعوي حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم ولكنهم كانوا له أعداء الداء آذوه شديد الاذي حتى اختار الله له مفارقة بلادهم والبعد عنهم فتوجه من ساعته الى صديقه أبي بكر وأعلمه أن الله قد أذن له في الهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فقال نعم واستأجرا رجلا هاديا ماهراً وهو على دين كفار قريش فأمناه ودفعا اليه راحلتيهما وواعداه (غارثور) بعد ثلاث ليال ثم فارق الرسول عليه الصلاة والسلام أبا بكر وواعده المقابلة ليلا خارج مكة وكانت هذه الليلة هي ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقروا عليه فاجتمعوا حول باب الدار ورسول الله صلى الله عليه وسلم داخله يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه فامر عليه السلام عليا فنام مكانه كي لايقع الشك في وجوده أثناء الليل فانهم كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده ثم سجى عليا ببردته وباتت قريش يختلفون ويأتمرون أيهم يهجم على صاحب الفراش فيوثقه قال البيهقي ذكر أصحاب السير أنهم هموا بالولوج عليه فصاحت امرأة من الدار فقال بعضهم لبعض والله انها لسبة في العرب أن يتحدث عنا انا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمتنا فهذا الذي أقامهم بالباب حتى أصبحوا ثم خرج صلى

الله عليه وسلم وقد أخذ الله على أبصارهم فلم يره أحد منهم ونثر على رءوسهم كلهم ترابا كان فى يده وهو يتلو قوله تعالى (يس الى قوله فاغشيناهم فهم لا يبصرون) ثم انصرف حيث أراد فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال ماتنتظرون ههنا قالوا محمداً قال قد خيبكم الله قد والله خرج محمد عليكم ثم ماترك منكم رجلا الا وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته فما ترون مابكم فوضع كل رجل يده على رأسه فاذا عليه تراب ولم يزل عليه السلام سائراً حتى تقابل مع الصديق وسارا حتى بلغ غار ثور فاختفيا فيه ولما فقدت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها وبعثوا القافة (أى الذين يعرفون الاثر) إثره فى كل وجه وجعلوا الجوائز لمن يأتى بمحمد أو يدل عليه وقد وصلوا فى طلبهم الى ذلك الغار الذى فيه طلبتهم بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لنظرهما حتى أبكى ذلك أبا بكر فقال عليه السلام (لاتحزن ان الله معنا) فاعمى الله أبصار المشركين ولم تحصل التفاتة لاحد منهم الى ذلك الغار بل صار أعدى الاعداء أمية بن خلف يبعد لهم اختفاء المطلوبين فى مثل هذا الغار لما رأى نسج العنكبوت على بابه وحمامتين وحشيتين واقفتين على وجه الغار وقد روى ان الحمامتين باضتا فى أسفل النقب ونسج العنكبوت فقالوا لو دخل لتكسر البيض وتفسخ العنكبوت وهذا أبلغ فى الاعجاز من مقاومة القوم بالجنود وكان مكثه صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فى الغار ثلاث ليال على المشهور

﴿ فصل ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم قصة ام معبد ﴾

لما انقطع طلب كفار قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه خرجا من الغار بعد ان جاءهما الدليل بالراحلتين صبح ثلاث وسارا الى المدينة

متبعين طريق الساحل فمرا بقديد (اسم مكان) على أم معبد وكانت عفيفة جليلة مسنة قوية تجلس بفناء خيمتها ثم تسقى وتطعم من يمر بها وكان القوم مجدبين ونفدت أزوادهم فطلبوا لبنا ولحماً يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئا فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شاة في كسر الخيمة خلفها الجهد (الهزال) عن الغنم فسألها صلى الله عليه وسلم هل بها لبن فقالت لهى أجهد من ذلك فقال أتأذنين لى أن أحلبها فقالت نعم بأبى أنت وأمى ان رأيت بها حلبا فاحلبها فدعا بالشاة فاعتقلها ومسح درعها وسمى الله فدرت ودعا باناء يشبع الجماعة فحلب فيه وسقى القوم حتى رووا ثم شرب آخرهم ثم حلب فيه مرة أخرى وغادره عندها وقال ارفعي هذا لابى معبد اذا جاءك ثم ركبوا وذهبوا فقلما لبث ان جاء أبو معبد زوجها فلما رأى اللبن أبو معبد عجب وقال ما هذا يا أم معبد أنى لك هذا والشاة عازب حيال أى بعيدة عن المرعى وليس بها حمل ولا حلوب فى البيت فقالت لا والله الا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا فقال صفيه يا أم معبد فقالت رأيت رجلا ظاهر الوضاءة مبلج الوجه أى مشرقه حسن الخلق لم تعبه ثجلة (عظم البطن) ولم تزر به صعلة (صغر الرأس وهي أيضا الدقة والنحول فى البدن) وسيم قسيم أى حسن فى عينيه دعج أى سواد وفي أشفاره وطف أى كثرة شعر الحاجبين والعينين وفى صوته صحل أحور أكحل أزوج أى دقيق طرف الحاجبين أقرن أى المقرون الحاجبين شديد سواد الشعر في عنقه سطع وفى لحيته كثاثة اذا صمت فعليه الوقار واذا تكلم سما وعلاه البهاء وكأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن حلو المنطق فصل لانزر ولاهذر أجهر الناس وأجمله من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب ربعة لا تشنؤه من طول ولا تقتحمه عين من قصر غصن

بين غصنين فهو أنضر الثلاثة وأحسنهم قدرا له رفقاء يحفون به اذا قال استمعوا لقوله واذا أمر تبادروا الي أمره محفود محشود لا عابس ولا مفند فقال هذا والله صاحب قريش لو رأيته لاتبعته وعن هشام عن أبيه عن أم معبد قالت بقيت الشاة التى لمس عليه السلام ضرعها عندنا حتي كان زمان الرمادة (زمان عمر بن الخطاب) وكنا نحلبها صبوحاً وغبوقا وما فى الارض قليل ولا كثير

﴿ فصل ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم اخباره بقتل عمار بن ياسر ﴾

لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء مسجده بالمدينة أمر باللبن يضرب وما يحتاج اليه ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع رداءه فلما رأى ذلك المهاجرون والانصار وضعوا أرديتهم وأكسيتهم يرتجزون ويقولون ويعملون

لئن قعدنا والنبي يعمل ذاك اذاً لعمل مضلل

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه رجلا نظيفا فكان يحمل اللبنة ويجافي بها عن ثوبه فاذا وضعه نفض كفيه ونظر الى ثوبه فاذا أصابه شئ من التراب نفضه فنظر اليه على رضى الله عنه فأنشد

لايستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها راكعا وساجدا
وقائما طوراً وطورا قاعدا ومن يري عن التراب حائدا

فسمعها عمار بن ياسر فجعل يرتجزها وهو لا يدرى من يعنى فسمعه عثمان فقال ياابن سمية ما أعرفني بمن تعرض ومعه جريدة فقال لتكفن أو لأعترضن بها وجهك فسمعه النبي صلي الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل حائط فقال عمار جلدة مابين عيني واني فمن بلغ ذلك منه فقد بلغ مني وأشار بيده

فوضعها بين عينيه فكف الناس عن ذلك وقالوا لعمار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غضب فيك ونخاف أن ينزل فينا قرآن فقال انا أرضيه كما غضب فاقبل عليه فقال يارسول الله مالى ولاصحابك فقال مالك ولهم قال يريدون قتلى يحملون لبنة ويحملون على لبنتين فأخذ به وطاف به فى المسجد وجعل يمسح وجهه من التراب ويقول يا ابن سمية لا يقتلك أصحابي ولكن تقتلك الفئة الباغية وآخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن (وكان كما قال صلى الله عليه وسلم) فانه لما انتشب الحرب بين على رضى الله عنه ومعاوية في وقعة صفين كان عمار بن ياسر في جيش على وكان يقول انى لارى وجوه قوم لايزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطلون والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لكنا على الحق وكانوا على الباطل وتقدم عمار فقاتل ثم رجع الى موضعه فاستسقي فاتته امرأة من نساء بني شيبان من مصافهم بعس فيه لبن فدفعته اليه فقال الله (الله أكبر) اليوم التي الاحبة تحت الاسنة صدق الصادق وبذلك خبر الناطق وهو اليوم الذى وعدت فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان آخر رزقي من الدنيا صيحة لبن (والصيح اللبن الرقيق الممزوج) وارتجز

نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

وقاتل حتى استشهد رضي الله عنه قيل قتله أبو عادية برمح واجتز آخر رأسه واقبلا يختصمان الى عمرو ومعاوية كل منهما يقول أنا قتلته فقال عمرو انكما فى النار فلما انصرفا قال معاوية لعمرو ما رأيت مثل ما صرفت قوما بذلوا أنفسهم دوننا فقال عمرو هو والله ذلك والله انك لتعلمه ولوددت انى كنت مت قبل هذا بعشرين سنة وكان خزيمة بن ثابت كافا سلاحه حتى قتل

عمار فلما قتل سل سيفه وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تقتل عماراً الفئة الباغية فما زال يقاتل حتى قتل ولما روى هذا الحديث عبدالله ابن عمرو ابن العاص لمعاوية قال معاوية هم قتلوه لانهم أخرجوه الى القتل فلما بلغ ذلك عليا رضي الله عنه قال ونحن قتلنا أيضا حمزة لانا أخرجناه وقد دامت الحرب مائة يوم وعشرة أيام فقتل من أهل الشام سبعون الفا ومن العراق عشرون الفا وآل الامر مع معاوية ومن معه الى طلب التحكيم ثم رجع علي الى العراق فخرجت عليه الحرورية فقتلهم بالنهروان ومات بعد ذلك رضي الله عنه وظهر بقتل عمار مع علي أنه المصيب

﴿ فصل ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم إخباره بقتله أبي بن خلف ﴾

روي أن أبي بن خلف كان يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فيقول يامحمد ان عندي فرسا أعلفه كل يوم فرقا من ذرة اقتلك عليه فيقول صلى الله عليه وسلم بل أقتلك عليه ان شاء الله تعالى (وقد كان كذلك)

فلما كانت غزوة أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للرماة لاتبرحوا من مكانكم ان نحن نصرنا أو قهرنا فعصوا أمره لما رأوا الغلبة للمسلمين والتهوا بالغنائم فأصيبوا ولذلك ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انكشفوا عنه وثبت معه من أصحابه أربعة عشر رجلا سبعة من المهاجرين فيهم أبو بكر الصديق وسبعة من الانصار وتوجه صلى الله عليه وسلم يلتمس أصحابه فاستقبله المشركون فرموا وجهه فأدموه وكسروا رباعيته وكان مصعب ابن عمير قاتل دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل وكان الذى قتله ابن قمئة وهو يظنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فصاح ابن قمئة ان محمداً قتل وقدقال أبو سفيان أفي القوم محمد ثلاث مرات فنهاهم النبي صلى الله عليه

وسلم ان يجيبوه ثم قال أفي القوم ابن ابي قحافة ثلاث مرات ثم قال أفي القوم ابن الخطاب ثلاث مرات ثم رجع الى أصحابه فقال أما هؤلاء فقد قتلوا فما ملك عمر نفسه فقال كذبت يا عدو الله ان الذين أعددت لاحياء كلهم وقد بقي لك مايسوءك قال يوم بيوم والحرب سجال وقد رمي عبد الله ابن قميئة رسول الله صلى الله عليه وسلم فشج وجهه وكسر رباعيته فقال خذها وأنا ابن قميئة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدم عن وجهه اقماك الله فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة ولما فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشاعوا قتله كان أول من عرفه صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك قال عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر فناديت بأعلى صوتي يامعشر المسلمين هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما عرفوه نهضوا ونهض معهم نحو الشعب معه أبو بكر وعمر وعلي ورهط من المسلمين فلما أسند رسول الله صلى عليه وسلم في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول أين محمد لانجوت ان نجا فقالوا يارسول الله يعطف عليه رجل منا فقال صلى الله عليه وسلم دعوه فلما دنا تناول صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث ابن الصمة فلما أخذها منه عليه الصلاة والسلام انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير اذا انتفض أي تباعدنا عنه تباعد الذباب عن ظهر البعير اذا انتفض ثم استقبله عليه الصلاة والسلام فطعنه طعنة وقع بها عن فرسه ولم يخرج له دم فكسر ضلعاً من أضلاعه فلما رجع الى قريش قال قتلني والله محمد أو ليس قد كان قال لي بمكة أنا أقتلك فوالله لو بصق علي لقتلني قال له أبو سفيان ويلك ما بك الا خدشة قال ويلك يا ابن حرب ما تعلم من ضربها أما ضربها محمد وانه قال لي سأقتلك فعلمت انه قاتلي ولا أنجو

منه ولو بصق علي بعد هذه المقالة لقتلني وأنا أجد من هذه الطعنة ألما لو قسم على جميع أهل الحجاز لهلكوا وكان يصرخ ويخور حتى مات عدو الله بسرف وهم قافلون به الى مكة

﴿ فصل ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم اخباره بما حدث ﴾
(بين الصحابة بعد وفاته)

اعلم ان ماأطلعه الله على نبيه من علم مالم يكن مما سارت به الركبان فمن حذيفة ابن اليمان رضى الله عنه قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك الى قيام الساعة الا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه أصحابي هؤلاء وانه ليكون منه الشيء فاعرفه فاذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل اذا غاب عنه ثم اذا رآه عرفه وما أدرى انسى أصحابى أم تناسوه والله ماترك عليه السلام من قائد فتنة الى ان تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدا الا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته

من ذلك لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم الناس من يقوم بالامر بعده فقال قوم أبو بكر وقال قوم ابى بن كعب قال النعمان بن بشير فأتيت أبيا قلت ياأبي ان الناس قد ذكروا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخلف أبا بكر أو اياك فانطلق حتى تنظر في هذا الامر فقال ان عندى في هذا الامر من رسول الله صلي الله عليه وسلم شيئاً ما أنا بذاكره حتى يقبضه الله اليه ثم انطلق وخرجت معه حتي دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الصبح وهو يحسوا حسوا في قصعة مشعوبة فلما فرغ أقبل على أبى فقال هذا ماقلت لك قال فأوص بنا فخرج يخط برجليه حتى صار على المنبر ثم قال يامعشر المهاجرين انكم أصبحتم تزيدون وأصبحت الانصار كما هي

لا تزيد الا وان الناس يكثرون وتقل الانصار حتى يكونوا كالملح فى الطعام فمن ولى من أمرهم شيئاً فليقبل من محسنهم ويعف عن مسيئهم ثم دخل فلما توفى قيل لي هاتيك الانصار مع سعد بن عبادة يقولون نحن أولى بالامر والمهاجرون يقولون لنا الامر دونكم فأتيت أبيافقرعت بابه فخرج الى ماتحفا فقات الا أراك قاعداً ببيتك مغلقا عليك بابك وهؤلاءقومك فى بني ساعدة ينازعون المهاجرين فاخرج الى قومك فخرج فقال انكم والله ما أنتم من هذا الامر فى شيء وانه لهم دونكم يليها من المهاجرين رجلان ثم يقتل الثالث وينزع الامر فيكون ههنا وأشار الى الشام وان هذا الكلام لمبلول بريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أغلق بابه ودخل (وكان كذلك) فقد بايع الناس أبا بكر ثم من بعده عمر ثم من بعده عثمان ولما قتل نزع الامر من على رضى الله عنه الى معاوية بالشام كما يأتى

ومن ذلك كما في صحيح البخارى قوله عليه الصلاة والسلام (يأتي بعدي فتن كموج البحر يدفع بعضها بعضاً) وعن حذيفة قال بينا نحن جلوس عند عمر اذ قال أيكم يحفظ قول النبي صلى الله عليه وسلم فى الفتنة قلت فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر قال عمر ليس عن هذا أسألك ولكن أسالك عن الفتنة التى تموج كموج البحر فقال حذيفة ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين ان بينك وبينها بابا مغلقا قال عمر (أيكسر الباب أم يفتح) قال حذيفة بل يكسر قال عمر اذاً لا يغلق أبداً قلت أجل قلنا لحذيفة أكان عمر يعلم الباب قال نعم كما أعلم ان دون غد ليلة وذلك انى حدثته حديثا ليس بالاغاليط فهبنا أن نسأل حذيفة من الباب فأمرنا مسروقا فسأله فقال من الباب قال عمر

(وهكذا وقع) وبموته فتح باب الفتن ولم يسد الى اليوم

ومن ذلك ما حدثه عتبة بن أبي سفيان قال كنت مع معاوية في دار كندة اذ أقبل الحسن والحسين ومحمد بنو علي بن أبي طالب فقلت ياأمير المؤمنين ان لهؤلاء القوم إشماراً وايثاراً وهم يزعمون ان أباهم كان يعلم فقال اليك من صوتك فقد قرب القوم فاذا قاموا فذكرني بالحديث فلما قاموا قلت يا أمير المؤمنين ماسألتك عنه من الحديث قال كل القوم كان يعلم وكان أبوهم من أعلمهم ثم قال قدمت على عمر بن الخطاب فاني عنده اذ جاء علي وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن ابن عوف فاستأذنوا فاذن لهم فدخلوا وهم يتدافعون ويضحكون فلما رآهم عمر نكس فعلموا انه على حاجة فقاموا كما دخلوا فلما قاموا تبعهم ببصره فقال فتية أعوذ بالله من شرهم وقد كفاني الله شرهم قال ولم يكن عمر بالوجل يسأل عما لا يفسر فلما خرجت جعلت طريقي على عثمان فحدثته الحديث وسألته الستر قال نعم على شريطة قلت هي لك قال تسمع ما أخبرك به وتسكت اذا سكت قال نعم قال ستة يقدح بينهم زناد الفتنة يجرى الدم منهم على أربعة ثم قال ثم سكت وخرجت الى الشام فلما قدمت على عمر وحدث من أمره ما حدث ومضت الشورى ذكرت الحديث فاتيت بيت عثمان وهو جالس وبيده قضيب فقلت ياأبا عبد الله تذكر الحديث الذي حدثتني قال فازم على القضيب عضداً ثم أقلع عنه وقد أثر فيه فقال ويحك معاوية أي شيء ذكرتني لولا أن يقول الناس خاف أن يؤخذ عليه لخرجت الى الناس منها فأبا قضاء الله الا ما ترى

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لابي موسى الاشعري وهو عليه الصلاة والسلام على حافة بئر في بستان بالقرب من قباء لما طرق عثمان

الباب ائذن له وبشره بالجنة على بلوي تصيبه فجئته فقلت له ادخل وابشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة على بلوى تصيبك فحمد الله ثم قال الله المستعان فدخل وذلك اشارة الى ما يقع من استشهاده يوم الدار وأذي المحاصرة قبل القتل مدة ومنع الماء عنه فيها وروى البيهقي ان عثمان قال يارسول الله والذى بعثك بالحق ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعتك فاي بلاء يصيبني قال هو ذاك بل أصرح من ذلك كله ماروا. أحمد عن ابن عمر بن الخطاب قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة فمر رجل فقال يقتل فيها هذا يومئذ ظلما قال ابن عمر فنظرت فاذا هو عثمان واسناده صحيح

ومن ذلك اخباره صلى الله عليه وسلم بقتال عائشة عليا في وقعة الجمل عن أم سلمة قالت ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم خروج بعض أمهات المؤمنين فضحكت عائشة أي تعجبا من خروج المرأة على الخليفة فقال انظرى ياحميراء أن لا تكونى أنت ثم التفت الى على فقال ان وليت من أمرها شيئا فارفق بها وعن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا أيتكن صاحبة الجمل الاديب (كثير الشعر) تخرج حتى تنبحها كلاب الحوأب ويقتل حولها قتلى كثيرة تنجو بعد ما كادت رواه البزار وأبو نعيم (وكان كما قال)فكانت عائشة رضى الله عنها حاجة بمكة فبلغها قتل عثمان فحضت الناس على طلب دمه وكان أهل العقد والحل قد بايعوا عليا بالخلافة منهم طلحة والزبير واستأذناه في العمرة فخرجا الى مكة فلقيا عائشة فاتفقا معها على طلب دمه حتى يقتلوا قتلته فخرجوا في ثلاثة آلاف رجل الف من مكة والمدينة ولما بلغ ذلك عليا بالمدينة خرج اليهم خوف الفتنة فى تسعمائة راكب وبعث ابنه الحسن وعمار بن ياسر الى

الكوفة فصعد المنبر فكان الحسن في أعلاه وعمار أسفل منه فقال عمار كما في صحيح البخارى ان عائشة قد صارت الى البصرة ووالله انها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة ولكن الله ابتلاكم ليعلم اياه تطيعون أم هى ومراد عمار بما قال ان الصواب مع على وان عائشة مع ذلك لم تخرج بذلك عن كونها زوج النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة وذلك من انصاف عمار وشدة ورعه وصدق لهجته وتحريه قول الحق فلم تستخفه الخصومة الى تنقيص خصمه بل شهد لعائشة بمزيد الفضل مع مابينهما من الحرب لصدور ذلك منها عن اجتهاد ولما مرت عائشة رضي الله عنها بمكان اسمه الحوأب نبحتهم كلابه فقالت عائشة أى ماء هذا قيل هذا ماء الحوأب فصرخت وقالت انا لله وانا اليه راجعون سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه ليت شعري أيتكن ينبحها كلاب الحوأب ثم ضربت عضد بعيرها فاناخته وقالت ردونى فاناخوا يوما وليلة وقال لها عبد الله بن الزبير انه كذاب يعنى ليس هذا ماء الحوأب ولم يزل بها وهى تمتنع فقال (النجا النجا) فقد أدرككم على بن أبى طالب فارتحلوا نحو البصرة واستولوا عليها وسار على الى البصرة حين بلغه ذلك في أربعة آلاف وقطعت على خطام الجمل أيد كثيرة وقتل بينهم خلق كثير قيل عشرة آلاف ولما كثر القتل على خطام الجمل قال على اعقروا الجمل فضربه رجل فسقط فبقيت عائشة في هودجها الى الليل وأدخلها أخوها محمد بن أبى بكر البصرة الى دار عبد الله بن خلف ثم أمرها على بالرجوع الى المدينة فسارت مستهل رجب منها وشيعها الناس وجهزها على بما احتاجت اليه وسير معها أولاده مسيرة يوم وعن أبى الاسود قال شهدت الزبير خرج أي من الصف يوم الجمل يريد علياً فقال له على أنشدك الله

هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (تقاتله وأنت ظالم له) أى لما مر بنا ونحن فى مكان كذا وكذا وكل منا يضحك لصاحبه فقال يازبير تحب علياً فقلت ألا أحب ابن خالى وأنا ابن عمته وعلى دينى فمضي الزبير منصرفا أى تاركا للقتال وفي رواية فقال الزبير بلى ولكن نسيت ثم سار على فرسه فقتله عمرو بن جرموز بوادى السباع غيلة وهو نائم وجاء الى على متقربا بذلك فبشره بالنار كما في الحديث

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لعلى من حديث جابر مرفوعا انك مؤمر مستخلف وانك مقتول وان هذه أي لحيته مخضوبة من هذه أي رأسه (فكان كما قال) فضربه عبد الرحمن بن ملجم أى أحد الخوارج الذين يكفرون مرتكب الكبيرة بسيف مسموم فى جبهته فوصلت الى دماغه وقال عليه الصلاة والسلام لمعاوية أما انك ستلى أمر أمتى من بعدى فاذا كان ذلك فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم قال معاوية فما زلت أرجوها حتى قمت مقامي هذا رواه ابن عساكر

ومن ذلك ما رواه مسلم عن اسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف على أطم من أطام المدينة أى حصن من حصونها ثم قال هل ترون ما أرى انى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر فكانت فتنة قتلة عثمان وتتابعت الفتن الى فتنة الحرة وهى أرض ذات حجارة سود بظاهر المدينة وأخرج البيهقى عن الحسن البصرى قال لما كان يوم الحرة قتل أهلى حتى لا يكاد ينفلت منهم أحد وأخرج أيضاً عن أنس بن مالك قال قتل يوم الحرة سبعمائة رجل من حملة القرآن منهم ثلاثمائة من الصحابة وذلك في خلافة يزيد أى زمن ملكه وسبب ذلك أن أهل المدينة لما ظهر

فسق يزيد خلعوه وأخرجوا عامله عثمان بن محمد بن أبي سفيان من بينهم فبعث اليهم عسكراً عدته سبعة وعشرون الف فارس وخمسة عشر الف راجل وأخرج أيضاً عن مغيرة قال انتهب أبو مسلم بن عقبه أمير جيش يزيد المدينة أى أباح للجيش نهبها والقتل فيها ثلاثة أيام وافتضّ بها الف عذراء ثم بعد الثلاثة أيام أخذ عليهم البيعة ليزيد على انهم عبيده ان شاء أعتق وان شاء قتل ثم سار بالجيش الى مكة لقتال ابن الزبير فمات بقديد واستخلف على الجيش حصين بن نمير بعهد يزيد اليه بذلك فنزل بمكة وحاصرها ورمى الكعبة بالمنجنيق فجاء الخبر بموت يزيد فرحل بالجيش الى الشام

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن الزبير (ويل لك من الناس وويل للناس منك) وذلك لما احتجم صلى الله عليه وسلم وأعطاه الدم وقال اذهب فواره حيث لا يراه أحد قال فذهبت فشربته ثم أتيته فقال ماصنعت بالدم قلت غيبته قال لعلك شربته قلت شربته فكان ما كان من أمره مع الحجاج الثقفي لما بعثه عبد الملك بن مروان لقتاله بجيش عظيم من حصاره بمكة ورميه الكعبة بالمنجنيق ثم قتله وصلبه أياما الى غير ذلك وهذا تسبب عن شرب دمه صلى الله عليه وسلم لانه بضعة من النبوة نورانية قوت قلبه حتى زادت شجاعته وعلت همته عن الانقياد لغيره ممن لا يستحق امارة فضلا عن الخلافة وجاء انه لما شرب دمه صلى الله عليه وسلم تضوع فمه مسكا وبقيت رائحته موجودة في فمه الى أن صلب بعد قتله سنة ثلاث وسبعين قال الامام مالك وكان أحق بها من عبد الملك وأبيه مروان

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام الخلافة بعدى فى أمتي ثلاثون

سنة ثم ملك بعد ذلك قال الحافظ أراد خلافة النبوة وأما معاوية فمن بعده فعلى طريق الملوك ولو سموا خلفاء وأخرج البيهقي في المدخل عن سفينة أول الملوك معاوية لان اسم الخلافة انما هو لمن صدق عليه هذا الاسم بعمله بالسنة والمخالفون ملوك وان تسموا خلفاء ولم يكن فى الخلافة الا الاربعة والحسن بن على ختامهم فان مدة الصديق سنتان وثلاثة أشهر وتسعة أيام وعمر عشر سنين وستة أشهر وخمسة أيام وعثمان احدى عشرة سنة واحدي عشر شهراً وتسعة أيام وعلى أربع سنين وتسعة اشهر وسبعة أيام والحسن باقي الثلاثين الى أن نزل لمعاوية في نصف جمادي الاولى سنة احدى وأربعين من الهجرة

ومن ذلك ماأخرجه أبو نعيم عن ابن عباس قال حدثتني أم الفضل انها مرت به صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى الحجر فقال انك حامل بغلام فاذا ولدته فأتني به قالت فلما ولدته أتيته به فاذن فى اذنه اليمني وأقام في اذنه اليسري والبأه من ريقه وسماه عبد الله وقال اذهبي بابى الخلفاء قالت فاخبرت العباس فاتاه فذكر له ذلك فقال هو ما أخبرتك هذا أبو الخلفاء الحديث

﴿ فصل ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم أخباره لابى ذر الغفارى ﴾
(بمنعه من مكة والمدينة وموته بارض الربذه)

روى أبو يعلى ان أباذر كان نائما بالمسجد (النبوى) فضربه صلى الله عليه وسلم برجله ثم قال له كيف تصنع اذا أخرجوك منه قال الحق بارض الشام فانها أرض المحشر والارض المقدسة قال كيف تصنع اذا أخرجوك منها قال ارجع الى مهاجرى قال وكيف تصنع اذا أخرجوك منه قال آخذ بسيفي فاضرب به قال أفلا تسمع خيراً من ذلك تسمع وتطيع وتنساق حيث ساقوك ثم قال

والله لالقـين الله وأنا سامع مطيع لعثمان وانما قال ذلك لانه كان بينه وبين عثمان شيء (وقد حصل)وذلك انه رضى الله عنه حضر في مجلس عثمان ذات يوم فقال عثمان رضى الله عنه أرأيتم من زكى ماله هل فيه حق لغـيره فقال كعب لا يا أمير المؤمنين فدفع أبو ذر في صدر كعب وقال له كذبت يا ابن اليهودي ثم تلا ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب الآية فقال عثمان اترون بأسا ان نأخذ مالا من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينوبنا من أمورنا ونعطيكموه فقال كعب لا بأس بذلك فرفع أبو ذر العصا فدفع بها في صدر كعب وقال يا ابن اليهودى ما أجرأك على القول في ديننا فقال له عثمان ما أكثر أذاك لى غيب وجهك عني فقد آذيتني فخرج أبو ذر الى الشام فكتب معاوية الى عثمان ان أبا ذر تجتمع اليه الجموع ولا آمن أن يفسدهم عليك فان كان لك في القوم حاجة فاحمله اليك فكتب اليه عثمان بحمله فحمله على بعير عليه قتب يابس معه خمسة من الصقالبة يطيرون به حتى اتوا به المدينـة قد انسلخت بواطن أفخاذه وكاد يتلف فقيل له انك تموت من ذلك فقال هيهات لن أموت حتى أنفي وذكر جوامع ما نزل به بعد ومن يتولى دفنـه فاحسن اليه فى داره أياماً ثم دخل اليه فجلس على ركبتيه وتكلم باشـياء وذكر الخبر فى ولد أبي العاص اذا بلغوا ثلاثين رجلا اتخذوا عباد الله خولا ومر فى الخبر بطوله وتكلم بكلام كثير وكان في ذلك اليوم قد اتى عثمان بتركة عبدالرحمن ابن عوف الزهري من المال فنضت البدر حتي حالت بين عثمان وبين الرجل القائم فقال عثمان اني لارجو لعبد الرحمن خـيرا لانه كان يتصـدق ويقرى الضيف وترك ما ترون فقال كعب الاحبار صدقت يا أمير المؤمنين فشـال أبو ذر العصا فضرب بها رأس كعب ولم يشغله ما كان فيه من الالم وقال يا ابن

اليهودى تقول لرجل مات وترك هـذا المال ان الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة وتقطع على الله بذلك وانا سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول مايسرنى أن أموت وأدع مايزن قيراطا فقال له عثمان وارِ عني وجهك فقال أسير الى مكة قال لا والله قال تمنعني من بيت ربى اعبده فيه حتى أموت قال اي والله قال فالى الشام قال لا والله قال البصرة قال لا والله فاختر غير هذه البلدان قال لا والله ماأختار غير ماذكرت لك ولو تركتنى فى دار هجرتي ما أردت شيئا من البلدان فسيرنى حيث شئت من البلاد قال فاني مسيرك الى (الربذة) قال الله اكبر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبرنى بكل ما أنا لاق قال عثمان وما قال لك قال أخبرنى باني أمنع من مكة والمدينة وأموت بالربذة ويتولى مواراتى نفر ممن يردون من العراق نحو الحجاز وبعث أبوذر الى جمل له فحمل عليه امرأته وقيل ابنته وأمر عثمان أن يتجافاه الناس حتى يسير الى الربذة فلما طلع عن المدينة ومروان يسيره عنها اذ طلع عليه على بن أبى طالب رضي الله عنه ومعه ابناه وعقيل أخوه وعبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر فاعترض مروان فقال يا على ان أمير المؤمنين قد نها الناس أن يصحبوا أبا ذر فى مسيره ويشيعوه فان كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك فحمل عليه على بن أبى طالب بالسوط بين أذنى راحلته وقال تنح نحاك الله الى النار ومضى مع أبي ذر فشيعه ثم ودعه وانصرف فلما أراد على الانصراف بكى أبو ذر وقال رحمكم الله أهل البيت اذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا مروان الى عثمان ما فعل به على بن أبى طالب فقال عثمان يا معشر المسلمين من يعذرني من على رد رسولى عما وجهته له وفعل كذا والله لنعطينه حقه فلما رجع على استقبله الناس فقالوا

ان أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أباذر فقال علي (غضب الخيل على اللجم) ثم جاء فلما كان بالعشي جاء الى عثمان فقال له ما حملك على ما صنعت بمروان واجترأت عليّ ورددت رسولي وأمري قال أما مروان فانه استقبلني يردني فرددته عن ردي وأما أمرك فلم أرده قال عثمان أو لم يبلغك اني قد نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشييعه فقال علي أو كل ما أمرتنا به من شيء يرى طاعة لله والحق في خلافه اتبعنا فيه أمرك بالله لا نفعل قال عثمان أقد مروان قال وما أقيده قال ضربت بين أذني راحلته قال أما راحلتي فهي تلك فان أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل وأما أنافوالله لئن شتمني لاشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول الا حقا قال عثمان ولم لا يشتمك اذا شتمته فوالله ماأنت عندي بافضل منه فغضب علي بن أبي طالب وقال الى تقول هذا القول وبمروان تعدلني فأنا والله أفضل منك وأبي أفضل من أبيك وأمي أفضل من أمك وهذه نبلي قدنشلتهاوهلم فاقبل بنبلك فغضب عثمان واحمر وجهه فقام ودخل داره وانصرف علي فاجتمع اليه أهل بيته ورجال من المهاجرين والانصارفلما كان من الغد واجتمع الناس الى عثمان شكا اليهم عليا وقال انه يعيبني ويظاهر من يعيبني يريد بذلك أباذر وعمار بن ياسر وغيرهما فدخل الناس بينهما وقال له والله ما أردت تشييع أبا ذر الا لله

ولنرجع الى مانحن فيه من حديث أبي ذر فقد كان رضي الله عنه أبطأ في المسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لعذر في غزوة تبوك وكان عليه الصلاة والسلام نزل في بعض الطريق قال أبو ذر فطلعت عليه نصف النهار وقد أخذ مني العطش وفي حديث ابن اسحاق فنظر ناظر من

المسلمين فقال يارسول الله ان هذا الرجل يمشى على الطريق وحده فقال صلى الله عليه وسلم كن أبا ذر فلما تأمله القوم قالوا يا رسو الله هو والله أبو ذر فقال رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده (فكان كذلك) روي ابن اسحاق عن ابن مسعود لما نفي عثمان أبا ذر الى أرض الربذة واصابه بها قدره لم يكن معه أحد الا امرأته وغلامه فأوصاهما ان غسلاني وكفناني ثم ضعاني على قارعة الطريق فاول ركب يمر بكم فقولوا هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعينونا على دفنه فلما مات فعلا ذلك به وأقبل ابن مسعود في رهط من أهل العراق فلم يرعهم الا والجنازة على ظهر الطريق وقد كادت الابل تطؤها وقام اليهم الغلام فقال هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعينونا على دفنه فاستهل عبدالله ابن مسعود يبكى ويقول صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم تمشى وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك ثم نزل هو وأصحابه فواروه ثم حدثهم ابن مسعود بالحديث

﴿ فصل ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم اخباره بعمرة الحديبية ﴾

رأى النبي صلي الله عليه وسلم في منامه انه دخل البيت هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين كما ذكره الواقدي فخرج يوم الاثنين هلال ذي القعدة سنة ستة من الهجرة بمن معه من المهاجرين والانصار ومن لحق من العرب وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة ليأمن الناس حربه وليعلموا انه انما خرج زائرا للبيت ومعظما له حتى نزل باقصى الحديبية على حفرة فيها قليل من الماء فلم يتركوه يلبث حتى نزحوه وشكى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم ان يجعلوه فيه فوالله مازال يفور بالرى حتى صدروا عنه بعد ورودهم زاد ابن سعد حتى

اغترفوا بآنيتهم جلوسا على شفير البئر فلما بلغ قريشاً نزوله بها قالوا وان كان جاء لا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تحدث بذلك عنا العرب أبداً فأرسلت سهيلا بن عمرو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ماأرسلت عروة بن مسعود وخلافه وقالت له اذهب الى هذا الرجل فصالحه ولا تكن في صلحه الا أن يرجع عنا عامه هذا فقال صلى الله عليه وسلم لما رآه مقبلا قد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا الرجل فلما انتهى الى النبي صلى الله عليه وسلم وبرك على ركبتيه وتربع المصطفى وجلس المسلمون حوله جرى بينهما القول حتى وقع بينهما الصلح وطلب سهيل أن يكتب كتاب بذلك فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب وهو على بن أبي طالب وقال له اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل أما الرحمن فوالله ما أدرى ماهو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب فقال المسلمون والله لا نكتبها الا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي صلى الله عليه وسلم اكتب باسمك اللهم ثم قال هذا ما قاضي عليه محمد رسول الله فقال سهيل والله لو كنا نعلم انك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم والله انى لرسول الله وان كذبتموني فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلى امحه فقال لا والله لا أمحوك أبدا قال العلماء وهذا الذى فعله على من باب الادب المستحب لان المعظيم اذا أمر بشيء وظن المأمور انه لم يحتمه فالادب في حقه التوقف حتى يتحقق ما عند الآمر وان لا لم يجز لعلى تركه وعند الواقدي ان أسيد بن حضير وسعد بن عبادة أخذا بيد على ومنعاه أن يكتب الا محمد رسول الله والا فالسيف بيننا وبينهم وارتفعت الاصوات فجعل صلى الله عليه وسلم يخفضهم ويومئ بيده اليهم

اسكتوا ثم قال صلى الله عليه وسلم لعلي أرني مكانها فأراه مكانها فمحاه وكتب ابن عبد الله (زاد النسائي عن علي اما ان لك مثلها وستأتيها وأنت مضطر يشير الى ما وقع لعلي يوم الحكمين فانه لما كتب الكاتب هذا ما صالح عليه علي أمير المؤمنين أرسل معاوية يقول لو كنت أعلم انه أمير المؤمنين ماقاتلته امحها وا كتب ابن أبي طالب فقال علي الله أكبر مثل بمثل امحها) وتمام الكتاب فقال صلي الله عليه وسلم على أن تخلو بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل والله لا تتحدث العرب انا أخذنا قهراً ولكن ذلك من العام المقبل فكتب على ذلك فقال سهيل وعلى انه لا يأتيك منا رجل وان كان على دينك الا رددته الينا وان من جاء منكم لم نرده اليكم فقالوا يا رسول الله أنكتب هذا قال نعم فانه من ذهب منا اليهم فأبعده الله ومن جاء منهم الينا فسيجعل الله له فرجا ومخرجا فان قلت ما الحكمة في كونه عليه الصلاة والسلام وافق سهيلا على أن لا يأتيه رجل منهم وان كان على دين الاسلام الا ويرده الى المشركين فالجواب ان المصلحة المترتبة على اتمام هذا الصلح هي ماظهر من ثمراته الباهرة وفوائده الظاهرة التي علمها صلى الله عليه وسلم وخفيت على غيره فحمله ذلك على موافقتهم لانه لا يترك ما فيه مصلحة للمسلمين وقد علم ان الله سيجعل للمستضعفين فرجا ومخرجاً كما أخبر بذلك (فكان كما قال) فظهرت مصلحة هذا الفتح التي كانت عاقبتها فتح مكة واسلام أهلها كلهم ودخول الناس في دين الله أفواجا وذلك انهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين ولا تتظاهر عندهم أمور النبي صلي الله عليه وسلم كما هي ولا يخلون بمن يعلمهم بها مفصلة فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين وجاءوا الى المدينة وذهب المسلمون الى مكة وخلوا بأهلهم وأصدقائهم

وغيرهم ممن يستنصحونهم وسمعوا منهم أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته الظاهرة واعلام نبوته المتظاهرة وحسن سيرته وجميل طريقته وعاينوا بأنفسهم كثيراً من ذلك فمالت أنفسهم الى الايمان حتى بادر خلق منهم الى الاسلام قبل فتح مكة فاسلموا فيما بين صلح الحديبية وفتح مكة وازداد الآخرون ميلا الى الاسلام فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم لما كان قد تمهد لهم من الميل وكانت العرب من غير قريش في البوادي ينتظرون باسلامهم اسلام قريش فلما أسلمت قريش أسلمت العرب (ولابي ذر) قال عمر ابن الخطاب فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت ألست نبي الله حقاً قال بلى قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل قال بلى قلت فلم نعط الدنية أى الخسة في ديننا اذاً قال انى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري قلت أوليس كنت تحدثنا انا سنأتي البيت فنطوف به قال بلى أفأخبرتك انا نأتيه العام قلت لا قال فانك آتيه ومطوّفٌ به ومن حديث سهل بن حنيف فقال يا ابن الخطاب انى رسول الله ولن يضيعني الله فرجع متغيظاً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر قال عمر فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً قال بلى قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل قال بلى قلت فلم لدنية فى ديننا اذاً قال أبو بكر لعمر أيها الرجل انه رسول الله ولن يعصى ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه أى بأمره فوالله انه على الحق قلت أوليس كان يحدثنا انا سنأتى البيت فنطوف به قال أفأخبرك انا نأتيه العام قلت لا قال فانك آتيه ومطوف به فأجابه بمثل جوابه له صلى الله عليه وسلم سواء فدل على انه أكمل الصحابة وأعرفهم باحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم وأعلمهم بأمور الدين وأشدهم موافقة لأمر الله تعالى وللجلالة قدر أبي بكر وسعة علمه عند عمر لم يراجع

أحداً في ذلك بعده صلى الله عليه وسلم غير الصديق وانما سأله بعد المصطفى وجوابه له لشدة ماحصل له من الغيظ وقوته في نصر الدين واذلال الكافرين وفي البخارى قال عمر فعملت لذلك أعمالا وفي ابن اسحاق مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً وعند الواحدي عن ابن عباس لقد أعتقت بسبب ذلك رقابا وصمت دهراً وانما عمل ذلك وان كان معذوراً في جميع ماصدر منه بل مأجوراً لانه مجتهد لتوقفه عن المبادرة في امتثال الامر حتى قال ماشككت منذ أسلمت الا هذه الساعة قال السهيلى هذا الشك هو مالا يصر صاحبه عليه وانما هو من باب الوسوسة التي قال فيها صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي رد كيده الى الوسوسة ففيه أن المؤمن قد يشك ثم يجدد النظر في دلائل الحق فيذهب شكه قال الحافظ لكن الذي يظهر انه توقف منه ليقف على الحكمة في القضية وتنكشف عنه الشبهة

وتحقيقاً لرؤيته صلى الله عليه وسلم لما هل ذو القعدة يعني سنة سبع أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التي صدهم المشركون عنها بالحديبية وان لايتخلف أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف منهم الا رجال استشهدوا بخيبر ورجال ماتوا وخرج معه صلى الله عليه وسلم من المسلمين الفان وساق عليه الصلاة والسلام ستين بدنة وحمل السلاح والبيض والدرع والرماح وقاد مائة فرس وأقام صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثا قضى فيها أعمال العمرة وفي البخارى من حديث البراء فلما دخلوا يعني مكة ومضى الاجل أتوا عليا فقالوا قل لصاحبك أخرج عنا فقد مضي الاجل فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وقد طاف بين الصفا والمروة على راحلته فلما كان الطواف السابع عند فراغه

ولما وقف الهدي عند المروة قال هذا منحر وكل فجاج مكة منحر فنحر عند المروة وحلق هناك وكذلك فعل المسلمون

(فصل ومن معجزاته اخباره بدفن أبي أيوب الانصارى عند سور القسطنطينية)

لما تجهز يزيد بن معاوية لغزو القسطنطينية لم يتخلف عنه أحد حتى كان فيمن خرج أبو أيوب الانصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صار على الخليج ثقل أبو أيوب الانصارى فأتاه يزيد عائداً فقال ماحاجتك أبا أيوب فقال أما دنياكم فلا حاجة لى فيها ولكن قدمني ما استطعت فى بلاد العدو فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (يدفن عند سور القسطنطينية رجل صالح) أرجو أن أكون هو فلما مات أمر يزيد بتكفينه وحمل على سريره ثم أخرج الكتائب فجعل قيصر يرى سريراً يحمل والناس يقتتلون فأرسل الى يزيد ماهذا الذى أرى قال صاحب نبينا وقد سألنا أن نقدمه في بلادك ونحن منفذون وصيته أو تلحق أرواحنا بالله فارسل اليه العجب كل العجب كيف يدهي الناس أبوك وهو يرسلك فتعمد الى صاحب نبيك فتدفنه في بلادنا فاذا وليت أخرجناه الى الكلاب فقال يزيد انى والله ما أردت أن أودعه بلادكم حتى أودع كلامي آذانكم لئن بلغني انه نبش من قبره أو مثل به لاتركت بارض العرب نصرانيا الا قتلته ولا كنيسة الا هدمتها فبعث اليه قيصر أبوك كان أعلم بك فوحق المسيح لاحفظنه بيدى سنة فلقد بني على قبره قبة يسرج فيها الى اليوم

(فصل ومن معجزاته إخباره بان الحسن سيصلح الله به بين فئتين عظيمتين)

لما استشهد على رضى الله تعالى عنه عمد أهل العراق الى ابنه الحسن فبايعوه ثم أشاروا عليه بالمسير ليأخذ الشام من معاوية وسار معاوية بجيش

الشام لقصده فلما تقارب الجيشان علم الحسن رضى الله عنه انه لم تغلب احدى الطائفتين حتى يذهب أكثر الاخرى فرأي المصلحة فى جمع الكلمة وترك القتال فكتب الى معاوية يخبره بانه يصير الامر اليه وينزل عنه على أن يشترط عليه أن لا يطالب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان فى أيام أبيه وأن يكون ولى العهد من بعده ففرح معاوية وأجاب الى ذلك الا أنه قال الا عشرة أنفس لا أؤمنهم فراجعه الحسن فيهم فكتب اليه معاوية انى قد آليت انى متي ظفرت بقيس بن سعد بن عبادة قطعت لسانه ويده فراجعه الحسن انى لا أبايعك أبداً وأنت تطلب قيساً وغيره بتبعة قلت أو كثرت فبعث اليه معاوية حينئذ برق أبيض وقال له اكتب ماشئت فيه فانى التزمه فاصطلحا على ذلك وخلع الحسن نفسه وسلم الامر الى معاوية ببيت المقدس تورعا وقطعاً للشر وذلك مصداق قوله صلى الله عليه وسلم في حق الحسن ان ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين رواه البخاري ولكونه نزل عنها ابتغاء وجه الله عوضه الله وأهل بيته عنها بالخلافة الباطنة حتى ذهب قوم الى أن قطب الاولياء في كل زمان لا يكون الا من أهل البيت

﴿ الباب السابع فى قيام الساعة والحشر والنشر ﴾

روى أن الحارث بن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متي قيام الساعة وانى قد القيت حباتي في الارض فمتى تمطر السماء وحمل امرأتى ذكر أم أنثى وما أعمل غداً وأين أموت فانزل الله في كتابه العزيز قوله تعالي (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأى أرض تموت) أى كما لاتدرى فى أى وقت تموت (روي) أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر

الى رجل من جلسائه يديم النظر اليه فقال الرجل من هذا قال ملك الموت فقال كأنه يريدنى فر الريح ان تحملني وتلقيني بالهند ففعل فقال الملك كان دوام نظرى اليه تعجبا منه اذ أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك

فالله سبحانه وتعالى لم يعلم الانسان بما يحتاج اليه فى المعاش والمعاد فكيف يعلمه بما لا حاجة له فيه وهو قيام الساعة وانما الحاجة الى العلم بانها تكون وقد أعلمه الله على لسان أنبيائه

﴿ فصل فى علامات قيام الساعة ﴾

قد أخبر صلى الله عليه وسلم أصحابه باشياء بين موته وبين قيام الساعة وحذر من مفاجآتها أى اتيانها فجأة على غير تأهب كما يحذر من حاد عن الطاعة وان الساعه لاتقوم حتى تظهر جملة من الامارات الدالة على دنوها في العالم فاذا جاءت الطامة الكبرى يطيش منها الجاهل والعالم قال الله تعالى (يايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) قيل ان هذه لزلزلة هى التي تكون معها الساعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الصور انه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصاعقة ونفخة القيام لرب العالمين وان عند نفخة الفزع يسير الله الجبال وترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة وتكون الارض كالسفينة تضربها الامواج أو كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح وقال مقاتل وابن زيد هذا في أول يوم من أيام الآخرة (روى) ان هاتين الآيتين نزلتا بالليل والناس يسيرون فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع الناس حوله فقرأهما عليهم فلم ير باك أكثر من تلك الليلة فلما

أصبحوا لم يحطوا السرج ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا القدور والناس بين باك وجالس وحزين متفكر فقال عليه الصلاة والسلام أتدرون أي ذلك اليوم هو قالوا الله ورسوله اعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النار من ولدك فيقول آدم ومابعث النار يعنى من كم فيقول الله عز وجل من كل ألف وتسعمائة تسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة فعند ذلك يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى فكبر ذلك على المؤمنين وبكوا وقالوا فمن ينجو يارسول الله فقال عليه الصلاة والسلام ابشروا وسددوا وقاربوا فان معكم خليقتين ماكانا فى قوم الا كثره (يأجوج ومأجوج) ثم قال انى لارجو ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ثم قال انى لارجو ان تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا وحمدوا الله ثم قال انى لارجو أن تكونوا ثلثى أهل الجنة ان أهل الجنة مائة وعشرون صفا ثمانون منها أمتى وما المسلمون فى الكفار الا كالشامة في جنب البعير أو كالشعرة البيضاء فى الثور الاسود ثم قال ويدخل من أمتى سبعون ألفاً الى الجنة بغير حساب فقال عمر سبعون ألفاً قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفاً فقام عكاشة ابن محصن فقال يارسول الله أدع الله أن يجعلني منهم فقال أنت منهم فقام رجل من الانصار فقال مثل قوله فقال سبقك بها عكاشة فخاض الناس في السبعين الفا فقال بعضهم هم الذين ولدوا على الاسلام وقال بعضهم هم الذين آمنوا وجاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا فقال هم الذين لايكتوون ولا يكوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون

ثم علاماتها تنقسم الى قسمين (قسم لم يقع ، وقسم وقع)فمن القسم الاول

رفع الامانة والقرآن من الصدور والمصاحف وقلة الرجال وكثرة النساء بحيث يكون لخمسين امرأة قيم واحد وطلوع الشمس من مغربها فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعين فذلك حين لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً وفي مسلم عن أبي هريرة مرفوعا ثلاث اذا خرجن لم ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل طلوع الشمس من مغربها والدجال والدابة قال الحافظ والذى يترجح من مجموع الاخبار ان خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير الاحوال العامة في معظم الارض وينتهي ذلك بموت عيسى عليه السلام وان طلوع الشمس من مغربها هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير أحوال العالم العلوي وينتهى ذلك بقيام الساعة وفي مسلم عن عبد الله بن عمر رفعه أول الآيات طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحي فايهما خرجت قبل الاخري فالاخرى منها قريب وقال أبو عبد الله الحاكم الذي يظهر ان طلوع الشمس يسبق خروج الدابة ثم تخرج الدابة في ذلك اليوم أو الذى يقرب منه قال الحافظ والحكمة في ذلك ان عند طلوعها من مغربها يغلق باب التوبة فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر تكميلا للمقصود من اغلاق باب التوبة وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التى تحشر الناس

ومن القسم الثانى وهو الذى وقع اشتهار الخيانة وحسد الاقران بعضهم لبعض ومنه لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين كلهم يزعم انه رسول الله زاد في حديث ثوبان وانه خاتم النبيين لا نبي بعدي وروى أبو يعلى باسناد حسن عن ابن الزبير لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذابا منهم مسيلمة والعنسى والمختار وقد ظهر مصداق ذلك في آخر زمنه صلى الله

عليه وسلم فخرج مسيلمة باليمامة والاسود العنسي باليمن ثم خرج فى خلافة الصديق طليحة بن خويلد وسجاح التميمية وقد قتل الاسود العنسي قبل موته صلى الله عليه وسلم وقتل مسيلمة فى خلافة أبي بكر وطليحة تاب ومات على الاسلام على الصحيح وقيل ان سجاح تابت ثم كان أول من خرج بعدهم المختار بن أبى عبيد الثقفي غلب على الكوفة فى أول خلافة ابن الزبير وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقا فانهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم ينشأ لهم ذلك من جنون أو سوداء وانما المراد من قامت له شوكة وبدت له شبهة مثل ما تقدم وقد أهلك الله تعالى من وقع له ذلك منهم وبقي منهم من يلحقه باصحابه وآخرهم الدجال الاكبر ومنه لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وقد وقع ذلك فلم يبق الا رسمه وتكثر الزلازل وقد كثر ذلك فى البلاد الشمالية والشرقية والغربية حتى قيل انها استمرت فى بلدة من بلاد الروم التى للمسلمين ثلاثة أشهر . وتظهر الفتن أى تكثر وتشتهر فلا تكتم ويكثر الهرج وهو القتل ومنه تطاول الناس فى البنيان بان يكون كل من يبني يريد ارتفاعه أعلى من ارتفاع الآخر أو المراد المباهاة به فى الزينة والزخرفة أو أعم من ذلك وقد وجد ذلك وهو فى ازدياد ومنه مرور الرجل بقبر الرجل فيقول ياليتني مكانه لما يرى من عظيم البلاء ورياسة الجهلاء وخمول العلماء واستيلاء الباطل فى الاحكام وعموم الظلم واستحلال الحرام والتحكم بغير حق فى الاموال والاعراض والابدان كما فى هذا الزمان فقد علا الباطل على الحق وتغلب العبيد على الاحرار من سادات الخلق فباعوا الاحكام ورضى بذلك منهم الحكام فلا حول ولا قوة الا بالله ولا ملجأ ولا منجا من الله الا اليه ثم لا يلزم كونه فى جميع الناس والبلاد والازمان بل يصدق باتفاقه لبعض الناس فى بعض البلاد فى بعض

الازمان ومنه في حديث أبي هريرة عند الشيخين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز يضيء لها أعناق الابل ببصري) وقد خرجت نار عظيمة على قرب مرحلة من المدينة وكان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الاربعاء بعد العشاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة وفي يوم الثلاثاء اشتدت حركتها وعظمت رجفتها وتتابعت حطمتها وارتجت الارض بمن عليها وعجت الاصوات لبارئها ودامت الحركة اثر الحركة حتي أيقن أهل المدينة بوقوع الهلكة وزلزلوا زلزالا شديدا من جملة ثمانية عشر حركة في يوم واحد دون ليلته قال القرطبي في تذكرته كان بدؤها زلزلة عظيمة ليلة الاربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة الى ضحوة النهار يوم الجمعة فسكنت بقريظة عند قاع التنعيم بطرف الحرة ترى في صورة البلد العظيم عليها سور محيط عليه شراريف كشراريف الحصون وابراج وبري رجال يقودونها لاتمر على جبل الادكته واذابته ويخرج من مجموع ذلك نهر أحمر ونهر أزرق له دوي كدو الرعد يأخذ الصخور والجبال بين يديه وينتهي بها الي محط الركب العراقي فاجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم وانتهت النار الى قرب المدينة وكان يأتينا ببركته صلى الله عليه وسلم نسيم بارد وشوهد من هذه النار غليان كغليان البحر وانتهت الى قرية من قرى اليمن فاحرقتها قال القرطبي وقال لي بعض أصحابنا ولقد رأيتها صاعدة في الهواء من مسيرة خمسة أيام من المدينة قال وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى وذلك مصداق قوله صلى الله عليه وسلم تضيء لها أعناق الابل ببصرى وقال أبو شامة وردت كتب من المدينة في بعضها انه ظهرت نار بالمدينة انفجرت من الارض وسال منها واد من

نار حتى حاذي جبل أحد وفي آخر سال منها واد يكون مقداره أربع فراسخ وعرضه أربعة أميال يجري على وجه الارض يخرج منه مهاد وجبال صغار وقال الشيخ قطب الدين القسـطلاني أقامت اثنين وخمسين يوما قال وكان انطفاؤها في السابع والعشرين من شهر رجب ليلة الاسراء والمعراج وقد تم من هذا الحديث المراد وارتفع الشك والعناد

﴿ فصل في بيان امكان الحشر والنشر ﴾

ان العقلاء اختلفوا في وقوع الحشر والنشر وعدم وقوعـه وقال بامكانه عالم من الناس وهم جمهور أرباب الملل والاديان (وما كان معلوم الامتناع بالبديهة امتنع وقوع الاختلاف فيه) ولنذكر أمثلة دالة على امكانه منها مما يجده كل واحد منا من نفسـه من الزيادة والنمو بسبب السمن ومن النقصان بسبب الهزال ثم انه قد يعود الى حالته الاولى بالسمن واذا ثبت هـذا نقول ماجاز تكون بعضه لم يمتنع أيضا تكون كله ولما ثبت ذلك ظهر ان الاعادة غـير ممتنعة واليه الاشارة بقوله تعالى (وننشئكم فيما لاتعلمون) يعني انه سبحانه لما كان قادراً على انشاء ذواتكم أولا ثم على انشـاء أجزائكم حال حياتكم ثانيا شيئا فشيئا من غير أن تكونوا عالمين بوقت حدوثه وبوقت نقصانه فوجب القطع أيضاً بانه لا يمتنع عليه سبحانه اعادتكم بعد البلى في القبور لحشر يوم القيامة ومنها انه تعالى كان قادرا على أن يخلقنا ابتداء من غير مثال سبق فلان يكون قادراً على ايجادنا مرة أخرى مع سبق الايجاد الاول كان أولى وهذا الكلام قرره تعالى في آيات كثيرة منها في قوله (انه يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) ومنها انه تعالى لما قدر على تخليق ما هو أعظم من أبدان الناس فكيف يقال انه لايقـدر على اعادتها فان من كان الفعـل الاصعب عليه سهلا فلان

يكون الفعل السهل الحقير عليه سهلا كان أولى وهذا المعني مذكور فى آيات كثيرة منها قوله تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم) ومنها ان الاحياء بعد الموت لا يستنكر الا من حيث انه يحصل الضد بعد حصول الضد الا ان ذلك غير مستنكر في قدرة الله تعالى لانه لما جاز حصول الموت عقب الحياة فكيف يستبعد حصول الحياة مرة أخرى بعد الموت فان حكم الضدين واحد قال تعالى مقرراً لهذا المعنى (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين) وأيضاً نجد النار مع حرها ويبسها تتولد من الشجر الاخضر مع برده ورطوبته فقال (الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون) فكذا ههنا فبهذا علم ان القول بحصول الحشر والنشر غير مستبعد في العقول

﴿ فصل فى ان المعاد حق واجب وهو الدليل الاول ﴾

انه سبحانه وتعالى كلف عبيده بالعبودية فقال (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) والحكيم اذا أمر عبده بشيء فلا بد وأن يجعله فارغ البال منتظم الاحوال حتى يمكنه الاشتغال باداء تلك التكاليف والناس جبلوا على طلب اللذات وتحصيل الرحات لانفسهم فلو لم يكن لهم زاجر من خوف المعاد لكثر الهرج والمرج ولعظمت الفتن وحينئذ لا يتفرغ المكلف للاشتغال باداء العبادات فوجب القطع بحصول دار الثواب والعقاب لتنظيم أحوال العالم حتى يقدر المكلف على الاشتغال باداء العبودية فان قيل لم لا يجوز أن يقال انه يكفي في بقاء نظام العالم مهابة الملوك وسياستهم وأيضا فالاوباش يعلمون انهم لو حكموا بحسن الهرج والمرج لانقلب الامر عليهم ولقدر غيرهم على قتلهم وأخذ أموالهم فلهذا المعنى يحترزون عن اثار الفتن والجواب

ان مجرد مهابة السلاطين لا تكفي في ذلك وذلك لان السلطان اما أن يكون قد بلغ في القدرة والقوة الى حيث لا يخاف من الرعية واما أن يكون خائفا منهم فان كان لا يخاف الرعية مع انه لا خوف له من المعاد فحينئذ يقدم على الظلم والايذاء على أقبح الوجوه لان الداعية النفسانية قائمة ولا رادع لها في الدنيا ولا في الآخرة وان كان يخاف الرعية فحينئذ الرعية لا يخافون منه خوفا شديداً فلا يصير ذلك رادعا لهم عن القبائح والظلم فثبت ان نظام العالم لا يتم ولا يكمل الا بالرغبة في المعاد والرهبة عنه

﴿ فصل في الدليل الثاني ﴾

انه تعالى خلق هذا العالم وخلق كل من فيه من الناس فاما ان يقال انه تعالى خلقهم لا لمنفعة ولا لمصلحة أو يقال انه خلقهم لمصلحة ومنفعة والاول لا يليق بالرحيم الكريم والثاني وهو أن يقال انه خلقهم لمقصود ومصلحة وخير وذلك الخير والمصلحة اما أن يحصل في هذه الدنيا أو في دار أخرى والاول باطل من وجهين الاول ان لذات هذا العالم جسمانية واللذات الجسمانية لا حقيقة لها الا ازالة الالم وازالة الالم أمر عدمي وهذا العدم كان حاصلا حال كون كل واحد من الخلائق معدوما وحينئذ لا يبقى للتخليق فائدة والثاني ان لذات هذا العالم ممزوجة بالالام والمحن بل الدنيا طافحة بالشرور والآفات والمحن والبليات واللذة فيها كالقطرة في البحر فعلمنا ان الدار التي يصل فيها الخلق الى تلك الراحات المقصودة دار أخرى سوى دار الدنيا فان قالوا أليس انه تعالى يؤلم أهل النار باشد العذاب لا لاجل مصلحة وحكمة فلم لا يجوز أن يقال انه تعالى يخلق الخلق في هذا العالم لا لمصلحة ولا لحكمة قلنا الفرق ان ذلك الضرر ضرر مستحق على أعمالهم الخبيثة وأما الضرر

الحاصل في الدنيا فغير مستحق فوجب أن يعقبه خيرات عظيمة ومنافع جابرة لتلك المضار السالفة والا لزم أن يكون الفاعل شريراً مؤذياً وذلك ينافي كونه أرحم الراحمين وأ كرم الاكرمين

﴿ فصل في الدليل الثالث ﴾

لو لم يحصل للانسان معاد لكان الانسان أخس من جميع الحيوانات في المنزلة والشرف واللازم باطل فالملزوم مثله بيان الملازمة ان مضار الانسان في الدنيا أ كثر من مضار جميع الحيوانات فان سائر الحيوانات قبل وقوعها في الالام والاسقام تكون فارغة البال طيبة النفس لانه ليس لها فكر وتأمل أما الانسان فانه بسبب ما يحصل له من العقل متفكر أبداً في الاحوال الماضية والاحوال المستقبلة فيحصل له بسبب أ كثر الاحوال الماضية أنواع من الحزن والاسف ويحصل له بسبب أ كثر الاحوال الآتية أنواع من الخوف لانه لا يدري انه كيف تحدث الاحوال فثبت ان حصول العقل للانسان سبب لحصول المضار العظيمة في الدنيا والالام النفسانية الشديدة القوية وأما اللذات الجسمانية فهي مشتركة بين الناس وبين سائر الحيوانات لان السرقين في مذاق الجعل طيب كما ان اللوزنج في مذاق الانسان طيب اذا ثبت هذا فنقول لو لم يحصل للانسان معاد به تكمل حالته وتظهر سعادته لوجب أن يكون كمال العقل سببا لمزيد الهموم والغموم والاحزان من غير جابر يجبر ومعلوم ان كل ما كان كذلك فانه يكون سببا لمزيد الخسة والشقاء الخالية عن المنفعة فثبت انه لولا حصول السعادة الاخروية لكان الانسان أخس الحيوانات حتى الخنافس والديدان ولما كان ذلك باطلا قطعا علمنا انه لا بد من الدار الاخرة وان الانسان خلق

للاخرة لا للدنيا وانه بعقله يكتسب موجبات السعادات الاخروية فلهذا السبب كان العقل شريفا

﴿ فصل في الدليل الرابع ﴾

طريقة الاحتياط فانا اذا آمنا بالمعاد وتأهبنا له فان كان هذا المذهب حقا فقد نجونا وهلك المنكر وان كان باطلا لم يضرنا هذا الاعتقاد غاية مافي الباب ان يقال انه تفوتنا هذه اللذات الجسمانية الا انا نقول يجب على العاقل أن لا يبالى بفوتها لامرين أحدهما انها في غاية الخساسة لانها مشترك فيها بين الخنافس والديدان والكلاب والثاني انها منقطعة سريعة الزوال والفناء فثبت ان الاحتياط ليس الا في الايمان بالمعاد ولذا قال الشاعر

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الاموات قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

﴿ فصل في الدليل الخامس ﴾

ان الحيوان مادام يكون حيوانا فانه ان قطع منه شيء مثل ظفر أو ظلف أو شعر فانه يعود ذلك الشيء وان جرح اندمل ويكون الدم جاريا في عروقه وأعضائه جريان الماء في عروق الشجر وأعضائه ثم اذا مات انقلبت هذه الاحوال فان قطع منه شيء أو شعرة أو ظفر لم ينبت وان جرح لم يندمل ولم يلتحم ورأيت الدم يتجمد في عروقه ثم في الاخرة سيئول حاله الى الفساد والانحلال ثم انا لما نظرنا الى الارض وجدناها شبيهة بهذه الصفة فانا نراها في زمان الربيع تفور عيونها وتربو تلالها وينجذب الماء الى اعضاء الاشجار وعروقها والماء في الارض بمنزلة الدم الجارى في بدن الحيوان ثم تخرج أزهارها وأنوارها وثمارها كما قال تعالى فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت

وربت وأنبتت من كل زوج بهيج وان جذمن نباتها شيء أخلف ونبت مكانه آخر مثله وان قطع غصن من أغصان الاشجار أخلف وان جرح التأم وهذه الاحوال شبيهة بالاحوال التي ذكرناها للحيوان ثم اذا جاء الشتاء واشتد البرد غارت عيونها وجفت رطوبتها وفسدت بقولها ولو قطعنا غصناً من شجرة ما أخلف فكانت هذه الاحوال شبيهة بالموت بعد الحياة ثم انا نري الارض في الربيع الثاني تعود الى تلك الحياة فاذا عقلنا هذه المعاني في احدي الصورتين فلم لا نعقل مثله في الصورة الثانية بل نقول لاشك ان الانسان أشرف من سائر الحيوانات والحيوانات أشرف من النبات وهو أشرف من الجمادات فاذا حصلت هذه الاحوال في الارض فلم لايجوز حصولها في الانسان فان قالوا ان أجساد الحيوانات تتفرق وتتمزق بالموت وأما الارض فليست كذلك فالجواب ان الانسان عبارة عن النفس الناطقة وهو جوهر باق أو ان لم نقل بهذا المذهب فهو عبارة عن أجزاء أصلية باقية من أول وقت تكون الجنين الى آخر العمر وهي جارية في البدن وتلك الاجزاء باقية فزال هذا السؤال

﴿ فصل في الدليل السادس ﴾

لاشك ان بدن الحيوان انما تولد من النطفة وهذه النطفة انما اجتمعت من جميع البدن بدليل ان عند انفصال النطفة يحصل الضعف والفتور في جميع البدن ثم ان مادة تلك النطفة انما تولدت من الاغذية المأكولة وتلك الاغذية انما تولدت من الاجزاء العنصرية وتلك الاجزاء كانت متفرقة في مشارق الارض ومغاربها واتفق لها ان اجتمعت فتولد منها حيوان أو نبات فأكله انسان فتولد منه دم فتوزع ذلك الدم على أعضائه فتولد منها أجزاء

لطيفة ثم عنـد استيلاء الشهوة سال من تلك الرطوبات مقدار معين وهو النطفة فانصب الى فم الرحم فتولد منه هـذا الانسان فثبت أن الاجزاء التى منها تولد بدن الانسان كانت متفرقة فى البحار والجبال واوج الهواء ثم انها اجتمعت بالطريق المذكور فتولد منهـا هـذا البدن فاذا مات تفرقت تلك الاجزاء على مثال التفرق الاول واذا ثبت هذا تقول وجب القطع أيضاً بانه لايمتنع أن يجتمع مرة أخرى على مثال الاجتماع الاول وأيضاً فذلك المنى لما وقع في رحم الام فقـد كان قطرة صغيرة ثم تولد منه بدن الانسان وتعلقت الروح به حال ماكان ذلك البدن في غاية الصغر ثم ان ذلك البدن لاشك انه فى غاية الرطوبة ولا شك انه يتحلل منـه أجزاء كثيرة بسبب عمل الحرارة الغريزية فيها وأيضاً فتلك الاجزاء البدنية الباقية أبداً في طول العمر تكون في التحلل ولولا ذلك ماحصل الجوع وما حصلت الحاجة الى الغـذاء مع انا نقطع بان هـذا الانسان الشيخ هو عين ذلك الانسان الذي كان فى بطن أمه ثم انفصـل وكان طفلا ثم شابا فثبت أن الاجزاء البدنية دائمة التحلل وان الانسان هو هو بعينه فوجب القطع بان الانسان إما أن يكون جوهراً مفارقا مجرداً واما أن يكون جسما نورانيا لطيفا باقياً مع تحلل هذا البدن فاذا كان الامر كذلك فعلى التقديرين لايمتنع عوده الى الجثة مرة أخرى ويكون هـذا الانسان العائد عين الانسان الاول فثبت أن القول بالمعاد صدق

﴿ فصل فى الدليل السابع ﴾

دلت الدلائل على ان العالم محدث ولا بد له من محدث قادر ويجب أن يكون عالمًا لان الفعل المحكم المتقن لايصدر الا من العالم ويجب أن يكون

غنيا عنها والا لكان قد خلقها في الازل وهو محال فثبت أن لهـذا العالم الها قادراً عالما غنيا ثم لما تاملنا فقلنا هل يجوز في حق هذا الحكيم الغني عن الكل أن يهمل عبيده ويتركهم سدى ويجوز لهم أن يكذبوا عليه ويبيح لهم أن يشتموه ويجحـدوا ربوبيته ويأكلوا نعمته ويعبدوا الجبت والطاغوت ويجعلوا له أنداداً وينكروا أمره ونهيه ووعده ووعيده فههنا حكمت بديهة العقل بان هذه المعاني لا تليق الا بالسفيه الجاهل البعيد عن الحكمة القريب من العبث فحكمنا لاجل هذه المقدمة ان له أمرا ونهيا ثم تأملنا فقلنا هـل يجوز أن يكون له أمر ونهي مع انه لا يكون له وعد ووعيـد فحكم صريح العقل بان ذلك غـير جائز لانه ان لم يقرن الامر بالوعـد بالثواب ولم يقرن النهي بالوعيد بالعقاب لم يتأكد الامر والنهي ولم يحصل المقصود فثبت انه لا بد من وعد ووعيد ثم تأملنا فقلنا هل يجوز أن يكون له وعد ووعيد ثم انه لا يفي بوعده لاهل الثواب ولا بوعيده لاهل العقاب فقلنا انه لا يجوز لانه لو جاز ذلك ما حصـل الوثوق بوعده ولا بوعيده وهـذا يوجب أن لا يبقي فائدة في الوعد والوعيد فعلمنا انه لابد من تحقيق الثواب والعقاب ومعـلوم أن ذلك لا يتم الا بالحشر والبعث وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب فهذه مقدمات يتعلق بعضها بالبعض كالسلسلة متى صح بعضها صح كلها ومتى فسد بعضها فسد كلها فدلت مشاهدة أبصارنا لهذه التغيرات على حدوث العالم ودل حدوث العالم على وجود الصانع الحكيم الغني ودل ذلك على وجود الامر والنهي ودل ذلك على وجود الثواب والعقاب ودل ذلك على وجود الحشر فان لم يثبت الحشر أدى ذلك الى بطلان جميع المقدمات المذكورة ولزم انكار العلوم البديهية وانكار العلوم النظرية القطعية فثبت انه

لابد لهـذه الاجساد البالية والعظام النخرة والاجزاء المتفرقة المتمزقة من البعث بعـد الموت ليصل المحسن الى ثوابه والمسئ الى عقابه فان لم تحصـل هـذه الحالة لم يحصل الوعد والوعيد وان لم يحصلا لم يحصل الامر والنهي وان لم يحصلا لم تحصـل الالوهية وان لم تحصل الالوهية لم تحصل هـذه التغيرات فى العالم وهذه الحجة هى المراد من قوله تعالى (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط الآية)

(خاتمة) اضطربت الاقوال في مقدار عمر الدنيا فقيل سبعة آلاف سنة وكسور وقيل غير ذلك وفهم ان هـذه الاقوال ناشئة من أحاديث وردت فى الشرع (وليس كذلك) ولذا اتفق ان رجلا من العلماء زار أحد ملوك الافرنج وكان معتبر المقام عنده فسأله الملك عن عمر الدنيا فحكى له الخـلاف الواقع فيـه فقال أهكذا عن نبيكم قال نعم قال له كذبت وافـتريت على الله لانه لو كان عن نبيكم ما كان فيه اختلاف فخجل منه (ومن اللطائف) ان بعض الفضلاء أخبر ان رجلا قال ليحيي بن معاذ الرازى رضى الله عنه انك لتحب الدنيا فقال يحيي للرجل اخبرنى عن الآخرة أبالطاعة تنال أم بالمعصية قال لا بل بالطاعة قال فاخبرني عن الطاعة أبالحياة تنال أم بالممات قال لا بل بالحياة قال فاخبرني عن الحياة أبالقوت تنال أم بغير القوت قال لا بل بالقوت قال فاخبرنى عن القوت أمن الدنيا هو أم من الآخرة قال لا بل من الدنيا قال فكيف لا أحب دنيا قـدر لى فيها قوت أكتسب به حياة أدرك بها طاعة أنال بها الاخرة فقال الرجل أشهد ان ذلك معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم (ان من البيان لسحرا)

﴿ وصلى الله على سيد المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾

(جدول للخطأ المطبعي الذي وقع في هذا الكتاب)

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٠٨	٢١	ن مثل	ان مثل
٢٨	٠٨	بالراسى	بالرأس
٣٠	١٠	على درة	على قدرة
٣١	١٣	والى مدبر	الى مدبر
٣٥	٢٠	يشهد أن يكون	يشهدان يكون
٣٦	٢١	وقشره	فقشره
٥٤	١٣	الحكمة	ما الحكمة
٥٧	١٧	ني	مني
٥٨	٠٣	ان الله	ان لله
٥٨	٠٦	الثامن	الثانى
٦٠	٠١	ب د	بعد
٧٣	٢١	العزائز	الغرائز
٧٦	٠٤	لحاجة	لحاجته
٧٦	٠٥	حاجة	حاجته
٩٠	٠١	حيث هو	حيث هي
١٢٢	٠٧	مملكة	مملكته
١٢٤	١٥	تدغوهم	تدعوهم
١٢٦	١٥	ذافت	ذاقت
١٣٦	٠٣	معجب	معجز

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
١٤١	١٤	لسب	اسلب
١٥٩	١٤	بن	بى
١٨٥	١٢	بعصيبته	بعصيبة
٢٠٠	١٧	ازوج	أزج
٢٢١	٤	عند	عنه
٢٣٥	٢١	وصداق	مصداق
٢٢٩	١٠	مستعبد	مستبعد

اهـــــداء الكتاب

الى سعادة المفضال

حسين رشدي باشا طبوزاده

مدير الاوقاف العمومية

ياصاحب الايادى البيضاء وناصر من يخدم الشريعة السمحاء :

أراني سعيدا بانتهاز هذه الفرصة الثمينة التي ساقها الىّ حب الخير بتقديم كتابي هذا (مرشد الخلق الى طريق الحق) لسعادتكم

وهو يامولاى اصدق عنوان لكتاب لاحظ فيه الانسان تمام المطابقة بين الاسم والمسمي لاني والحمد لله توخيت فيه أحسن الوسائل واقربها الطريق العلم الصحيح الموصل الى معرفة الحق مع مراعاة ماوصل اليه العقل الانساني من الرقى وسلامة الاختراع معتمدا فى كل ذلك على ماأشار اليه (القرآن الحكيم) ونبهت عليه السنة الصحيحة من الاستدلال على صحة الاعتقاد بما نراه من عجائب الكون الفائقة . وبدائع هـذا العالم الكبير المشاهدة . والمسموعة والمسطرة فى بطون التواريخ المتفق على صحتها والمشار اليها فى الكتب السماوية (عبرة لقوم يعقلون)

ولم يحملني على ركوب متن التعب فى سبيل الوصول الى هذا الغرض الشريف سوى اخلاصي في محبة ابناء وطني العزيز واعتقادي ان أشرف واجب أقدمه لهم هو هذه الخدمة الجليلة الصادقة

وما اشتمل عليه هذا الكتاب يعرف بطريق الاجمال من عنوانه الذى جاء مشيرا الى (رشدى) بكم وحسن اهدائه لكم

فلتحي الاوقاف التى أنتم لها نعم المدير فقد سرتم بها فى طريق رقيها المادي والادبى وكأن الشاعر الحكيم ارادكم بقوله

فأحيا ميت الاوقاف حتى ظننا أن سيحيي الواقفين

فتفضل يامولاى بقبول تقديم هذا الكتاب اليكم ونسبته لشرف عنايتكم لينال نصيبه الوافر من القبول والاقبال عليه من فضلاء الامة الاسلامية وعقلاء الامم الاخرى الذين يقدرون اللغة العربية قدرها ويعرفون أساليبها وحسن اشاراتها فيتمكن المتطلع اليه والمطلع عليه من الوقوف على الحقائق الدينية التى يسعد بها اولو العقل السليم

لازالت شمس معارفكم مشرقة على طلاب الحقائق في ظل مولى النعم الذى ليس له في الفضل مدانى (افندينا المعظم عباس حلمى باشا الثانى)

لابرحت ثغور المعالى باسمة فى وجه عصره السعيد الذى سعدت به الامة المصرية الاسلامية بحسن عناية خليفة الله فى أرضه القائم على الحق ﴿ مولانا السلطان عبد الحميد ﴾ أيد الله دولته وعزز كلمته آمين بجاه الامين

أحمد التابعي

فهرست كتاب مرشد الخلق . الى طريق الحق

صحيفه

صحيفه

صحيفه

هذا كتاب

مرشد الخلق الى طريق الحق

﴿ لمؤلفه احمد التابعي ﴾

(نجل العلامة الفاضل الشيخ احمد التابعي السروي)

(مؤلف هذا الكتاب حائز لشهادة التدريس الانتهائية من دار العلوم الخديوية)

قد اطلع على هـذا الكتاب حضرة العلامة الشيخ سعيد الموجي من كبار المدرسين بالجامع الازهر الشريف فقال مقرظاً له :

بسم الله الرحمن الرحيم أحمد الله على ماوفق لحمد ما أسبغ من عطائه. وأشكره على ما أعان على شكر ما أتم من نعمائه . وأعوذ به من أن أزل أو أضل. أو أقول فيما يحل يحرم أو فيما يحرم يحل. وأستهديه الطريق الاسلم والصراط الاقوم. وأستجديه أن لا أقول عليه مالا أعلم وأصلي على صفوة العالم. وخلاصة ولد آدم. أبي القاسم سيدنا محمد بن عبد الله بن عبـد المطلب ابن هاشم. وعلى آله وصحبه قدوة المقتدين وصفوة المهتدين أما بعد فقـد وقفت على كتاب الاديب الفاضل. الاريب الكامل اللوذعي الالمعي. الافندي احمد التابعي. فاذا هو كاسمه (مرشد الخلق الى طريق الحق) لفظ وافق معناه واسم طابق مسماه طوراً يطيل فيطيب وطوراً يوجز فيعجز آيات بينات وحجج بالغات ومحجات واضحات فلله در ناظم عقده. ومحكم عقده. سيره الله في الامم سير السيل في الأمم وارشد به الخلق الى طريق الحق والله يقول الحق وهو يهدي السبيل وهو حسبي ونعم الوكيل. كتبه السعيد بن علي الموجي

المدرس بالازهر